مهرجان القراءة للجميع



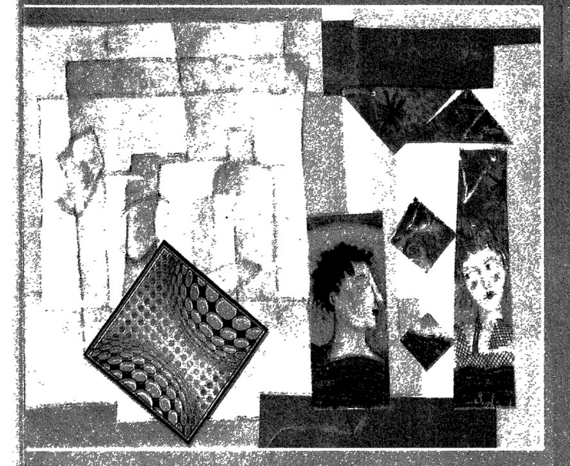
مكتبة الأسرة

د. محمد حسين هيكل

فى أوقات الفراغ

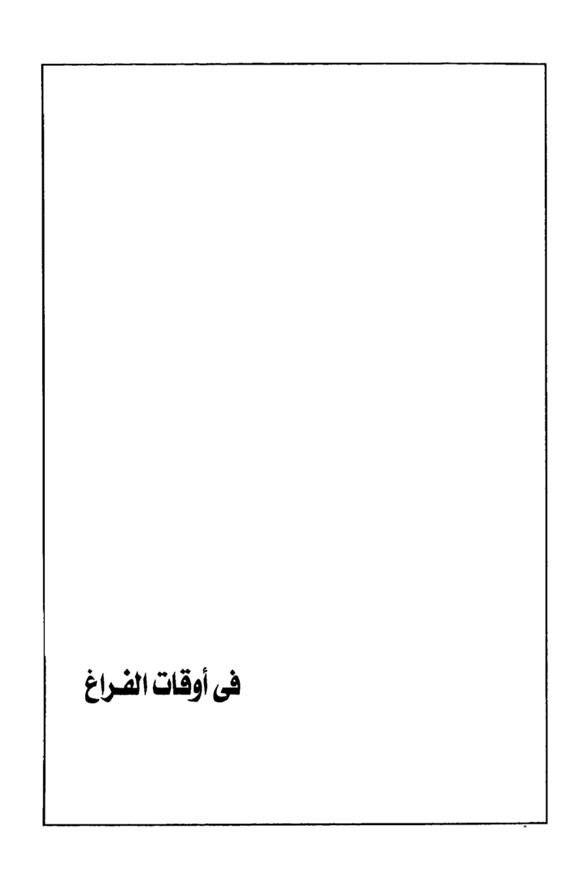
مجموعة رسائل أدبية.. تاريخية.. أخلاقية.. فلسفية

الأعمال الفكرية





الهيئة المصرية العامة للكتاب



فى أوقات الفراغ

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **فى أوقات الفراغ**

التقنية: **كولاج من لوحات مختلفة**

المقاس: **١٧ × ٢٢ سم**

منى محمود

قامت الفنانة بعمل كولاج لعدة لوحات، وقد اختارت لوحات عالمية شهيرة، واتجاهات فنية مختلفة، جمعت بينها جميعاً بطريقة القص واللصق، مع ترك بعض المساحات البيضاء، التى ظهرت وكأنها أعمدة ضوئية، لتحيل الفراغ إلى متعة لعين الناظر المشاهد، وأضفت الألوان القاتمة لإبراز الكتل الفراغية البيضاء، وتأكيد سطوتها على اللوحة، وقد وضعت لوحة كاملة للفنان فازاريللى من لوحات الخداع البصرى (الحركة البصرية)، حتى تكسر رتابة الهدوء فى لوحة الخلفية.

محمود الهندى

فى أوقات الفـراغ

مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية

د. محمد حسين هيكل



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

فى أوقات الفراغ

مجموعة رسائل أدبية تاريخية

أخلاقية فلسفية

د. محمد حسين هيكل

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

إلى الأستاذ الكبير

أحمد بك لطفى السيد

مدير الجامعة المصرية

سيدى الأستاذ المحترم

لك الفضل الأول فى تعليم من أسعدهم الحظ بالاستماع إليك أول شبابهم كيف يقضون أوقات فراغهم يفكرون فيما يعرض لهم من النظريات بسبب عملهم وأثناء أحاديثهم ومطالعاتهم. وكنت أنا أحد هؤلاء. ولك كذلك الفضل فى أن جعلت «الجريدة» ميداناً لما تسيله القلوب والعقول على الأقلام من ثمرات التفكير فى أوقات الفراغ. وكنت أنا مما أفادهم فضلك هذا بما نشرته فى الجريدة أيام كنت أطلب العلم فى مصر وفى أوربا وحين كنت محامياً. ولك فوق ما لك من الفضل ما يتركه عطفك الأبوى فى نفس من عرفك من حب وتعلق بك. لذلك كان حقاً علىّ وأنا أنشر بعضاً من ثمرات أوقات فراغى التى نشر فى الجريدة منها شىء غير قليل أن أتقدم بإهداء الكتاب إليك فذلك أقل ما يجب لك.

محمد حسين هيكل

إلى القارىء

هذه مجموعة رسائل نشر أكثرها فى الصحف والمجلات وكلها ثمرات لأوقات فراغى. كتبت على أثر مطالعات أو مشاهدات فى هذه الأوقات وما أثارته هذه المطالعات من تفكير خاص.

ولقد رتبت فى هذه المجموعة ترتيباً نظمت فيه الرسائل الخاصة بموضوع واحد بعضها اثر بعض من غير مراعاة لتاريخ نشرها ولا للصحيفة التى نشرت فيها. فبدأت بالنقد وبما متبته عن أناتول فرانس فى السياسة وفى الاستقلال وفى السفور، وفيه قسم لم ينشر. وتتلو ذلك رسالة عن بيير لوتى. ثم تتلو هذه عدة رسائل عن قاسم أمين، تعقبها رسائل عدة عن كتب نشرها جورجى زيدان ومصطفى صادق الرافعى والدكتور طه حسين ومحمد السباعى وغيرهم من رجال القلم. وهذا هو الكتاب الأول من المجموعة.

أما الكتاب الثانى فرسائيل خاصة بمصر؛ كرسائل بيبان الملوك وخلاصة كتاب مستر مارتر عن قبر توت عنخ أمون. كما أن فيه قصصاً وأحاديث كابيس وسميراميس وخالد وغيرها.

فأما الكتاب الثالث فرسائل متفرقة.

ولقد عنيت بأن لا أمس هذه الرسائل بتحوير إلا ما كان فيها من خطأ مطبعي أو بعض نبو في اللفظ عن المعنى المقصود وذلك برغم ما في بعضها مما أشعر اليوم بأنه يحتاج إلى إعادة تحريره من جديد.

وإذا وفقت هذه المجموعة إلى أن تشغل من أوقات القارئ فترة غير مملولة كنت بذلك سعيداً.

محمد حسين هيكل

(*) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٢٥ والطبعة الثانية سنة ١٩٦٨ وهذه هي الطبعة الثالثة التي تقدمها مكتبة الأسرة

الكتابُ الأوّلْ

فـى النقـد

خواطر فى النقد

دفعنى ملال الأرق إلى التنقل فى قراءتى بين كتب مختلفة. فانتقلت من روسو، إلى الأغانى، إلى أناتول فرانس، إلى مصطفى صادق الرافعى، إلى حصاد الهشيم للمازنى. وانقضت علىّ فى هذه الحال ساعات كان كل شىء حولى فيها ساكناً لأنها كانت ساعات ليل أرخى فيها الظلام سدوله على الوجود وعكفت فيها الخلائق على نفسها لتستريح من نضال النهار ولتجد فى أحضان الكرى نعمة النسيان المطلق تستمد منه قوة تعود بها إلى نضال نهار جديد.

وكنت كلما مللت القراءة فى كتاب وضعته إلى جانبى على المقعد الطويل وأطبقت أجفانى وحاولت تمليق النوم. فإذا استيأست منه تناولت كتاباً آخر وقرأت حتى الملال. فلما استطال بى الوقت جعلت أفكر فى معركة النقد الأدبى التى حمى وطيسها أخيراً بين كتابنا وانتقلت من ذلك إلى التفكير فى النقد فى فرنسا ومصر.وتواردت على اثر ذلك خواطر ثبت معها عندى أن الأخذ فى مصر بقواعد النقد الأدبى المقررة فى أوربا فيه شىء من التعسف غير قليل وأن الناقد فى مصر يجب عليه أن يكون أوسع صدراً وأكثر مرونة من غير أن يكون لذلك أقل دقة ومن غير أن يتهاون فى الحق أو يتسامح فيما يجب للفن.

يفرق الكتّاب فى أوربا بين النقد الذاتى والنقد الموضوعى. ويرى الأكثرون أن النقد الذاتى ـ الذى يصدر فيه صاحبه عن مجرد تقديره الخاص وحسه بالجمال فيجعله مقياساً لكل ما يعرض له من ثمرات الفن ـ نقد غير جدير بالتقدير، ذلك أن الناقد مهما يكن من سمو الإدراك وحسن الذوق لا يستطيع أن يضع كل صور الجمال ومظاهره فى مستوى واحد أمام نظره. وأنت إذا دخلت إلى متحف من المتاحف الجامعة لطرف فن التمثيل الحديث وجدت بين التماثيل الكثيرة التى يعبر بها نوابغ المثالين عن معنى خاص من معانى الجمال أوجه خلاف شتى. فهذا يرى جمال المرأة فى الخصر النحيل والساق الدقيق والنظرة الناطقة بمشاعر الحب كله. وذلك يراه فى انسجام ميول الجسم انسجاماً تتتبعه العين فى طمأنينة كما يراه فى النظرة البريئة الساذجة، وثالث يراه فى رشاقة الأطراف، ورابع فى بديع استدارة النواتئ. أتراك إذا كان حسك وذوقك ميالاً لنوع خاص من هذه المعانى إلا مأخوذاً به أكثر مما يأخذك إليه سواه؟ مع ذلك فهذه التماثيل كلها بدع من قطع الفن. فإذا أنت حكمت مندفعاً وراء شعورك فقد تعرضت للغلو فى مدح ما راقك وتعرضت كذلك لإهمال ما سواه مما حكم له غيرك من الذاتيين بالتفوق المطلق.

ومهما يكن فى هذا الاعتراض على النقد الذاتى من بعض الإسراف ـ لنسيان أصحابه أن أذواق الناقدين إنما تتكون بعد ممارسة طويلة لمختلف صور الفن الذى يعرضون لنقده ومعرفتهم أن الجمال لا يتقيد فى الذهن المثقف بصورة مطلقة ـ فإن فيه كذلك جانباً من الحق غير قليل. فالذاتية فى النقد داعية التحكم. والناقد قاض. وكل قاض تحكّم معرض للخطأ. ومهما يقل عن فضائل المستبد العادل فإن فيه إلى جانب فضله نقصاً لا محيد له عنه لأنه كمين فى طبيعة الاستبداد. ذلك أنه إن أخطأ مرة لم يجد من يصده عن الخطأ فأمعن فيه فتعرض لفساد كل مقاصده.

على أن النقد الموضوعى الذى يقصد إلى استعراض الأثر الفنى من الوجهة التى أرادها الفنان قصد غاية معينة ليحكم بعد ذلك على مبلغ توفيق الفنان فى اختيار

غايته والوسائل التى سلكها لبلوغ هذه الغاية لا يخلو من ذاتية النقد بمقدار قل أو كثر. فالناقد كما قلنا قاض. ومهما يتقيد القاضى بالوقائع والأدلة التى أمامهَ فإن لنوع تعليمه ولإدراكه وحسه أثراً مباشراً فى تقدير قيم هذه الوقائع والأدلة، والقاضى فى أمور الفن أقرب للتأثر بالذاتية من القاضى فى معاملات الناس. لأن الفن لا يرتبط بقوانين مرصودة النصوص كما ترتبط المعاملات، والفن لا يتقيد بقواعد مقررة عند السواد كما تتقيد الأخلاق، بل فيه مزية اللين والمرونة وله فضل الفيض والسيولة. لكنه مع لينه وفيضه ليس حراً إلى حد الفوضى، بل تمسكه الحياة بضروراتها وتخضعه لنواميسها الأزلية الخالدة التى تتحكم فى كل مظاهر الحياة. وإذا كنا لم نصل بعد لكشف ضرورات الحياة ونواميسها جميعاً فى دقة وتحديد علميين فلن يعفينا ذلك من الارتباط بها فى كل ما نعمل، والفن بعض ما نعمل.

لكن للنقد الموضوعى على النقد الذاتى فضل سعة الأفق ومزية العدل. فالناقد الموضوعى يعمل عمل القاضى السمح يسعى ليجىء تحت نظره عند النقد بالظروف الفنية وغير الفنية التى أحاطت بالفنان. ولا يتبرع برفض كل ما لا يلذه لذة خاصة وكل ما لا يرى فائدته إلا بعد إيمان بأن ما كره لا يمكن أن يكون سائغاً فى الحياة. وليتكون هذا الإيمان فى نفسه يجب أن يرد هذا النوع الذى ينقد إلى نظائره وأشباهه، ويرى هل لهذه النظائر والأشباه مثل فى الحاضر. فإن لم يكن لها مثل فى الحاضر رأى مثلها فى الماضى وما كان لهذا المثل من قيمة. ثم هو يستأنىً قبل أن يصدر حكمه ليرى أهذا المثل القديم قد قضت عليه الحياة قضاء أخيراً فلا سبيل إلى بعثه، أم أنه كانت له الشهرة زمناً ثم كسفه غيره وقد تعيده ظروف إلى الشهرة من جديد. وإذا كانت هذه الثانية هى الحال فهل هذه الشهرة متعلقة بشهوات الناس الأصيلة التى تبدو زمناً ثم تخبو ولكن لتبدو من جديد، أم هى من نوع أقوى حياة وأحرى بالبقاء بل بالخلود.

وقد يظهر فضل النقد الموضوعى على النقد الذاتى واضحاً صريحاً إذا دخل جماعة من النقاد متحفاً كمتحف اللوفر بباريس أو كالمتحف البريطانى بلندره أو غيرهما من هذه المتاحف الكبيرة التى تضم بين جدرانها آثار الفن فى العصور والبلاد المختلفة. هذا الناقد الذاتى تراه إذا وقف أمام قطعة أعجب بها أخذته عن نفسه وملكت عليه لبه ودفعته إلى أن ينكر ما لا سبيل لإنكاره من جمال الفن فى غيرها إذا هو رأى بينهما خلافاً أساسياً. أما الناقد الموضوعى فيرى لكل أثر جماله وإن اختلف عنده مقدار ما يخلعه جمال كل أثر على عصره وعلى العصور الأخرى من نعمة الحياة التى يرجوها كل إنسان فى آثار الفن.

وأكاد أحسبنى لا أغلو إذا قلت أن النقد الذاتى ليس نقداً وأنه إلى فن القصص أقرب. وهل تراه يزيد على وصف التأثرات الخاصة لشخص معين أمام مظهر من مظاهر الفن. فإذا كان هذا الشخص عادياً كان قصصه عادياً. وإن كان ممتازاً كان قصصه ممتازاً. لكنه على كل حال قصص وليس بنقد.

وقد يكون هذا الحكم الذى نصدره أصدق ما يكون على الأدب العربى فى هذا العصر. فليس نقد لهذا الأدب جديراً باسم النقد وبالبقاء لمن بعدنا على أنه نقد، إلا ما كان من نوع النقد الموضوعى، وما كلف صاحبه من العناء ما يحتاج إليه النقد الموضوعى. فأما الأدب الغربى فقد يجمع نقده الذاتى بين القصص والنقد. وسبب هذا الفرق راجع إلى نوع الثقافة فى الغرب والشرق من جهة وإلى تاريخ الأدبين من الجهة الأخرى.

فثقافة الغرب قد تأصلت جذورها وتشابكت فروعها وبلغت من الغزارة مبلغاً عظيماً. وهى بعد ترجع إلى أصول متشابكة على ما فى ثمرها من مظاهر التناقض. ثم إن ما أطعمت به من ثقافات أجنبية قد جاءها على هون وفى أناة وجاءها على يد أبنائها فتمثلته وأساغته وصار منها وسار فى تيارها. ولما كان الأدب مظهراً من مظاهر

الثقافة كان تيار الأدب الغوبى فى كل أمة مرآة لهذه الحياة الغزيرة. وكان كل كاتب وكل ناقد ينهل مع أصحابه من ورد مشترك فيشارك بذلك غيره من الكتاب والأدباء فى أكثر من ناحية من نواحى حسهم وذوقهم.

ولقد عنيت أمم الغرب فيما وضعت من قواعد التربية والتعليم بأن لا تجنى على هذه الشركة القومية العقلية. ومع ما تراه من شدة نضال الطوائف ومن اختلاف منازع الأحزاب وتقاتل آرائهم، ومع شدة أوار هذه الحرب العقلية الدائمة الاستعار فى الغرب يدرك أهل هذه الأمم تمام الإدراك أن الحزبية والمذهبية يجب أن تكون ثمرات للثقافة وأن لا تكون أصلاً من أصول الحياة. فكما أنك تبعث بأبناء الأمة يتلقون جميعاً علوماً معينة على طريقة معينة، وكما أن ذلك يظل شأنهم حتى يبلغوا الرشاد العقلى ويومئذ يختار كل منهم ما يشعر بالميل إليه من أنواع العلوم؛ فينقطع واحد للحقوق وآخر للطب وآخر للهندسة وآخر للتعليم وهلم جرا، ثم يتخصص الطبيب بعد تمام دراسته لطب العيون أو للجراحة أو للطب الباطنى، ويتخصص القانونى للمحاماة أو للقضاء أو للتشريع، ويتخصص المهندس للرى أو للعمارة أو للكهرباء. فإذا تخصص كل من هؤلاء جاز أن تكون له نظريات جديدة فى فنه يدعو إليها ويطالب أمثاله بالأخذ بها. كذلك لا تكون الحزبية المذهبية فى الأدب أو فى السياسة إلا بعد الأخذ من تلك الثقافة الغزيرة المشتركة بنصيب أوفر.

فالنضال الذى نرى واختلاف المذاهب والأحزاب فى الغرب هو كاختلاف ألوان الزهر والثمر فى الشجر. هذه الألوان لا يكون اختلافها آخذاً بالنظر داعياً إلى التفضيل إذا كانت باهتة ذابلة لأن الأشجار التى أثمرتها ضعيفة السوق ومادة الحياة. وإنما تأخذ بالنظر إذا كانت أمهاتها من الأشجار قوية مملوءة حياة وكانت تستمد هذه الحياة والقوة من أرض خصبة التربة لا ينفك صاحبها يعمل ليزيدها خصباً وقوة.

وأنت إذا تحدثت هناك إلى مثقف من رجال الدين أو من رجال العلم أو الأدب، أو من رجال الفن، رأيت لأول وهلة الأصل الثابت من الثقافة العامة بادى الأثر عند

هؤلاء الرجال جميعاً. وهذه الثقافة هى كما تقدم متأصلة متشابكة غزيرة. وهى ترجع إلى أصول مشتركة تمثلت كل مطعوم وكل طارئ. ولذلك صح لنا القول بأن النقد الذاتى لآثار الفن الأدبى فى الغرب يجمع بين النقد والقصص لأن آثار الفن ذاتها تصدر عن الثقافة العامة وتقصد إلى الغاية التى جعلتها هذه الثقافة غايتها.

أما النقد الذاتى للأدب العربى فقصص صرف وليس فيه شيء من النقد. لأنك لا تستطيع مع أكبر الأسف أن تقول أن ثمة فى هذا العصر الحاضر ثقافة عربية غزيرة مشتركة الأصول. ولا تستطيع أن تزعم أن أدبنا العربى مظهر هذه الثقافة . فالبلاد التى تكتب العربية وتتكلمها فى هذا الزمان الذى نحن فيه قائمة ثقافتها على أرض جرداء، فيها أكثر الأمر نبت مستقيم من مخلفات الماضى المجيد ومجهودات تنفق لتطعيم هذا النبت السقيم بمظاهر مدنية الغرب الحاضرة. بل إن من الجهود ما ينفق ليطعم بمدنية الغرب غير فرع ولا شجر ولكن ليلقى بها فى هذه الأرض المكسو ظاهرها بالصدأ والمحمل باطنها بميراث الماضى فلا يستطع أن ينبت نباتاً منقطع الصلة تمام الانقطاع بهذا الميراث. وتلك لعمرى جهود ستبقى عقيمة حتى يجيء الزمن الذى يربط ما بينها وبين مدنية شرقية قائمة.

وما أرانى أغلو فى شيء مما أقول. وبحسبك مقنعاً أن تستمع فى مجلس إلى قوم اختلفت معاهد العلم التى أنشأتهم. فإنك لن تجد بينهم أى معنى من معانى الاشتراك فى الثقافة. بل ترى الشيخ الذى نشأ نشأة دينية لا يكاد يتفاهم مع من تعلم فى معهد الحكومة المدنية. وهذان لا يتصل واحد منهما بصلة التفاهم مع الذين أخذوا من الثقافة الغربية بحظ ونصيب. لذلك ترى هذه المجالس تخلو أكثر الوقت من كل حديث مثقف وتدور فيها الأحاديث حول تافه الأمور ومصالح الحياة. هذا على أنك ترى الأحاديث المثقفة أمراً عادياً فى أوربا فى كل الطبقات. وترى الكلام فى شؤون الفن والأدب والعلم تتداوله الألسن على مائدة الطعام وفى قاعات الاستقبال وفى كل مكان.

هذا التباين فى الثقافة بين الفئات المختلفة فى الشرق لا يجد حتى اليوم ما يخفف من حدته، بل إن تفشى الجهل فى سواد الأمم الشرقية وما يترتب على الجهل من ثورة نيران التعصب يجعل كل سعى للتقريب بين هذه الفئات يحاط من الريب والشكوك بما يجعل فشله محتوماً أو فى حكم المحتوم. كما أن هذه الفئات لم تبلغ ثقافة واحدة منها مكاناً علياً ينبت من بينها الذين ينسون مصالح الحياة ويتعلقون بالحق وحده ويجعلون سعيهم فى سبيل هذا الحق كل غرضهم فى الحياة وأملهم منها. ومصالح الحياة لن تصلح يوماً أداة اتصال بين متباين هذه الثقافات للوصول بها إلى أن تتشابك فروعها وتغزر مادتها وتتقارب ولو فى أناة لتكون يوماً ثقافة قومية لها من الحكم والسلطان ما لثقافة كل أمة من أمم الغرب.

لكن النقد الصالح يكون أداة هذا الاتصال. والنقد الصالح فى هذا الموقف هو النقد الموضوعى البحت. هو النقد الذى يستطيع أن يسيغ كل ثقافة لذاتها وأن يردها إلى أصولها وأن يبين ما فى الآثار الفنية لكل مثقف من أوجه الجمال والقبح والحسن والسوء بالقياس إلى الثقافة التى صدر عنها وأن يبين كذلك أوجه الاشتراك الصالحة بين هذا الأثر وبين ما سواه من آثار غير هذه الثقافة، وأن يجعل من أوجه الاشتراك هذه وسيلة لترسم المستقبل. فإذا أمكن أن يكون هذا النقد وأن يتجه إلى ناحية الكمال لينال منه أكبر حظ ممكن كان الأمل فى تقارب هذه الثقافات فى أناة ومن غير احتكاك. أما النقد الذاتى الذى يصدر عن ذى ثقافة معينة لكل آثار الفن والأدب فقد يكون من أثره أن يزيد ما بين الفئات من تباين وأن يبعد الأمل فى وجود ثقافة عربية أو ثقافة مصرية.

وما أحسب أثراً أدبياً أو فنياً يخلو من جمال وحسن مهما تكن الثقافات التى يصدر عنها، كذلك لا أحسب أثراً من هذه الآثار خليقاً بالمدح وحده. فإذا وضع الناقد نفسه فى الموقف الذى وقف فيه الفنان وتحرى الغاية التى قصد إليها والسبيل التى سلك لبلوغ هذه الغاية فإنه واجد حتماً أن هناك حظاً من الحسن كبيرا أو

صغيراً، كما أن هناك حظاً من السوء كبيراً أو صغيراً فى موقف الفنان وغايته وسبيله. وإذن فقد وجب عليه أن يبين هذا الحظ من الحسن والقبح، وأن يعالج صلة الحسن بما يراه من مثله من آثار الفن الأخرى ليضع حجراً فى أساس الثقافة القومية.

أعلم أن هذا النوع من النقد يحتاج إلى مجهود كبير. لكنه كذلك جم الأثر. وهو وحده الصالح فى رأيى لربط آثار الفن المختلفة وإقامة بناء قومى يكون أساس ثقافتنا فى المستقبل.

وإن الناقد الغربى مثله حين يعرض لآثار الفن مثل الرجل يدخل فى قصر مشيد ثابت الأركان مزين بالداخل والخارج قد جىء فيه بزينة جديدة وضعت فى مكان معين من إحدى الغرف وهو يبدى رأيه فى صلاح هذه الزينة وصلاح المكان الذى وضعت فيه وهو على علم بالقصر وما اشتمل عليه. فلو أن نقده كان ذاتياً بحتاً لم يعتمد فيه إلا على تقديره الخاص وحسه بالجمال، لكان عرضة للتحكم؛ لكنه تحكم نسبى لأن علمه بالقصر وما اشتمل عليه يعدل به عن التورط فى فاحش الخطأ. أما الناقد العربى فمثله حين يعرض لآثار الفن كمثل الرجل يذهب إلى أرض يراد تشييد بناء عليها من مواد كثيرة بعضها حاضر وبعضها غائب وهو مكلف بالاختيار بين الصالح من المواد الحاضرة وبين ما يجب إحضاره ليكون البناء متيناً قوياً ملائماً للذين يتخذونه مقاماً وسكناً. هذا الناقد العربى أدق من صاحبه الغربى مهمة وأشق عملاً، وهو بعد لا يحظى بمثل مكانته ولا ينال مثل شرفه، وهو بعد منظور إليه من الفئات المختلفة المتباينة الثقافة بشىء غير قليل من الريبة، وقل أن يحظى من الجمهور بذلك العطف والإعجاب اللذين يحظى بهما ناقد الغرب. لكنه إذا رسم لنفسه غاية التقريب بين الفرق والتأليف بين مختلف منازعها وآرائها، وبيان الصالح وغير الصالح من آثارها، وشمله التوفيق بحظ يجعل عمله مثمراً، إذن فقد مهد السبيل إلى الثقافة القومية ووضع حجر الأساس فى المدينة الفاضلة التى لا تقوم على غير هذه الثقافة.

وما نحسب أحداً يخالفنا فى ترتب هذا الأثر على النقد الموضوعى. وما نحسب كذلك أن ما ينفق فى سبيل بلوغه من الجهد إلا ينفق فى خير سبيل ولخير غاية. والجهد الذى يقتضيه النقد الموضوعى يحتاج من الناقد إلى الرضوخ لنوع ثقافة الكاتب الذى ينتقده وصلة ما بين الكاتب وهذه الثقافة وموضعه منها وفضل الكاتب أو نقصه وصلته بآثار غيره من الكتاب وهلم جرا.

خذ مثلاً كاتباً كمصطفى صادق الرافعى. فهو من الكتاب الذين يرون جمال الأدب العربى فى احتذاء أساليب الأقدمين من الكتاب. وهو قد يغلو فى تنفيذ فكرته إلى حد التوغل فى الماضى والبحث فى آثار الأقدمين عن نوع خاص من الأساليب يبدو لأهل هذا العصر فى ثوب من التكلف الذى لا يسيغه غير الملمين بهذه الآثار، ولا يرتاح إليه كثير من الملمين بها ومن يجدون بين الأساليب القديمة ما يتصل بأساليب عصرنا ويتسق وإياها على خير نحو كأسلوب صاحب الأغانى وكأسلوب ابن المقفع فى كليلة ودمنة وفى غيره من كتبه. لكن الرافعى حتى عند هؤلاء وأولئك يجيد فى بعض الأحايين ويسمو باجادته إلى درجة عالية فى النوع الذى يعالجه من أنواع الفن، ويتفق له أحياناً من بديع صور الخيال ما يبعث إلى نفس قارئه هذا الأثر الذى يطمع فيه كل فن: الغبطة واللذة. فأنت إذا أردت نقده نقداً موضوعياً وجب أن تبين ما له من فضل وأن تظهر كذلك أن هذا الأسلوب الذى يكتب به لا يسهل تحميله كل المعانى والصور التى كشف عنها تطور المدنية فى هذا العصر.

ولكى تستطيع أن تصف الرافعى أو غيره من الكتاب يجب أن توازن بين أدبه وأدب غيره من مذهبه ومن المذاهب الأخرى. فأنت بهذه الموازنة تجعل القارئ مطمئناً تمام الاطمئنان لحكمك، وتجعل الكاتب الذى تنتقده بعيداً عن أن يطعن فى نزاهتك.

واطمئنان القارئ لحكم الناقد عظيم الأثر فى درك الغاية من النقد الموضوعى على ما بيناها. وهى غاية سامية على ما رأيت. وليس من غضاضة فى أن يجعل إنسان من السعى إليها غاية حياته.

* * *

هذه بعض خواطر فى ا لنقد وردت على الذهن فى تلك الفترة من الليل دوناها كما وردت ولم نرد أن نضيف إليها شيئاً، وهى لا تزيد على أنها خواطر. ولا نطلب إلى قارئها أن يجعل لها أكثر من هذه القيمة.

أناتول فرانس

١

الاحتفال بلوغه ثمانين عاماً

(فى ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤)

احتفلت فرنسا أول منْ أمس بأناتول فرانس شيخ مشايخ كتابها فى هذا العصر لبلوغه الثمانين عاماً. وقد شارك فرنسا فى احتفالها برجلها الكبير كل كتاب العالم المتمدين. فليس أناتول فرانس كاتب فرنسا وحدها، وهو ليس كاتب هذا الجيل وحده، إنما هو من كتاب العالم الذين تظل كتبهم للعالم فى كل الأجيال وفى كل الأمم. هو هومير، وهو دانت، وهو شكسبير، وهو جيتى، وهو أناتول فرانس. هو الفكرة الإنسانية المجتمعة فى نفس واحدة. لذلك كان الاحتفال به احتفالاً بالفكرة. وإذا صح أن الفكرة هى الحياة فى أسمى معانيها فالاحتفال بأناتول فرانس احتفال بأسمى معانى الحياة.

ومن حق أناتول فرانس على المصريين أن يذكروه يوم الاحتفال ببلوغه الثمانين، فهو كاتب من كبار كتاب العالم. وللكاتب من المكانة فى النفوس ما ليس لغيره،

لأن الكاتب كغيره من رجال الفن ـ بل أكثر من غيره من رجال الفن ـ هو أداة انتقال الفكرة بين ا لناس جميعاً؛ وهل كان لغير آثار الفن ومظاهر الفكر خلود على الحياة؟ إن العالم لا يزال يتناقل شعر الأقدمين وحديثهم وما كتبوا معجباً به مقدساً إياه، والعالم لا يزال يجد فى آثار الفن مما خلف المصريون القدماء والرومان واليونان متاعاً للقلوب والعيون. فالعالم لا يذكر سوى آثار الفن ومظاهر الفكر والفن على صفحات الحياة.

ومن حق أناتول فرانس على المصريين أن يذكروه يوم الاحتفال ببلوغه الثمانين. فقد عرف هذا الكاتب الحكيم ما أصاب مصر من ظلم، وما تتطلع إليه من حرية ومجد يوم كان الوفد المصرى فى باريس سنة ١٩١٩ . فلما كتب مارجريت كتابه «صوت مصر» وضع أناتول فرانس له مقدمة شارك بها هذا الشعب المجيد الطامح إلى ا لحرية وإلى المجد فى آماله وفى طموحه.

وكنا نود أن نذكر أناتول فرانس وأن نشارك العالم فى الاحتفال به بشرح فكرته وكتبه، لكن فكرة أناتول فرانس فكرة واسعة المدى، وكتبه من تلك الكتب الدقيقة التى تحتاج منك إلى عناية كبرى، لا يسعك أن تترك صفحة من صحفها من غير أن تلتفت إليها، وأن تشرك القارئ معك فيها. كل صفحة، بل كل سطر، كالماسة الدقيقة قد يفوتك جمالها لأول نظرة تلقى بها عليها، فإذا أنت قلبتها وأنعمت النظر فيها ثم عدت إليها لم تطق بعد ذلك تركها. ومثل هذه الصحف، ومثل تلك الكتب وما تحويه من فكرة وفن ليس مما يهون نقله فى كلمة تكتب فى صحيفة سيارة.

لكنا مع ذلك نود أن نشرك القارئ معنا فى كل مجمل من بعض نواحى فكرته علنا نكون قد أدينا للكاتب الكبير حقه من الذكر، ولشريك المصريين فى آمالهم ومطامحهم بعض ما يجب له من الشكر.

* * *

أناتول فرانس كاتب، لكنه كاتب محيط بكل ما فى الحياة، محب لكل ما فى الحياة، ساخر من كل ما فى الحياة. هو ليس بالرجل الذى يقف عند أحد مظاهر الحياة فيولع به حباً وينقطع لتقديسه والتسبيح بحمده. وإنما يقف أمام هذه المظاهر جميعاً. سواء ما كان منها فى الماضى وما هو واقع أمام النظر، وهو يرى فى كل منها موضعاً لمسرة النفس والعقل، فيبحث عن هذه المواضع يبتغى لنفسه المسرة واللذة، ويطول به البحث فلا يلبث أن يرى إلى جانب المواضع السامية مظاهر الضعف الإنسانى فيبتسم، وقد يضحك. وهل الحياة إلا الاضطراب بين القوة والضعف، والرفعة والضعة، والسمو والانحطاط؟ وجوانب الضعف فى الحياة هى التى تحبب الحياة إلى أكثر الناس، بل هى حياة أكثر الناس. وهى، على أنها جوانب ضعف فى نظر العقل وحده، جوانب القوة فى الحياة. أليست الشهوة فى الإنسان ضعفاً؟ شهوة الحكم وشهوة المال وشهوة المجد وبعد الصوت. لكن هذه هى التى تدفع الإنسان لكل النقائص، هى التى تبعث فيه القوة على الكفاح والسعى والنجاح فى الحياة. أفتضحك أنت من سلطان الشهوة الذى يدفع فى النفس الحياة، أم تضحك من حكمة العقل الذى يقف عاجزاً أمام سلطان الشهوة مكتفياً بالسخر منها...؟

يقف أناتول فرانس أمام مظاهر الحياة جميعاً، ماضيها وحاضرها. وهل سبيل إلى الوقوف أمام مظاهر الماضى غير الكتب وسائر آثار الماضى. لذلك يحب أناتول فرانس الكتب، ولذلك يفرد لها من داره خير مكان، ولذلك يعنى بها عنايتك بابنك العزيز عليك، لا يضن عليها بمشقة. هو قد يعرف أن كتاباً نفيساً فى بلد سحيق، فلا يزال يسعى ليحصل عليه، ولو كلفه السعى الأسفار وأكثر من الأسفار، ويعدل حبه للكتب حبه لسائر الآثار، فالرسوم والنقوش والصور على أنواعها عزيزة عنده. وهذا الغرام يدفع به إلى الولع بالمجموعات العجيبة النادرة. وقد يدهشك ما تكلف هذه المجموعات من مشقة ونفقة. سافر «سلفستر بونار» بطل رواية أناتول فرانس المسماة

بهذا الاسم إلى إيطاليا باحثاً عن علبة من الكبريت عليها صورة قديمة تكمل مجموعة من مجاميعه، وعلب الكبريت وما عليها من نقوش ليست أعجب ولا أندر المجاميع.

وهذا العاشق للكتب يجد أكبر اللذة فى التحدث إلى ما فيها ومن فيها، وإلى كتّابها ومؤلفيها. كان من أول ما كتبه أناتول فرانس رسائل فى نقد الكتب والكتّاب مجموعة اليوم فى أربعة أجزاء بعنوان «الحياة الأدبية». فى هذه الرسائل القصيرة صورة من أناتول فرانس، فيها ترى الرجل المطمئن النفس والضمير، الدائم الابتسام، الجامع فى ابتسامته بين الاشفاق والاستخفاف؛ وفيها ترى الرجل الذى استطلع صور الحياة فى مختلف العصور ومختلف الأمم. ولعل أصدق صور حياة الأمم ما تتناقله من أساطير. لذلك يحب أناتول فرانس الأساطير ويلذه أن يرويها هازئاً بما فيها من سخف الإنسانية التى لا تزال طفلة برغم ما مر بها من القرون، محباً لهذا السخف حبك لما يبدو من الطفل الصغير الذى تحبه لسخفه.

والحياة فى نظر فرانس، الحياة الإنسانية على الأقل، أو قل الحياة كلها، ليست نظاماً محكماً يستطيع العقل تقرير أسسه وقواعده. إنما هو مجموع مضطرب دائم التجدد والانهيار، للمصادفة فى تجدده وانهياره أثر كبير. لذلك لا تراه فى كتبه روائياً، ولا شاعراً، ولا فيلسوفاً، ولا قصصياً. بل تراه حكيماً جمع بين الشعر والفلسفة والقصص والرواية، وألف بينها فى نظام بديع كما يؤلف الصائغ بين مختلف الدرر المختلفة اللون والشكل فلا يكون من هذا الاختلاف إلا كمال النظام، ولا يكون من جمع فرانس بين صور الحياة المختلفة إلا ما يزيد المجموع حقيقة وحياة.

ولتكون حياته حية حقاً، وليكون فيها كل ما فى الحياة من معان وصور، ينزع هذا الكاتب الكبير فى كل كتبه إلى الحوار. وهو يجمع المتحاورين من مختلف طبقات الجماعة على صورة عجب. فهو يجمع بين الفلاسفة والعلماء الذين ملوا

الحياة فكانوا لشدة ما ملوها أشد لها حباً، وأكثر بها تعلقاً؛ والشبان الذين لا يزال الأمل فى المثل الأسمى يغويهم بالمجازفات والمخاطر، فيجعلهم بمجازفتهم ومخاطرتهم أكثر استمتاعاً بالحياة وإن كانوا أكثر لها احتقاراً؛ والعذارى البالغات فى الطهر والبراءة حد السخف والتفاهة، والسيدات اللاتى اعتصرن لب الحياة من قلوب الرجال وعقولهم، فهن ينعمن به ويخلعن فتات نعيمهن متاعاً للرجال. فإذا اجتمع هؤلاء ودار الحوار بينهم رأيت الإنسانية على حقيقتها، ورأيت العقل المحلق فى سماوات التجريد يصل إلى حدود الوهم، ويحسب الوهم حقيقة وحساً، ورأيت العلم المحدق بالجهر المستكشف بالأشعة الواقف عند حدود الملاحظة يزعم أنه كشف عن حقيقة كل شيء ونظامه، وهو بعد عاجز عن أن يكشف عن كثير من أقرب الأشياء لنا وأمسها بنا. ورأيت هذا العلم وذلك العقل فى اندفاعات الشباب ما يبسم له العالم الفيلسوف. ورأيت فى اندفاع الشباب وشهوته وحياته ما يضطرب له العلم والعقل فزعاً، ثم كانت الابتسامة التافهة الظاهرة، وكانت النظرة النسائية المملوءة حباً للحياة وحرصاً على خلودها... وأنت بين هذه القوى المتدافعة تشعر بيد الكاتب المحسنة تنقلك من حديث إلى حديث فإذا كل حديث حق وحكمة، وإذا العقل والعلم والشباب والحب كلها الحياة الدائمة الانهيار والتجدد فى نظام لا يضطرب ولا يتعثر، وإذا هذا الحوار الذى جمع بين هذه المظاهر كلها هو صورة الكاتب الذى يرى الحياة من كل جوانبها ويحبها جميعاً حب حنان ورحمة كما يحب الأب ابنه، وحب استمتاع ولذة كما يحب العاشق معشوقته، ثم إذا بك قد شغفت بهذا الحوار حباً أن صاغه أناتل فرانس حواراً مملوءاً بالحياة والقوة؛ لكنها حياة مطمئنة وقوة هادئة؛ وهو مع حياته وقوته ينساب سلساً فى أسلوب لا ينبو وكأنه الماء الصافى ينم صفاؤه عن كل ما فى الغدير من صور الحياة فيزيدها بهاء وجمالاً.

وهذه الحكمة التى تجمع العقل والعلم والشباب والحب وكل ما فى الحياة من صورة ومعنى، والتى تدرك كل شيء وتعذر من كل شيء وتشفق على الضعيف

إشفاقها على البائس وعلى الأثيم، لأنها ترى الإثم بؤساً وضعفاً، وترى الضعف بؤساً وإثماً؛ والتي تعجب من الحياة بكل صور الحياة ـ هي أسمى مظاهر ما يسمونه التشكك واللأدرية وما شئت من ألفاظ تقابل لفظ (السيبتيسيزم) الفرنسي. وهل ترى في الحياة شيئاً ثابتاً تقف عند الإيمان به دون سواه؟ أليست الحياة تمور وتجدد وتتغير؟ فأى صورها خير؟ أيهما أنعم حالاً: هذا الرجل الغنى المستمتع بسلطان الغنى وبجاه المال والقدير على أن يحسن ويسىء؛ أم هذا الرجل الفقير المنقطع إلى الله يريد أن يغفر الله له وهو لا يستطيع لنفسه ولا لغيره خيراً ولا شراً ولا يستطيع الإحسان ولا الإساءة؟ وأيهما أكثر بالحياة استمتاعاً: هذا العالم الذى بحث أسرار الحياة ووقف من دقائقها على كثير؛ أم هذا الرجل الساذج المفتول الساعد الذى يسير بين الموجودات سيرة الحيوان القوى ويستمتع بها استمتاعه؟ وأيها أحب إليك: هذه المرأة الجميلة التى تجد فى كل وقت من إعجاب المعجبين بها ما يملأ قلبها سروراً، وهى مع ذلك معنية بهم جميعاً معطية نفسها للحاضر خشية ما فى المستقبل من تجاعيد فى الوجه ومن بياض فى الشعر؟ أم هذه الأم المكبة على عملها فى بيتها تنتظر من أولادها رجالاً يكونون لها فى المشيب شباباً وحين الضعف قوة؟.. ثم أى الجماعات أسعد: أهى الجماعات القديمة الرحالة العائشة عيش البدو والبساطة؟ أم هى الجماعات المتمدينة المترفة الجامعة إلى جانب بؤس الفقراء ما تنعم الجماعة به من صور الفن والعلم؟

لكن هذه جميعاً على ما بينها من تناقض هى صور الحياة. وهى كلها قد اجتمعت عند أناتول فرانس فوسعتها نفسه فتفتها قلمه، معجباً بها محباً إياها جميعاً.

وهو لا يقف عند محبته للحياة، بل هو يحب مظاهر الحياة، على أن تكون هذه المظاهر باقية متجددة. وليس باقياً على الحياة من مظاهرها إلا العلم والفن. وهو لذلك بهما مشغوف ولهما عاشق. وهو لشدة شغفه بهما يتمثلهما تمثلاً. فعلمه فن وفنه

علم. اقرأ ما شئت من كتبه. إنك لن ترى فيما تقرأ خيالاً ولا وهماً. إنما تلك آثار الفكر الإنساني في مختلف العصور؛ وقف عليها فرانس لأن شغفه بالإنسانية جعل الأقاصيص والكتب وما إليها من آثار وصور عزيزة عليه فهو لا يفتأ ينقب فيها من غير ملال ولا ضجر. وهل يمل محب النظر إلى محبوبه؟ وهل يمل التغني بآثاره؟ وهل يمل الابتسام من ظريف سخفه وحمقه؟ إذن أنت إذ تقرأ ما يلذ لفرانس أن يكتبه من قصص الماضي إنما تجتلي ابتسامته الساخرة من غير سوء؛ وأنت تقرأ تاريخ الرومان في كتابه (على الحجر الأبيض) وتاريخ العصر الحاضر في أجزائه الأربعة وفي سائر كتبه، إنما تسمع أغاني هذا المحب الوامق للإنسانية الخالدة بنعيمها وبجمالها المخيف وقبحها المليح.

لكنه في حبه للحياة يمقت من مظاهر الحياة القسوة والشقاء، ولا يرى في أولئك العظماء الذين يقيمون عظمتهم على ا لدماء إلا قتلة مجرمين؛ وهو لذلك يحب الاشتراكية لأنه يعتقدها محققة أكبر قسط من العدل، وإن كان يسخر من الإنسان ولو اشتراكياً لأنه يعرفه خاضعاً للشهوة، والشهوة لا تعرف العدل. هو يحب الاشتراكية ويمقت القسوة والشقاء والدم؛ ويرى في أبطال الثورة الفرنسية، أو آلهتها كما يسميهم، قوماً غلبت أطماعهم مبادئهم فهدموا ركن العدل الذي سعوا لإقامته لأنهم لجأوا للبطش والتنكيل بالحرية. وهل للحياة من غير الحرية معنى أو قيمة؟ أو ليس إذن من واجب كل فرد أن يقوم في وجه كل اعتداء على الحرية مهما كلفه قيامه من تضحية؟..

أعلنت ألمانيا الحرب سنة ١٩١٤ وكان فرانس يومئذ في السبعين من عمره، وكان في ذروة مجده وحكمته، مع ذلك هجر قصره ومجموعاته المحبوبة وذهب إلى أصدقائه الوزراء يرجوهم ويلح في الرجاء أن يكون جندياً يدافع عن الحرية المهانة، وكم كان أسفه عظيماً حين اضطر إلى أن يعود إلى حياة السكون لأن الجيش لا يقبل من بلغ السبعين في صفوف الجنود.

ولا يزال فرانس إلى اليوم أكبر نصير للحرية على مختلف صورها؛ ولا يزال نصيراً لحرية الفكر والرأى بنوع خاص. دافع عن هرفيه يوم حوكم لأنه كتب يحبذ إحدى الجرائم. ودافع عن مؤلف (لاجارسونّ) يوم استردت الجمهورية منه (اللجيون دونور). وهو في دفاعه يرى أن كل عمل وكل قانون يحد من حرية الرأى وإبدائه قانون أثيم.

فالحرية وحدها والدفاع عنها هو الذى يثير هذه النفس المطمئنة، وهو الذى يمحو عن شفاه أناتل فرانس ابتسامتها الدائمة. فأما ما بقيت الحرية مصونة فالحياة سخرية لذيذة تستحق أن تحب فى سكون وسلام؛ فإذا كان آخر الأجل اطمأن الحكيم إلى الانتقال من هذا العالم راضى النفس هادئاً مستريحاً.

* * *

فلعل القدر الذى مد فى أجل هذا الحكيم إلى الثمانين يضاعف له فى سنى الحياة. فليس شك فى أن كتاباً يكتبه فى عام يعدل حياة كاملة تقضى فى حماقة من الحماقات التى تنطوى صفحتها بانطواء صحيفة الحياة.

أناتول فرانس

٢

لمناسبة وفاته فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤

ارتضى أناتول فرانس أن يموت أمس. ولسنا ندرى مبلغ ما كان لرضاه من حظ فى فاجعة موته. لكنه عودنا أن نقرأ عمن نقلتهم ريشته من عالم الحياة أنهم ارتضوا الموت، وأنهم كانوا بالموت أكثر رضا كلما كانوا من الحكمة أوفر حظاً. فإذا صح هذا كان أناتول فرانس قد مات لأنه أراد أن يموت، وكان قد طال احتضاره لأنه لذ له أن يتذوق على مهل درجات الحياة ودركات الموت. وكذلك كان من فضل حكمته أن اتفق كتاب أجله مع ما أراد لنفسه.

ارتضى أناتول أن يموت فى منتصف الحادية والثمانين من عمره وأن يودع العالم ولما يمض نصف عام على احتفال العالم بثمانينه. فكأنه استنفد فى ستة أشهر تاجاً من المجد كان يكفى ليقيم حياة متهدمة سنين طوالاً. أو كأن الاعتراف بفضله

طمأنه إلى أداء واجبه للحياة فرأى من حق نفسه عليه أن يستريح من الحياة. أو ليس من حق من جهد نهاره أن ينام مطمئناً؟ فمن حق من جهد حياته أن يموت راضياً.

ولقد قضى أناتول فرانس حياة جد وعمل لم يفتر يوماً ولم يخمد نشاطه؛ ولم يلهه المجد ولا الجاه ولا المال عن العمل. بل كان كلما علا نجمه زاد سعيه، وكان سعيه فى دائرة العلم والفن. وتلك دائرة أزلية خالدة من زادها سعة أجلسته فى عالم الخلد على أكثر عروشه سمواً. ولعل العرش الذى قدر لأناتول فرانس أن يجلس عليه هو بين أسمى تلك العروش السامية.

* * *

ولد أناتول فرانس بباريس فى ١٦ ابريل سنة ١٨٤٤م. وكان اسمه جاك أناتول فرانسوا تيبو، وكان أبوه صاحب مكتبة؛ فشب بين الكتب والنقوش والصور فهويها جميعاً. لكنه أحب القديم منها وتعشقه. فجعل يديم فى هذا القديم النظر والفكر. فقرأ كتب اليونان والرومان ودرس كتب ا لمسيحية أول نشأتها. لكن غرامه بهذه الصور لم يثنه عن درس عصره وعصور السابقين له. وكان أكثر دراسة للشعراء لأنه كان مولعاً بالشعر وبقوله. فكانت أولى رسائله رسالة عن الفرد دفينى Alfred de Vigny نشرها فى سنة ١٨٨٦م. ثم انقطع للقريض ينشره فى مجلات الشباب حتى إذا كانت سنة ١٨٨٣م. نشر مجموعة من الشعر عنوانها Poèmes Dorès قابلها النقاد جميعاً بالاستحسان وأعجب الناس منها بسمو الفكرة ورشاقة الأسلوب وبروز ذاتية الشاعر. ثم نشر بعد ذلك عدة كتب تناول فيها بدء ا لمسيحية فى انتشارها، ونالت هذه الكتب من الإعجاب ما نالته مجموعة شعره الأولى حتى لقد قال عنه ناقد: «إن لأشعار فرانس صفاء سماء الشرق وبساطة فرجيل وسلاسة الأقدمين. ولكأنها حديث

اللاتين سرى بين أبحاثنا فى اللغة وفى الإلهام. وشعره ضاحك ضحك دافنيه، ويشتمله ما يشتملها من أردية الأقدمين التى تمتاز ــ وإن ألقيت على أكتاف شابة ــ بدقة فى الثنايا وبرشاقة التماثيل».

ولم يقف أناتول فرانس عند قرض الشعر، بل ظل بحكم نشأته بين الكتب فى مكتبة أبيه مغرماً بالكتب عظيم الشغف بها والمحبة لها. وكما يود المحب أن يقدم لمحبوبه أجمل الهدايا، كان هو يود أن يهدى الكتب ما يعجبها ويلذها. فشارك فى وضع فهرس نشر تحت اسم Bibliophil illustrè. ثم نشر لمحبى الكتب مؤلفات راسين وكتاب العفريت الأعرج للساج ومؤلفات موليير وغيرها من الكتب بعد إذ علق عليها جميعاً بشروح جليلة الفائدة.

وفى سنة ١٨٨٧م تولى قسم النقد الأدبى فى جريدة الطان. فلم يقف نقده عندما كان يظهر من الكتب بل كثيراً ما كان يتناول كتباً قديمة، وكثيراً ما رجع إلى شعراء الرومان واليونان وكتّابهم يتحدث عنهم إلى قارئيه ويتحدث واياهم عن زمانهم ويشرك قارئية معهم فى الحديث. وكان حديثه يخلق من مقالاته فى النقد «صالون» أدب، يأوى إليه الكتاب والفلاسفة قدماء ومحدثين.

ومن ذلك التاريخ بدأ أناتول فرانس يهجر الشعر ويظهر فى ثوب جديد. وكان ثوبه هذا أكثر جمالاً وبهاء من شعره، ومن ذلك التاريخ قيل عنه: «مهما يكن من فضله كشاعر فقد عقد له لواء المجد عن حق كمتحدث ذى ظرف وكياسة». لبس ثوب المحدّث فى كتبه وفى قصصه وفى رواياته، وظل مرتدياً إياه لم يخلعه إلا أمس حين عقل الموت قلمه ولسانه.

* * *

كان فرانس إذن باريسى المولد والنشأة. وكان فى مكتبة أبيه يقلب ما يشاء من كتب ونقوش وصور. وباريس عالم يموج بكل صور الحياة: ماضيها وحاضرها. اجتمع فيها جلال القديم وبهاء الحديث؛ تتحدث إليك مدارسها ومتاحفها؛ تناجيك طرقها وبساتينها بكل ما قد يجول بنفسك من حديث أو نجوى. وكل سؤال لك فيها له جواب. أتريد أن ترى الملك وعظمته؟ إذن فاقصد إلى فرساى فنا ج هذه التماثيل المنتشرة فى كل مكان محدثة عن جلال الملك وسلطانه. أتحب الديمقراطية والجمهورية؟ هذه الحياة هناك فيها كل مظاهر الديمقراطية من حرية ونشاط. وكل مظهر للملك وكل أثر للحرية تجد منه ما تحب فى هذه المدينة. والكتب عالم أوسع من باريس وأطول من الحياة. أليس قد اجتمع فى صحفها ميراث الماضى جميعاً. هذا الماضى الذى لا نعرف أوله وكلما كشفنا منه عن جديد أودعناه بطون الكتب. فكيف يكون حال رجل نشأ فى هذين العالمين ـ باريس والكتب ـ إذا كان القدر قد وهبه نفساً تتسع لهما وتفيض عنهما، ووهبه قلباً شاعراً يحبهما وبشغف بكل ما فيهما.

تلك كانت حال فرانس. أحب ما فى باريس وما فى الكتب من حياة الماضى والحاضر؛ وكان حبه لهذه الحياة أول شبابه قوياً ينبض به قلبه. لكن قلبه كان رفيقاً وإن نبض، لأن قلبه كان فى حكم عقله وتحت سلطانه. فلما آن للشاعر أن يضع قيثارته ليترك المكان للمحدث الكيس الظريف كان حب فرانس قد شمل الحياة جميعاً. والحب إذا اتسعت دائرته كان لطيفاً رقيقاً؛ كان حباً يزنه العقل ولا تلهبه الشهوة؛ كان حب الأب لأبنائه الكثيرين لا حب الأم لطفلها الوحيد: هذا الأب الذى يبتسم مغتبطاً لابنه المجد، ويبتسم مسروراً لابنه الثانى حاضر البديهة، ويبتسم فرحاً بالطفل الصغير يتعثر حين يجرى يريد أن يمسك فراشة أمامه. لا تلك الأم التى

تخاف على صحة ابنها إن جد، وتخاف عليه الحسد إن بدا ذكاؤه، وتخشى عليه الخطر إذا تعثر. وهل كان لفرانس أن يرى فى الحياة خيراً أو شراً. وما حكمة الحكيم إذا ظل يخضع للشهوة خضوع الجاهل لها.

كانت حكمة فرانس إذن باسمة لأنها كانت محيطة بحياة العالم بل بحياة العوالم؛ وكانت ترى فى كل شيء عذره؛ وكانت لا تعرف شيئين متناقضين: أليس الخير والشر جميعهما أعمالاً لبنى الإنسان؟ وهل بينها من فرق إلا ما بين الزيتون الأخضر والزيتون الأسود من فرق فى اللون على تقاربهما فى الطعم؟ لكن الخير يجب أن يكون، والشر يجب أن يكون، كما يكون الوجود والعدم والماضى والمستقبل. ويجب أن لا يعرف الناس أن الوجود والعدم لا فرق بينهما وأن الماضى والمستقبل لا وجود لهما. بل فليعرفوا فلن تغنى عنهم معرفتهم شيئاً.

على أن هذه الحكمة الباسمة إلى حد السخر بما فى الحياة لم تدفع صاحبها يوماً إلى التخلى عن الحياة والزهد فى الناس. بل لقد كان فرانس يحب الإنسانية حباً جماً. وكانت قاعدة الحياة عنده العبث بالناس والإشفاق عليهم. لكن عبثه بهم كان بريئاً وإشفاقه عليهم كان عظيماً. نكبت روسيا بالمجاعة بعد قيام الحكومة البلشفية فيها، وأعطى فرانس جائزة نوبل وقدرها اثنا عشر ألف جنيه فوهبها لمنكوبى المجاعة من الروس. وكثيراً ما دعاه إشفاقه على طبقات العمال والبؤساء إلى أن يحتمل من أجلهم مشقة وعنتاً.

لم يتخل فرانس عن الحياة ولم يزهد العمل، ولقد يدهشك أن تعرف أنه كتب أكثر من خمسين كتاباً كلها حكمة بالغة. وقد يزيدك دهشة أن تعرف أنه لم يخط فى هذه الكتب سطراً من غير أن يزنه أحكم الوزن ومن غير أن يختار له أسلس اللفظ وأفصحه وأمتنه. ذلك بأن كان يرى النبوغ نتيجة جد وسعى متواصل لتنمية هبة

تخلعها الطبيعة على مختاريها. فأما الذين يكتفون مما تهبهم الطبيعة ببريقه فأولئك لا ينبغون ولا يعرف الناس لهم قدراً.

* * *

واليوم ارتضى أناتول فرانس أن يموت بعد إذ خلف للإنسانية ميراثاً يبقى جديداً على كل زمان جديد. واليوم ينتقل فرانس من بين ذويه وأهله ليبقى خالداً بين الناس جميعاً. واليوم تتبادل عوالم العلم والفن والأدب والحكمة التعازى فيعزيها: إن فرانس خلدت حكمته، ومن خلدت حكمته لا يموت.

أناتول فرانس

٣

أشهر مؤلفاته

تاييس

قل بين القراء من لايعرف «تاييس». فكثيرون من رأوها فى الأوبرا تمثلها السيدة منيرة المهدية، أو على الشريط السينمائى. وكل أولاء قد أحبوها. لكن الذين عرفوا تاييس فى قصة أناتول فرانس أكثر لصاحبتهم حبا وإن كانوا أقل من السابقين عددا.

وهؤلاء دفعهم حبهم فرأوا تاييس الأوبرا وتاييس السينما، وعشقوا موسيقى الرواية وصورة بطلة الشريط. لكن هذا العشق لم يزدهم غراما بالراقصة القديسة لأن قصة أناتول فرانس تشمل الموسيقى وتشمل الصورة جميعا. فليست نبرة من النبرات ولاجواب ولاقرار يهز نفسك عند سماع أوركسترا تاييس إلا كان له مقابله من هزات النفس أثناء قراءة القصة. فأما صورة الشريط فلا تعدو أن تكون خيالا للحقيقة التى

يصورها فرانس. وأنت إلى جانب الموسيقى والصورة مغمور خلال القصة بعالم بديع تخلقه ريشة الكاتب العظيم فلا تلبث فى انتقالك من صفحة إلى صفحة ومن حديث إلى حديث أن تشعر بلذائذ مختلفة تتمتع بها مشاعرك جميعا: يتغذى بها عقلك، وتسر لها نفسك ويطرب لها فؤادك ويبتهج بها قلبك وتنتعش بها عواطفك، ولا يبقى عصب من أعصاب الحس الا ينال من الاستمتاع نصيبا يذره مطمئنا فى نشوته ناعما رضيا.

ومع ذلك فتاييس قصة ليس أبسط منها، هى خلو من الوقائع ومن المفاجآت ومن الاضطراب. وهى قد تبدو للنظرة العجلى لهو خيال ظريف يلذه أن يبهرك. لكنها لدى إنعام النظر قصة صادقة قوية فيها كل ما فى العالم من سخر الحب والألم بالناس.

* * *

فقد ولد بافنوس بالاسكندرية من أسرة ذات نبل. لكن أهله لم يكونوا يمدونه من المال بما يسد مطامع لذائذ الحياة عنده. فلما كان فى العشرين من سنه لقيه راهب دله على طريق الهدى الذى يؤدى إلى لذة الخلد من غير حاجة إلى المال. فنسك وانقطع إلى العبادة فى الصحراء بين المتقشفة والمعتزلة. ولم يطل به الزمن حتى صار قديسا بين الرهبان وصار له تلاميذ وأتباع يأخذون عنه قواعد التقى والايمان.

وقضى نسكه أن يذكر ماضى شبابه ليقدر شوهه وقبحه. فذكر يوماً أنه رأى فى ذلك الحين على مسارح الاسكندرية ممثلة تدعى تاييس بارعة الجمال يثير رقصها البديع شهوات النفوس وتدفع حركاتها الموسيقية الأرواح إلى الضياع فى حمأة الملذات. وذكر أنه اندفع يوما إلى دارها فلم يرده إلاحياء الشباب وضيق ذات اليد. وأثارت هذه الذكرى فى نفسه صورة الراقصة ودقائق جمالها الباهر. فاستغفر ربه من نزغ الشيطان واعتزم خلاص هذه الروح من الخطايا لتخلص معها أرواح كثيرة، وليكون هذا الجسم الذى أبدعه الله مثلا للجمال ذا روح لايقل عنه جمالا.

ولم يثنه عن عزمه نصح أخ له ذى فضل وتقى. بل ودع تلاميذه وأتباعه وهجر الصحراء وسار في طريقه إلى الإسكندرية يدعو كل من لقيه إلى حمى الله ويدعو الله غير وان أن ينزل على تاييس هداه. ولما بلغ المدينة استعار من صديقه نسياس ثوبا ستر به ملابس الراهب وذهب إلى المسرح فرأى تاييس اكتملت فيها روح المرأة فازدادت بهاء وسحرا. ثم دلف إلى دارها يدعوها إلى حمى الغفور الرحيم.

ولم يجد الراهب عنتا فى بلوغ غايته. فقد ولدت تاييس فى عائلة فقيرة، ونشأت نشأة دينية، وأحبت فى طفولتها ألوانا من التقى. وحين ألقى بها الشباب فى يم الحياة أحبت فتى عريض الجاه عظيم الثروة أذاقها لذائذ العصر طرا. فلما أترعت كرهته فهجرته فذهبت إلى المسارح راقصة بين الراقصات، فبرزت عليهن بفتنة جمالها ورشيق قدها ولين حركاتها، فسحرت الناس وصارت تاييس الاسكندرية يرتمى عند أقدامها كل عظيم وينثر تحت نعالها الذهب والجوهر. ثم سئمت هذه اللذائذ المضنية حين خشيت أن ترتسم تجاعيد الزمن على جبينها النقى. فلما ناداها الراهب إلى حمى ربه عاودها رجع من تقى الشباب فلم يطل ترددها وتبعته حتى بلغ دير الأم «البين» فأسلمها إليها وسجنها فى غرفة ضيقة لتطهر نفسها من رجس العالم ولينسى جسمها لمس الأيدى ومس الشفاه وحرارة الأنفاس ورعشة القبلات.

وعاد بفنوس إلى تلاميذه فى الصحراء؛ لكنه عاد عامر النفس بتاييس. فكان لايذكر غيرها ولايقترن بعبادته الا كمال جمالها. فاستغفر ربه واستعان على الشياطين بكل ما فى الدين من عون ومدد. ولم ينجه الدين من نزغ الشياطين فترك صومعته وهام، فوجد فى الصحراء عمادا رفيعا منفردا اعتلاه كى يتعرض جسمه للتلف بنار الشمس وزمهرير الشتاء ومياه الأمطار لعل نفسه تصلح بتلف جسمه. لكن خيال تاييس لم يفارقه. فتولاه اليأس ونزل من عليائه وعاد لهيامه فصادف قبرا خربا فاتخذه ملجأ وسكنا. لكن خيال تاييس لم يفارقه داخل القبر أيضا. وأنه لكذلك

اذ مر به رهبان عرف منهم أن آية من السماء دلت كل ناسك على أن انطوان رئيس متدينة الصحراء قد آن له أن يلقى ربه وأن النساك جميعا قد هرعوا إليه كى يباركهم قبل موته. فسار بفنوس معهم وقد ملأ الهم نفسه أن تجافت آية السماء عنه. فلما كان عند انطوان تضرع إليه أن يباركه وأن يستغفر الله له. فاستدنى انطوان بولس الساذج ليتكلم. وانفتحت السماء أمام الساذج فرأى من أمر ربه أن تاييس توشك أن تموت يحفها الايمان والخوف والحب. وأن بفنوس سيبقى يعذبه الغرور واللذة والشك. وأعلن ما رأى. فانطلق بفنوس وقد انقلب شكه يقينا وايمانه كفرا وجعل يلعن السماء والآلهة. وأسرع يطلب تاييس فى بيت «البين» يريد أن يضمها إلى صدره ويستمتع واياها بالحب ولذته، ويدفع اليها من حياته حياة تمد فى أجلها وتغفر له ما أذنب فى هدايتها. وألفاها فى النزع الأخير تستقبل فجر صباح الأبد وترى الملائكة والقديسين. فناداها ألا تذعن للمنون وأن تبقى لتحب، فلا حق فى الحياة إلا الحب. لكن تاييس ارتضت الموت بعد ما استنفدت الحياة، وتركت هذا البائس المسكين يلقى من «البين» ومن عذاراها لعنة لم تزعجه بعدما كفر.

هذه قصة تاييس. وهى تبدو لهو خيال ظريف يلذه أن يبهرك. فكيف ينقلب الناسك القديس كافرا والراقصة البغى تقية بتولا ؟

والحق أن الخرافة القديمة التى بعثها أناتول فرانس فى هذه القصة لم تشر إلى شىء من صبا بفنوس وميله لتاييس. ولم تنته بـ بفنوس إلى الإلحاد وإلى حب تاييس. وإنما ذكرت أن تاييس كانت فتنة الاسكندرية حتى بلغ من غيرة محبيها أن كانوا يقتتلون عند بابها فكان هذا الباب ملطخا أبدا بالدماء. وذهب بفنوس عندها فلما دعته إليها طلب غرفة بعيدة عن الأنظار. وكانت كلما دخلت به إلى غرفة كرر طلبه. فلما كانت آخر الغرف قالت له: إن كنت تريد البعد عن الناس فهذه غرفة لايسمع أحد لك فيها ركزا؛ لكنك غير ناج من عين الله وإن حاولت. فلما علم أنها تؤمن بالله وباليوم الآخر وتخاف عقاب الله وترجو ثوابه دعاها للنسك فقبلت بعد شىء من التردد. وظلت ثلاث سنين رهن محبس ضيق تعذب جسمها لتطهر

روحها. فلما انتهت تلك السنون باركها بفنوس وأصبحت قديسة يقام لها عيد فى ثامن أكتوبر من كل سنة. وظل بفنوس فى الصحراء يفوح منه شذا القداسة ويجتمع حوله المؤمنون.

لكن أناتول فرانس لم يرض أن يصدق هذه الرواية. فقد ذكر تاريخ القديس بفنوس أنه وقف بمجمع تير سنة ٣٣٥ لميلاد السيد المسيح فى وجه القائلين بضرورة انفصال الراهب عن زوجه لما فى ذلك من مقاومة الطبيعة ومخالفة ما يفرضه الزواج لكل من الزوجين. فبفنوس إذن كان يؤمن بأن للطبيعة سلطانا لايقاوم. وهل سلطان أقوى من سلطان الزهرة! ولما كان لكل خرافة فى التاريخ أساس فلابد أن يكون للخرافة التى اتشحت باسمى تاييس وبفنوس أصل هو الذى صوره لنا أناتول فرانس.

ولم لا تنقلب البغى قديسة بتولا؟ ألم تسكب المجدلية دمع التوبة عند أقدام السيد المسيح فطهرت من الرجس وصار مقامها فى السماء بين المقربين؟ وإذا كان للبغى أن تنقلب بتولا فللقديس أن ينقلب ملحدا، وكما فتح الحب للمجدلية باب التوبة فقد فتح لبفنوس باب الخطيئة؛ ولو أن بفنوس أخطأ قبل أن يحب لصهره الحب وطهره كما صهر تاييس وطهرها. لكنه طهر قبل أن يحب فاستحال حبه خطيئة كما تحيل النار الماس فحما. ذلك سلطان الطبيعة وتلك سنتها، لن ينجو منه أحد ولو كان راهبا.

ليست تاييس إذن لهو خيال ظريف يلذه أن يبهرك. وإنما هى صورة صادقة من صور الحياة. وهى أكثر صدقا أن تمت بالاسكندرية فى القرن الرابع المسيحى حين كانت مدرسة الإسكندرية زاهرة وكانت آراء الفلسفة من زهد أو إباحة تشتبك مع طقوس الدين وألوان الايمان اشتباكا رفيقا لاعنف فيه ولاجفاء، وكانت أبيقورية الترف واللذة الفاشية فى المدينة لايؤذيها انتشار المتقشفة الرواقيين فى الصحراء. فلا عجب وهذه هى الحال أن جذب جمال الايمان بغيا أو استغوت نعمة المدن ناسكا. لكن أناتول فرانس لم يكفه أن لا تكون قصته عجبا، فجعل بغيه التى نسكت متدينة

بدء حياتها، وجعل ناسكه الذى بغى مترفا بدء حياته، ثم نقل الشباب كلا منهما إلى نقيض نشأته. فلما آن للحياة أن تنحدر إلى منبت الطفولة عاد كل منهما إلى عهده الأول. فبغى الناسك، ونسكت البغى.

وقصة تاييس هى قصة هذا الانتقال الأخير. وقد وصف أناتول فرانس فى هذه القصة حياة ذلك العصر أدق الوصف، فرسم الصحراء ومن فيها من المعتزلة وما فيها من أكواخهم المنشورة على الرمال وما يعالجونه من طقوس العبادة وأنواع التقشف، ورسم بذلك صورة المؤمنين بالدين أول نشأته: يغلون فيه إلى غير حد، ويقومون بفرائضه على صورة لم يتوهمها صاحب الدين يوم أعلنه للناس. ورسم الاسكندرية وما فيها من ترف وما تصبو إليه نفوس أهلها من لذائذ، وما يدور فى مجالس فلاسفتها من حديث. لكنه فيما صور من ذلك كله كان أناتول فرانس فى أسلوبه وفى تفكيره وفى ابتسامته وفى سخره وفى اشفاقه. فلست تنسى لحظة وأنت تقرأ القصة أنك تقرأ أناتول فرانس. ذلك بأن الكاتب خيل هذا العالم القديم أمامه بما شاء بحثه وعلمه، ثم نظمه كما يريد، ونقشته ريشته بعد أن تم نظامه، فبرزت تاييس للقارىء صورة من نفس فرانس ومن العالم القديم مطبوعا فيها.

* * *

ولعل أقل صور أشخاص القصة وضوحا صورة تاييس. فأنت لاتستطيع أن تعرف عنها أكثر من أنها راقصة بارعة الجمال فتنت الاسكندرية، فلما خافت تجاعيد الزمن ودعاها بفنوس إلى الهدى لبت دعوته. لكنك لن تجد فى القصة كلها شيئا يميز تاييس عن كل راقصة جميلة. فمن أى نوع كان جمالها؟ وأى نفس كانت تختفى تحت هذا الجمال؟ وما ميول هذه النفس وما طبيعتها؟وما عسى أن تكون الخواطر المبهمة التى تمر بها؟ ذلك شىء لايحدثك فرانس عنه. وذلك ضعف تجده فى كل تآليفه. فبطلاته الجميلات نسوة لا ذاتية لهن. ولعل سبب هذا الضعف أن نفس

فرانس كانت أقوى من أن تتمثل نفس امرأة كملت فيها حياة المرأة. وهذه «تريز» بطلة الزنبقة الحمراء وهى مثال المرأة فى نظر الكاتب الكبير لاتزيد صورتها على صورة تاييس وضوحا. أو لعل سبب الضعف ما يسبغه فرانس على هاتيك البطلات من ثوب حكمته وما يجريه بين شفاههن من حديث لاعهد لامرأة به من عهد حواء!.. أم أن تشابه صور النساء فى كتب فرانس لم يكن ضعفا، وإنما كان مرجعه عقيدة فرانس فى المرأة. فهو لم يكن يراها خاضعة لحكم العقل ولما يدعو إليه من تردد واضطراب يؤدى إلى اختلاف نفوس الرجال فى الصور والألوان والمشارب. بل كان يراها تسير فى الحياة متأثرة بهدى الفطرة وشهواتها السليمة غير خاضعة لتمويه الفكرة البديع الألوان. وهو لذلك لم يكن يرى موضعا للتفرقة بين صور نفوس نسائه. فهن عنده سواسية فى السمو فوق مدارك الفكر وفى الانحدار مع ميل الهوى. وتاييس الراقصة وتريز زوج الوزير وألودى أخت المصور وكاترين بائعة الدنتلا وملانى خادمة البيت جميعا سواء؛ يختلفن فى المظهر لكنهن يلتقين عند دوافع شهوات الفطرة. ولم تقصر ريشة فرانس فى رسم اختلاف المظهر وتباين الميول الاجتماعية رسما صادقا دقيقا.، فأما وصفه لنفس أية من نسوة كتبه فيصدق عليهن جميعا. فكل امرأة تهوى فى الرجال محبتهم اياها وإعجابهم بها، وتحرص من حياتها على ما يجلب هذا الاعجاب وتلك المحبة وتعجب من الرجل الذى يحبها وتقسو فى محبته قسوة الشحيح على ماله.

وهل بين النسوة امرأة مهما تبلغ من الطهر، ومهما تكن زوجا وأما، تتوهم ذبول جمالها فى غير الصورة التى رسمها أناتول فرانس لتاييس وقد عادت يوما من المسرح إلى منزلها الغنى المترف فجلست فى «كهف العذارى» تبتغى الراحة من عناء رقص بالغت فى اتقانه فأحيت به ما مر بخاطر كل مصور وكل رسام وكل شاعر من بديع الخيال، «ثم استشفت فى مرآتها نذر انحدار جمالها وفكرت فى فزع أن اقترب حين الشعر الأبيض وتجاعيد الوجه، وعبثا حاولت تسكين روعها بما حدثت به نفسها من

أن إحراق بعض الأعشاب والنطق ببعض تعاويذ السحر يكفيان لاعادة نضارة اللون، فأن صوتا لا أثر للرحمة فيه صاح بها: «أن الهرم مدركك يا تاييس لا محالة»، وأثلج جبينها عرق الفزع. لكنها لاتزال جميلة جديرة بأن تحب. فابتسمت لصورتها وتمتمت: ليس فى الاسكندرية امرأة تستطيع أن تنافسنى فى ميس القد وخفة الحركات وبهاء الأذرع؛ والأذرع أى مرآتى هى سلاسل الحب حقا».

قد تختلف عبارة كل امرأة حين تعرب عن هذا الاحساس. لكنه يمر بنفوسهن جميعا على هذه الصورة يختلط فيه الخوف بالرجاء والضعف بالقوة، وتتأثر فيه أعصابهن وعواطفهن بأثر واحد. ذلك ما يؤمن به فرانس. ولذلك لايكون تشابه نسائه ضعفا بل يكون كمالا لصدقه فى تصوير الطبيعة النسوية.

* * *

فأما صورة بفنوس فى قصة تاييس فبالغة حد الكمال فى وضوحها. وهل قصة تاييس الا صورة بفنوس، وهى صورة المؤمن العبوس الايمان. وهى لذلك النقيض من صورة أناتول فرانس اللاأدرى المتشكك الباسم فى لا أدريته وتشككه، الساخر من اللاأدرية والايمان جميعا، الضاحك للحياة ومما فى الحياة ضحكة تشوبها مرارة الهزء بكل شىء. والاشفاق على كل شىء. ولعل أناتول فرانس قد انتقم فى تصوير بفنوس للشك من الإيمان كما انتقم فى تصوير نسياس للايمان من الشك. وإن كان انتقامه من الإيمان قاسيا، وانتقامه من الشك لطيفا رفيقا.

فقد اعتزل بفنوس الحياة وانقطع لله فأزمعت الحياة انتقامها من احتقاره اياها، فسلطت عليه الزهرة آلهة الجمال والحب وألبستها صورة تاييس ومكنت لها من نفسه. وأقامت عليه الآلهة حربا بدأتها بالخدعة. فظلت به حتى قادته إلى المسرح ثم وقفته فى حضرة تاييس. وهى فيما فعلت من ذلك إنما كانت تسخر من إيمانه أن جعلته يتوهم أنه صاحب السلطان على مشيئته. فكان باسم الايمان يحب تاييس

وباسم الايمان يعبد جمالها. فلما طالت الحرب وشعر الراهب بالزهرة تغالب الايمان وتكاد تغلبه تولاه الفزع وجعل يحارب نزغ الشيطان فى نفسه. لكن سلطان الحب رفيق شديد. فلم يستطع بفنوس مغالبته، بل انتهى إلى الفكر حين عرف أن تاييس مشرفة على الموت.

فى هذه الحرب بين الحياة والزهد في الحياة تجلت نفس بفنوس مملوءة حقدا على العالم وأنانية وكبرا. فهو يزعم لنفسه سلطانا على الكائنات جميعا ويتهم كل خارج على عقيدته بالنقص والرذيلة. ولما كان التسامح مظهر الحياة فقد كان هذا الجاحد المتعنت عدوا للحياة. وماذا يستطيع الرجل أن هو نصب نفسه للحياة عدوا؟ ولو أن بفنوس صانع الحياة واتخذ الزهد لذة من لذائذها وجعل من انقطاعه لله فرضا يؤديه للحياة لما عصفت به وبايمانه. لكنك تلقاه فى طريقه إلى الاسكندرية وفى حضرة تاييس وفى مأدبة الفلاسفة وفى تعذيبه نفسه فوق العماد وداخل القبر قاسى النظرة يود أن يحترق كل ما لا يعجبه، وتستمع له فإذا حديثه سوط عذاب مسلط على أجمل ما فى الحياة وأبهاه. ولست أذكر لك كيف صوره أناتول فرانس فى حالاته. ولكنك اذ تقرأ «تاييس» لاتستطيع أن تحول بين نفسك وبين الاشفاق على رجل تتلاعب به صروف الحياة وتجعل من عظمته ومن ايمانه ألم نفسه وسخرية سواه.

ولو أنه اتخذ الزهد لذة من لذائذ الحياة لما عصفت به. وهذا هو فى طريقه إلى الاسكندرية قد لقى «تمكاس» المتشكك فألفاه وقد أدى به ازدراؤه الحياة إلى التخلى عما فيها جميعا. مع هذا كان «تمكاس» راضيا لأنه كان قد نزع من نفسه كل أثر للطمع فى هذه الدنيا وفيما بعدها، واتخذ طقوس حياة بوذا وإن لم يؤمن بدينه. فالزهد لم يكن إذن سبب عذاب بفنوس وإنما كان حرصه على النعيم سبب عذابه. وقل أن يحرص انسان على نعيم الآخرة كلها ويزهد فى متاع الدنيا ونعيمها جميعا.

هذا ما يريده أناتول فرانس حين فصّل عذاب بفنوس وسخر منه. ولو أن بفنوس كان على ايمانه متسامحا وعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ولآخرته كأنه يموت غدا، وأوغل فى الدين برفق، لما تقطعت به الأسباب ولما انتقل من النقيض إلى نقيضه فكفر بعد إيمان وطلب لذة الحياة بعد الزهد فيها.

* * *

صورة بفنوس هى النقيض من صورة أناتول فرانس. وأناتول فرانس لم يدع واحدا من كتبه الا رسم فيه صورة من نفسه. فهو «برجريه» فى أربعة أجزاء (تاريخ العصر) وهو «بروتو» فى (الالهة ظمآى). وهو «بيير» فى أربعة كتب كتبها عن طفولته وبدء صباه. وهو «جيروم كوانيار» فيما عزاه من قصص وذكريات ومذكرات إلى «جاك تورنبروش». وهو «نسياس» فى قصة «تاييس»: وأى مؤلف ينسى نفسه حين يكتب؟ وأى مؤلف يكتب عن شيء غير نفسه؟ وأى قارىء يرى فيما يطالع غير نفسه؟ والذين يقرأون أناتول فرانس سعداء لأنهم يجدون فى صورة المؤلف ما يجذبهم اليها ويجعلهم يحبونها إن كان صاحبها قد اتسعت نفسه فوسع العالم وما فيه حبا، ووسع العالم وما فيه سخرا واشفاقا.

نسياس ابيقورى مترف يتمتع من الحياة بكل لذائذها من غير تهافت على هذه اللذائذ أو حرص عليها. وقد استمتع «بتاييس» فلما جاء صديقه القديم بفنوس لهدايتها وطلب إليه رداء يستر به مسوحه نصح إليه نسياس أن يحذر انتقام الزهرة، ولم يفكر فى أن يصده عن غايته. فلما وثق بفنوس من تاييس صحبها إلى مائدة كان نسياس بين من دعوا إليها. وقضت تاييس الليل تسمع إلى حديث الفلاسفة. فلما آن الليل أن يولى كان القوم قد أمال الشراب أعناقهم. فخرج بفنوس وتاييس إلى دارها فحرقا متاعها وانطلقا يبغيان الصحراء. فأحاط بهما أطفال رجموهما بالأحجار ولم ينجهما منهم إلا أن جاء نسياس فنثر الدراهم بين الصاخبين فشغلهم ونجا

بصاحبيه. ثم كان بين الثلاثة حديث يمثل نفس نسياس ويمثل نفس فرانس ويمثل الشك واللاأدرية فى أجمل صورها. فقد ذكر نسياس فى أسف مطمئن مغادرة تاييس الاسكندرية. فأجابته أنها ملته وأمثاله المترفين وملت ما تعرف، وأنها تريد البحث عما لا تعرف وترجو أن تجد المسرة فى الألم كما قال لها بفنوس: لأن بفنوس قد ملك الحقيقة.

قال نسياس باسما:

ـ أما أنا أيتها الصديقة فأملك الحقائق، ولئن لم يك لديه منها إلا واحدة فهى عندى جميعا: فأنا أكثر منه ثروة وإن لم أكن والحق يقال أكثر منه لذلك كبرا ولا أعظم سعادة.

ولما رأى الراهب يسدد إليه نظرات كأنها اللهب قال:

ـ لا تحسب يا عزيزى بفنوس إنى أراك سخيفا كل السخف أو بعيدا كل البعد عن موجب العقل. ولو أنى قارنت حياتى بمثالك لأرجّ علىّ القول أيهما أفضل لذاتها. فهأنذا ذاهب الآن أغتسل فى الحمام الذى أعدته كروبيل ومرتال، ثم آكل بعد ذلك صدر دراج من دراريج فاز، ثم اقرأ للمرة المائة بعض أساطير «آبيوليه» أو بعض رسائل «بورفير». أما أنت فستذهب إلى صومعتك فتنيخ كما ينيخ الجمل الوادع وتلوك من التسابيح ما طال بك عهد مضغه ولوكه؛ وإذا أمسيت تبلغت بالفجل من غير زيت. أترى يا صديقى أننا فيما نقوم به من هذه الأعمال المختلف ظاهرها الا يذعن كلانا لعاطفة واحدة هى وحدها المحرك لأعمال بنى الانسان طرا؟ فكلانا يسعى وراء لذته يبغى غاية مشتركة هى السعادة. هى هذه السعادة المستحيلة. فليس من حسن الذوق يا صديقى أن أنسب إليك الخطأ إذا أنا نسبت إلى نفسى الصواب.

«وأنت يا تاييس فاذهبى وتمتعى، وإن استعطت فكونى فى الزهد والتقشف أكثر سعادة مما كنت فى الغنى والمسرة. وأنك على كل حال لتحسدين. فإذا كنت أنا

وبفنوس قد أطعنا طبعنا ولم تسع إلا وراء لون واحد من ألوان الرضا فإنك أيتها العزيزة تكونين قد طعمت فى الحياة لذائذ متضادة قلما كان لانسان من الحظ أن يعرفها. والحق إنى أود أن أكون مدى ساعة قديسا كعزيزنا بفنوس. لكن ذلك ما ليس لى إليه سبيل. فالوداع إذن يا تاييس. اذهبى حيث تقودك القوى الخفية فى طبيعتك وفى حظك. اذهبى تصحبك خير أمانى نسياس. ولئن تكن هذه الأمانى خلاء فهل أستطيع أن أمنحك خيرا من عقيم الحسرات وفارغ الأمانى ثمنا لما اشتملنى بين ذراعيك من لذيذ الأحلام التى لايزال خيالها إلى اليوم باقيا؟ الوداع يا من أحسنت إلى! الوداع يا رحمة لاتعرف أنها رحمة! يا فضيلة تحوطها الأسرار! يا لذة الناس طرا! الوداع يا أبدع صورة ألقت بها الطبيعة على وجه هذا العالم لغاية غير معروفة؟

فلما أتم حديثه كان الراهب قد نفد صبره فانسابت من فمه لعنات نظمها أناتول فرانس خير نظام. فكان جواب نسياس أن نظر إليه نظرة رفق وعطف وقال:

ــ الوداع يا أخى. ولعلك مستطيع أن تحتفظ حتى الفناء الآخر بكنوز ايمانك ومقتك وحبك. وداعا يا تاييس. عبثا تنسيننى ما دمت حفيظا على ذكراك.

كذلك قال نسياس. ولايحسب القارىء إنى أحسنت النقل. فكل نقل لعبارة أناتول فرانس إلى غير لغته يجنى عليها. وما أحسب أحدا ممن حملوا أنفسهم عناء ترجمته إلى غير لغته الا نظر إلى ما صنع فذكر قول نسياس:

ـ لو أن الفضيلة حصرت فى المجهود وحده لكانت الضفدعة التى تنتفخ لتعظم حتى تصير كالعجل مؤدية عملا أكبر من أعمال الرواقيين.

* * *

تاييس وبفنوس ونسياس هم أكثر أشخاص قصة تاييس حياة وحركة، وقد أحاطهم فرانس بعدد جم من الرهبان أمثال بفنوس والرواقيين أمثال نسياس وبجميلتين تأكل

الغيرة صدرهما حقدا على تاييس لتفوقها عليهما فى الجمال. ولئن لم يكن لهذا العدد الجم غير دور ثانوى فى القصة. فقد رسم فرانس صورة كل واحد منهم بما طبع عليه من دقة. فالجميلتان فلينا ودروزيه تنفسان على تاييس جمالها وتنافساتها فى استهواء الشبان كما تنفس كل امرأة على كل امرأة وتنافسها. والرجال ينظرون إلى النسوة الثلاث بما ينظر به كل رجل إلى كل امرأة من عطف ويملقونهن بالكلام الرقيق العذب الذى يسحر به الرجل المرأة كما يسحر الطاووس أنثاه بريشه والبلبل أنثاه بصوته. فأما الفلاسفة زنوتوميس وهرمدور ودريون والمسيحى ماركوس وأصدقاؤهم فى الوليمة فليسوا أشخاصاً ذوى حياة تتجلى فى صلات أفراد الرواية بعضهم ببعض وإنما هم أمثال للمذاهب الفلسفية والدينية التى كانت اسكندرية ذلك العصر الذهبى مهدا لها. على أنك لاتعدم مع ذلك أن تجد فى حديث كل واحد منهم ما يرسم أمامك منه صورة تميزه عمن سواه من أهل مذهبه وتجعله انسانا يخضع رأيه وإيمانه لميوله وشهواته، شأننا جميعا فى الحياة.

أما الرهبان والقديسون متدينة الصحراء فبينهم من الشبه فى ازدراء الحياة ما بين النساء فى محبتها والحرص عليها.

* * *

تلك قصة تاييس، وأولاء هم أشخاصها. وهى عند كثيرين أفضل كتب فرانس. ولعلك إذا دخلت حديقة أو عند جوهرى تتردد كثيرا أى أزهار الحديقة البديعة النظام أبهى وأى أحجار الجوهرى الدقيقة الصنع أكرم. وذلك رأينا فى كتب أناتول فرانس. وهو عندنا على ما قال جول لمتر «أسمى خلاصة للروح اللاتينية وأبهاها».

أناتول فرانس

٤

الآلهة ظمأى

أناتول فرانس ـ ذلك الشيخ الذى ذهب أول هذه الحرب رغم مجاوزته السبعين من العمر يريد أن ينتظم جنديا للدفاع عن وطنه فرنسا ـ هو رأس طائفة المتشككة من كتاب هذا العصر فى فرنسا وفى العالم أجمع. فهو لايؤمن بمذهب ويعتقد كل المذاهب. وهو يرى الحياة سخرية سخيفة لامعنى لها ويجدها ذات لذة وجمال. وهو يحب الفقراء ويحتقر الضعفاء، ويعجب بالقديم ويولع بالجديد، وهو يهزأ من كل شىء ويسخر من كل عمل ويضحك مما يجله الناس ويبسم أمام ما يقدسون. وهو مع ذلك لايخفى ميله للابيقورية على أنها أعقل من سواها من المذاهب الأخرى العاقلة جميعا. لذلك كانت كتبه ورواياته ليست تلك الغابة القطوب التى تأخذ لبك وتدلك بقطوبها على عظمة شجر السنديان أو البلوط وقوته على كل ما سواه؛ ولكنها الحديقة الغناء تنتقل فيها من زهرة إلى فاكهة إلى فرش سندسية إلى خرير النبع

الجميل المنحدر من قمة التل تتوجه الأشجار الكبيرة تغرد فوقها الطيور المختلفة اللون والصوت. وهذه الحديقة ليست متروكة للطبيعة ينمو بعض أجزائها على حساب البعض الآخر، بل هى مشمولة بعناية الانسان ورعايته. فكل ما فيها من زهر وفاكهة وغرس ونبع وتل وشجر وطير مختلف جمالا وصحة ونضارة وكله يأخذ بنظرك ويستدعى التفاتك ويبعث إلى نفسك أبدا سرورا رقيقا، حلو يجعلك دائم الابتسام لأنه سرور النفس والعقل وليس سرور الحس المضطرب بتيارات يستدعى الضحكة العالية ليعقبها بدمعة مرّة»

ومن العسير أن يقال أى كتبه المفضل، فمن بين كتبه الأربعة والثلاثين أو الستة والثلاثين يقع كل قارىء على عدد منها غير قليل يستدعى كل اعجابه. على أن ما لاشك فيه أن كتابه عن الثورة الفرنساوية الذى وضعناه عنوانا لهذا المقال هو من خير كتبه وأدقها تصويرا لعصر كثر عنه الكاتبون. وناهيك بالثورة الفرنساوية. فما نحسب مؤرخا ولا سياسيا ولا شاعرا ولا روائيا ولا خطيبا ولا صحفيا إلا تناولها فى ما كتب عنه واستشهد به ووصفه واستظهره. وكثير من أولئك قام بما قام به بطرافة وقوة لاينكرها عليه أحد. لكن أناتول فرانس من بين هؤلاء جميعا كان أدق مصور فنى يمكن تذوقه. فهو لم يكن فوتوغرافيا جمع رجال الثورة وفى يد كل منهم مجموعة خطبه وكتبه ليأخذ منهم صورة كصورة الموظفين الذين يجتمعون تذكارا لسفر أحد رؤسائهم؛ بل كان ذلك المصور النابغ الذى يلقى نظرة عامة على ما أمامه ثم يتجه لركن يأخذ بنظره فيستظهر المحيطات الدقيقة والجليلة التى حول ذلك الركن والأضواء المتسلطة عليه والغمام المتراكم فوقه. وأنت لا تلبث أن ترى الصورة التى أبدعتها ريشة المصور حتى يظهر أمامك مجموع الثورة ناطقا قويا ظاهرا ببوارزه وخوافيه وبفظائعه وفضائله وبما فيه من جمال وقبح. ترى فى هذه الصورة التى رسمها فرانس ما كان قواما للثورة من فظيع المجازر؛ وترى فيها تحت الفظائع

والفضائل النفس الإنسانية كما هى، مدفوعة بطبائعها فى الطريق الذى لاتعرف لسيرها فى سبيله سببا. فى هذه الصورة تظهر العواطف والشهوات والعلاقات الجنسية طبيعية بسيطة لاتعرف هياج روسو ولا أوهام شاتو بريان. كما تظهر فيها نفسية الشعوب فى حالة الثورة نفسية عادية تافهة ميالة للركود لولا النفوس القوية المتطلعة للكمال والتى تؤثر بسحرها على نفس المجموع المطبوع على عبادة القوة والبطولة. ويظهر فيها كذلك ما لقوة الايمان من أثر فى الوصول إلى ما يريده المؤمن مهما تقم فى وجهه المصاعب والعقبات ما دام لايرى إلا الغاية التى يحددها له إيمانه ومادام لايحول نظره إلى غاية سواها.

* * *

«افارست جاملن» بطل الرواية نقاش شاب يعيش مع أمه العجوز فى حى القنطرة الجديدة من أحياء باريس الثائرة ويهتم للسياسة اهتماما صرفه عن المثابرة على النقش وعن كسب ما يعيش منه هو وأمه عيشا معقولا. وكانت له أخت هجرت البلاد مع شاب من الاشراف الذين هاجروا أول الثورة. ويسكن فى أعلى غرف الدار التى يقطن حكيم اسمه (برتو) كان شريفا وكان ذا مال ونعمة. فلما استولت الثورة على أموال الأشراف وامتيازاتهم ترك برتو ماله ولقبه غير آسف وقنع من الحياة بوكره الذى كان يتسلق اليه تسلق الحيوان إلى عش الطائر وعكف على قراءة (لوكريس) وعلى صنع لعب للأطفال يجد منها ما يقيته. وكان لبرتو صديقة قديمة من الأشراف تدعى مدام رشمور عرفت كيف تنتقل من العصر القديم إلى الثورة مع الاحتفاظ بمالها ونعمتها ومع الاستمرار على دعوة الكبراء والمعروفين إلى حفلاتها الراقصة. فعرض لها ذات يوم خاطر أن تسعى لتعيين جاملن محلفا فى المحكمة الثورية. ومع ما أظهره لها برتو من التخوف من هذه المحكمة التى تدفع إلى (الجيوتين) المرأة البغى ومارى انتوانيت والتى تؤلب الفرق المتنازعة ضدها بما تصبه عليهم جميعا من جامات غضبها، فقد

نجحت رشمور وعين جاملن محلفا. ومن ذلك اليوم ازدادت حبيبته (الودى) تعلقا به وشغفا. ولما استفسرها عن ماضيها أخبرته أن شابا من الأشراف استغواها. فملكت هذه الفكرة على المحلف الجديد نفسه وجعل يرقب فى كل شريف يعرض للمحاكمة مغرى محبوبته. فلما اتجهت شبهاته لأحد الأشراف الذين قدموا للمحاكمة والذين كانت الأدلة عليهم تافهة لم يأل جهدا فى اقناع زملائه بأنه رجل مجرم خطر على البلاد قدير على قلب الحكومة. وكأنما كان يقول فى نفسه أن أولئك الذين لايعبأون بالعرض ولا بالشرف بالنسبة لفتاة تستسلم إليهم جديرون أن يكونوا كذلك مع أمة يجدون إلى استلام زمامها الوسيلة. ومع عدم اقتناع أكثر الباقين فقد انتهى الحال بأحد المحلفين إلى أن قال لجاملن:

ـ يجب أن يتبادل الزملاء الخدمات فى ما بينهم حتى هنا يا صديقى. وانضم لصف جاملن وحكم على الشريف بالإعدام وأعدم.

وجاملن شاب طاهر القلب طيب النفس قوى الإيمان بمبادىء الثورة حقيق أن يكون من أتباع مارا وروبسبير اللذين كانا آلهة العصر وموضوع اعجابه وعبادته. لذلك لم يخطر بباله أن يبرىء أحدا الا مرة أول تعيينه. أما بعد ذلك فقد كان يرى فى القواد الذين انهزموا وفى الفتيان الذين يصيحون «يحيى الملك» فى الميادين العامة وفى الأشراف الذين يتهمون بالارتباط مع الأعداء أخصاما للثورة قديرين جميعا إذا لم يكبح جماحهم بالقتل أن يقلبوها ويعيدوا نظام العهد القديم. وكان يعتقد أن شرف المساواة الذى نشرته مبادئ الثورة ليس مقصورا على الحقوق التى يتمتع بها الأفراد، بل هو ممتد إلى العقوبات التى تنزل بهم أيضا. على أن شرف المساواة فى العقوبة هو الذى كان فى يده دون شرف الامتاع بحقوق الحياة الذى لم يكن فى يد أحد. لذلك حقق هو وزملاؤه المحلفون والقضاة أعضاء المحكمة الثورية الشرف الأول ولم يستطع أحد أن يحقق الشرف الثانى.

ولما عرض أمر رفيق أخته على المحكمة لم يكن أكثر اشفاقا فى هذا الظرف منه فى أى ظرف آخر، بل رفض أن يرد نفسه قائلا أن سلام الجمهورية أعلى من أن تؤثر فيه علاقة أو عاطفة. وكذلك أعدم «دشاسانى» مع من أعدم.

وفى هذه الأيام غضب الضابط هنرى رفيق مدام رشمور منها فسرق خطابا كانت موجهة إياه لأحد الأشراف المهاجرين وقد ذكرت فيه ما قاله برتو عن المحكمة الثورية وعن الجيوش المحاربة. ولما سرقه وعرضه على رجال الإدارة كانت النتيجة أن قبض على رشمور وبرتو وحليف لبرتو من القسس يدعى لنجمار وفتاة احتمت عند برتو ولنجمار من أبحاث السلطة وتفتيش رجال الثورة وأودعوا جميعا فى السجن.

ولما كانت المحكمة الثورية قد ضاقت ذرعا بالتحقيقات العادية وبالمتهمين يقدمون إليها واحدا بعد الآخر فقد صدر قانون يبيح محاكمة من يشتم من أعمالهم أنهم يتآمرون بمجرد جمع الأدلة ثم يخصل البحث فى المحكمة. فلما قدم برتو وصحبه وتلا المدعى العمومى ورقة الاتهام التى جاء فيها من تهم برتو أنه قال: «أن المحكمة الثورية تشبه روايات شكسبير التى تخلط بين أفظع المناظر الدموية وأسخف التفاهات، وأنه ينتظر من وراء انتصارات الجمهورية أن يجىء أحد هؤلاء الذين يحملون السيف فيبتلع الجميع كما ابتلع الطائر الضفادع فى الخرافة. ومن تهم رشمور أنها متصلة بالخارج ومختلطة بالمرتشين: لما تلا المدعى العمومى ورقة الاتهام وسئل برتو: هل تآمرت؟ أجاب أنا لم أتآمر وكل ما جاء فى ورقة الاتهام التى سمعت الآن باطل؛ فكان الرد عليه: ألا ترى أنك تتآمر الآن من جديد ضد المحكمة؟!!

وبعد ذلك وبعد أن سئم الناس القتل والدماء رأت الجمعية الوطنية أن روبسبيير قد بلغ حدا أصبح لايطاق معه فاعتبرت أعضاء الأقسام المنضمة إليه وأعضاء المحكمة الثورية ومحلفيها كلهم خوارج على القانون ويجب إعدامهم وأعدموا وأعدم جاملن.

* * *

هذه الصورة التى أبدعها أناتل فرانس والتى نقلنا هنا ظلا منها قد لا يوازى ما ينقله الكارت بوستال عن أبدع صور اللوفر، لايمكن أن يتذوقها إلا من يقرؤها ويعيدها ثم يعيدها غير مرة.وحينئذ تتبدى له الثورة الفرنساوية كلها وكيف كانت وتنقشع من أمامه الغيوم التى يجدها فى كتب التاريخ الجامدة والتى تنقل حكاية الحوادث كما تنقل الأجواء صدى الصوت البعيد.

وأنى لفى غنى عن أن أذكر شيئا عن أسلوب أناتل فرانس وألوان ذلك الأسلوب الدقيق الهادىء الرزين لاتشعر معه بالتكلف بل تسيغه سهلا عذبا ينساب إلى نفسك فلايهزها هزات عنيفة كأسلوب الشعريين ولا يستوقفها بيبوسته التحليلية. ومع ذلك فلن تجد تحليلا ولا شعرا أبدع مما عند أناتل فرانس. وان وصف أشخاص رواية الآلهة، لأكثر ما تكون الصور دقة فى التحليل. وبحسب أسلوب فرانس مقدرة على اشتمال فضائل كل الأساليب أنه سهل ممتنع لاتستعصى عليه صورة ولايتعقد معه رأى. وبحسب رواية الآلهة أنها كتبت بهذا الأسلوب وأنها رواية الثورة الفرنساوية أكبر ثورة عرفها التاريخ وأبدعها فى حياة الأمم أثرا.

أناتول فرانس

٥

مارى باشكيرستف

(لأناتول فرانس كتاب يقع فى أربعة أجزاء عنوانه «الحياة الأدبية La Vie Litteraire» جمع ما كتبه فى النقد والتعليق على الكتب وما وضعه من خلاصة تاريخ بعض الأشخاص فى أخص ما تتميز به حياتهم. وكتابة أناتول فرانس فى النقد لاتعتبر حجة لأنه يأخذ فيها بالمذهب الذاتى أكثر مما يأخذ بالمذهب الموضوعى. لكن ذاتية أناتول فرانس وما برزت به على كل ذاتية سواها من صفات خاصة مر بالقارىء شىء منها فيما قرأه تجعل كتابته فى النقد شائعة محبوبة لذاتها. أما ما وضعه من خلاصة تاريخ الأشخاص فله طابع خاص يسمو به على آرائه فى النقد. فأنت تراه ينظر من جوانب حياة الشخص إلى الجانب الذى كان له فى حياته أكبر الأثر. ولعل من القراء من اطلع على ما كتبه فى الحياة الأدبية عن بسمارك وفى « الزنبقة الحمراء» عن نابليون فرأى كيف أظهر فرانس ما فى هذه النفوس من ضعف كان

سبب قوتهم ومن هوس سما بهم إلى العظمة. وها نحن أولاء نترجم رسالة من رسائله فى «الحياة الأدبية» عن مارى باشكير ستف ليرى من لم يطلع على موجز تواريخ الأشخاص على النحو الذى يكتبها به فرانس مثلا قد يتبين منه ما لم نستطع نحن بيانه من صورة نفس الكاتب العظيم.

* * *

ماتت مارى باشكير ستف، التى نشرت يومياتها أخيرا، منذ أربع وعشرين سنة. وكانت وفاتها فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد خلفت عدة نقوش وبعض صور تنبىء عن حب خالص للطبيعة وعن هيام وولع بالفن. وكانت حفيدة الجنرال جريجوريفتش باشكير ستف أحد من تولوا الدفاع عن سباستوبول، كما كانت تزهى بأن فى عروقها دما تتريا عريقا ورثته عن أمها. وكانت بيضاء اللون بديعته، حمراء الشعر ناهدة الخدين قصيرة الأنف عميقة النظرة ذات شفاه كأنها شفاه الطفل. وكانت صغيرة الجسم جميلة التكوين. وكان هذا من غير شك سبب ولعها بالنظر إلى التماثيل حتى كانت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها تمضى الساعات أمام تماثيل الرخام فى متحف الكابتول بروما. ولم تكن يداها الرقيقتان البيضاوان على أحسن صورة. لكن مصورا ذكر أن الطريقة التى كانت توضع بها هاتان اليدان على الأشياء كانت غاية فى الجمال. لكنها مع ذلك قلما كانت تصف نفسها فى يومياتها. وإنما ألاحظ صورة كتبتها فى ١٧ يولية سنة ١٨٧٤ بالغة فى جمال التنسيق قالت: «شعرى أشد ما يكون حمرة، وعلىّ فستان من الصوف الأبيض رشيق حسن الهندام وطرحة من الدنتلا حول العنق. وكأنى بذلك احدى صور الامبراطورية الأولى. وإنما احتاج لكمال تلك الصورة إلى أن أقف تحت شجرة وأن أمسك بيدى كتابا» ثم أضافت إلى ذلك أنها تحب الوحدة أمام المرآة.

وكانت أكثر اعجابا بصوتها منها بجمالها حتى كان من أولى أمانيها أن تصبح مغنية عظيمة.

وقد أرادت أن تبدو كما هى بنقائصها وفضائلها، وبعدم ثباتها وبدوام تناقضها. لكن انفتها أبت عليها أن تعترف بشىء لشخص مهما يبلغ من قدره فكشفت فى يومياتها عن نفسها للعالم كله.

أينا لا ينال باشفاقه وعفوه تلك الطفلة المسكينة التى كانت بائسة أن لم تحظ بالطفولة. وليس على أحد فى ذلك من ذنب. فان مارى باشكير ستف لم تكن أبدا من أولئك الذين عناهم الآله الذى كانت تعبده كل يوم بأنهم وحدهم حقيقون أن يدخلوا فى ملكوت السموات. فهى لم تعرف قط تلك اللذة الرقيقة لذة التواضع والصغر. بل طارت بجناحيها فى الخامسة عشرة من عمرها ولم يبق للعش الذى طارت عنه ذكر عندها. لذلك كان ينقصها دائما البساطة والمرح الساذج.

وأول الأسرار التى تبوح لنا بها فى يومياتها ألعوبة بدأتها فى أيام الكرنفال فى روما. وكان كل ما انتهت إليه منها قبلة بين عينيها. وقد أبدت الفتاة فى ذلك غير قليل من الخلاعة والحيلة. فقد قال لها ابن عم الكردينال، وكانت اتخذته فى ذلك العيد رفيقا:

ـ وآسفا فأنت لا تحبيننى.

ـ كلا.

ـ أليس لى أن آمل؟

ـ بلى. يجب أن تأمل دائما فالأمل فى طبع الانسان. لكنى لا أترك لك من جهتى حظا فيه.

وأظهر ابن عم الكردينال غاية الظرف والرقة. لكن مارى بشكير ستف لم تخدع له. ثم أنها ترددت بعد ذلك. «لو أننى اعتقدت ما قاله لبلغت بذلك غاية السرور. لكنى داخلنى الشك رغم مظهره الصادق الرقيق البسيط. وذلك حظ الشقى من شقاوته» ثم أضافت «على أن الخير فيما وقع».

وهى لم تكن ترغب مطلقا فى التزوج من المسكين بترو. بل فكرت:

ـ لو كنت زوجه إذن لقضيت على ثروته وقصوره ومتاحفه. فأن بى من الطمع والكبرياء ما لا حد له. والعجب أن يحب شخص مخلوقا ذاك شأنه لا لشيء لأنه يعرفه. أو لو عرف هذا المخلوق.. أواه.. أنه مع ذلك لايحبه».

وكان الظهور والاستلفات والاشراق أملها الدائم. وكان الكبر يقتلها. فقد كانت تردد من غير انقطاع: «أواه لو كانت ملكة» وكانت تصيح أثناء رياضتها فى روما: «أريد أن أكون قيصر أو أغسطوس أوماركس أورليس أو نيرون أو كاراكالا أو الشيطان أو البابا».. وكانت لاتجد جمالا فى غير الأمراء.. أما سائر الناس فلا يستحقون نظرة ولا التفاتا.

وكانت الأفكار المتناقضة تختلط فى رأسها فتضطرب فيه اضطرابا غريبا. فقد كانت تقية ورعة تصلى لله صباح ومساء وتطلب إليه أن يهبها أميرا تتزوجه وصوتا حسنا وصحة كصحة أمها. وكانت تصيح: «ليس شيء أدعى للفزع من عدم القدرة على العبادة». وكانت تخلص التوجه للعذراء وتقوم بطقوس الديانة الأرثوذكسية. وكانت تتعرف المستقبل فى مرآة مكسورة حيث كانت ترى جما من الصور الصغيرة وأرض كنيسة من الرخام الأبيض والأسود كما كان يبدو لها فى تلك المرآة نعش فى بعض الأحاديين. وكانت تستشير المخرف الكسس الذى كان يرى الكردينال أنتونللى فى نومه، كما كانت لا تحجم عن أن تدفع دينارا للعرافة جاكوب كى تفتح لها الغيب. تعتقد بكل الخرافات، فكانت مقتنعة بأن عين البابا بيوس التاسع حاسدة، وكانت تتوجس شرا إذا هى رأت الهلال الجديد بالعين اليسرى. إلا أن آراءها كانت سريعة التغير فى كل لحظة. فقد سألت نفسها فجأة وهى فى نابولى: «أى شيء ذلك الروح الخالد الذى يطير شعاعا لكل تخمة تصيبنا». ولم تفهم كيف يترتب على ارتباك فى المعدة أن يطير الروح السماوى إلى بارئه، واستنتجت من ذلك أن ليس

ثمت روح وأن هذا الاسم «محض اختراع».. ثم لم يمض على ذلك إلا أيام حتى وضعت مسبحة فى عنقها لتشابه بياتركس «ولأن الله فى عظمته المجردة لايكفينا فيجب أن تكون فى حيازتنا صور ننظر إليها وصلبان نقبلها».

وهى رشيقة وهى مجنونة. لكن هذا الرأس المضطرب ممتلىء امتلاء رأس قارىء كتب قديم. فقد قرأت مارى باشكير ستف ولم تعدُ السابعة عشرة من عمرها أرسطو وأفلاطون ودانتى وشكسبير. وكانت حكاية أميدى تييرى للتاريخ الرومانى تأخذها عن نفسها. وكانت تذكر مغتبطة «كتابا مفيدا عن كونفوشيوس» وكانت تحفظ عن ظهر قلبها هوراس وتيبيل وأمثال سيرس. وكانت تتذوق شعر هوميروس إلى أعمق نفسها.. ومن قولها: «لن يستطيع أحد أن يتخلص من عبادة القدماء. فلم تترك مأساة حديثة ولا قصة ولا مهزلة مما يكتب دوماس أو جورج ساند فى نفسى ذكرا باقيا ولا أثرا عميقا صريحا كالأثر الذى تركه فيها وصف الاستيلاء على تروادة. فأنى يخيل إلى أنى شهدت هذه الفظائع وسمعت تلك الصيحات ورأيت النار تشتعل وكنت وأسرة بريام مع أولئك التعساء الذين كانوا يختبئون وراء محراب القرابين التى كانوا يتقربون بها لآلهتهم لتكشف عنهم النيران الملتهبة فى مدينتهم ولا تسلمهم إلى أعدائهم. وأينا لا تعروه هزة حين يصل من قراءته إلى طيف كروز».

وكان رأسها مخزنا تختزن فيه مختلف الكتب والروايات من غير ترتيب. وكانت دائبة على السياحة تذهب من نيس إلى رومة ومن رومة إلى باريس ومن باريس إلى بطرسبورج وفيينا وبرلين. وإذ كانت لا تستقر أبدا فقد كانت السآمة تتولاها أبدا. فكانت ترى حياتها مرة خلاء حتى كانت تقول: «فى هذا العالم كل ما ليس أليما سخيف وكل ما ليس سخيفا أليم».. وكان ينقصها كل شىء لأنها كانت تريد كل شىء. وكانت لذلك فى هم مفزع، ترسل حولها صيحات الألم. لكنها مع ذلك كانت تحب الحياة. قالت «إننى أجدها طيبة. فهل يظن ذلك أحد؟ وأجد كل

شيء فيها طيبا لذيذا حتى الدموع وحتى الألم. إننى أحب أن أبكى وأحب أن أيأس. أحب أن أكون حزينة آسية. أحب الحياة بالرغم من كل شيء. أننى أحب أن أحيا ومن القسوة أن أموت وأنا كذلك مؤاتية لينة».

وكانت تمر بها ساعات تشعر فيها شعورا مبهما مفزعا بالمرض الذى اندس إليها. وهى قد شعرت به من ربيع سنة ١٨٧٦ إذ كتبت فى أول يونيو «الساعة وأنا خارجة من غرفة زينتى مر بى طيف مفزع. فقد رأيت إلى جانبى امرأة فى ثوب طويل أبيض تحمل النور فى يدها وتنظر إلى ورأسها منحن شاك على مثال طيف أساطير الألمان. لكن مهلا! إن هذا الطيف لم يكن إلا خيالى عكسته المرآة. ألا كم أخشى أن تكون هذه الآلام النفسانية منشأ مرض جسمانى».

وفى سنة ١٨٧٧ تولت هذه النفس الحائرة شهوة واحدة. فكرست مارى باشكير ستف كل وجودها للتصوير وجمعت له كنوز ذكائها المشتتة واجتمعت عنده كل آمالها فى المجد ولم يبق لها من حياتها غاية إلا أن تكون فنانة كبرى. فأجهدت نفسها فى الدرس فى أكاديمية جوليان؛ ولم يمض غير قليل حتى كانت من خيرة تلاميذها، وكان ذلك بعض تلك الانقلابات الفجائية التى تجد لها مثلا شتى فى حياة الصالحين والتى تنبيء عن طبع مخلص متطرف كثير التحول. ومن ذلك الحين لم يبق للأمراء عندها قدر بل أصبحت جمهورية اشتراكية بل ثورية بمقدار. فلم تعد تلبس لبس المترفين وتسربلت بالجلباب الأسود الذى ترتديه النساء الفنانات واكتشفت جمال البائسين وأصبحت مخلوقا جديدا. ولم يمض الا ستة أشهر حتى كانت على رأس فرقتها مع مدموازيل برسلاو.

وفى انتظار المجد الذى كانت ترجوه كانت منكبة على العمل مجدّة فيه. وقد رأت فى ٢١ يناير سنة ١٨٨٢ لأول مرة باستيان لوباج، وكانت تعجب به وتقلد نقوشه. «وهو صغير الحجم شعره لون الذهب ناتيء الأنف له لحية الشباب، وكان يومئذ

مصابا بالمرض الذى قضى على حياته بعد قليل» وهى الأخرى كانت تشعر بأن إصابتها شديدة. فقد مضى عليها سنتان يهزها سعال ممزق، وكانت فى خلالهما تزداد نحافة وفى خلالهما أصيبت بالصمم. وقد أدخلت هذه العاهة اليأس إلى نفسها فكانت تقول «لم يخلقنا الله لنتألم. وإذ كان هو الذى خلق العالم فلم خلق الشر والألم والسوء.. إننى لن أبرأ وسيبقى بينى وبين العالم حجاب. فلن أسمع حفيف الريح فى الشجر ولن أسمع خرير الماء المتساقط على ألواح النوافذ ولا الكلمات التى تلفظ بصوت واطىء. كلا، لن أسمع من ذلك كله شيئا». ثم لم تلبث أن علمت أن صدرها مصاب وأن رئتها اليمنى تفنى فصاحت «فليتركوا لى من اليوم عشر سنوات وليتركوا لى خلالها الحب والجد فأموت فى الثلاثين مطمئنة راضية. ألا لو وجدت من يعاهدنى على ذلك لعقدت معه أن أموت فى الثلاثين بعد إذ أكون قد حييت».

وسار السل فى طريقه المحتوم. فكتبت مارى باشكير ستف فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ تقول:

«إنى أسعل الوقت كله رغم حرارة الجو. وقد أخذتنى سنة على المتكأ عصر اليوم أثناء راحة النموذج فرأيت نفسى نائمة والى جانبى شمعة موقدة.

«أترانى أموت؟ لشد ما أخاف ذلك».

وهى اليوم والحياة تفر منها تغرم بالحياة حبا. فالفنون والموسيقى والنقش والكتب والناس والثياب والترف والصحة والضحك والحزن والآسى والحب والقمر والشمس والفصول كلها وسهول روسيا الساكنة وجبال نابلى والثلج والمطر والربيع وجنونه وأيام الصيف الهادئة ولياليه ذات النجوم. كل ذلك هى تحبه وتعجب به. لكنها يجب أن تموت: «والموت كلمة سهل أن نقولها وأن نكتبها. لكن التفكير فى أمرها.. الاعتقاد بأن الانسان سيموت عاجلا!.. وهل ترانى أعتقد ذلك؟ كلا. ولكنى أخشى.

وبعد أيام من ذلك أزاحت عنها هذه الأوهام التى تطوف حول مراقد المسلولين وحدقت بالموت وجها لوجه:

ـ «ها هو ذا غاية كل آلامنا. كم فى الحياة من الامال والرغائب والشئون.. ويموت الانسان فى الرابعة والعشرين عند أبواب ذلك كله».

وفيما كانت تموت كان باستيان لباج المحتضر يحمل كل يوم اليها. وفى يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر وقفت يومياتها. وفى ذلك اليوم حضر باستيان لباج معتمدا على أخيه عند مرقد المريضة. وقد ماتت مارى باشكير ستف بعد أحد عشر يوما من هذا التاريخ «فى يوم ملأ الضباب جوه فصار أشبه الأشياء بما نقشته هى فى إحدى صورها الأخيرة: الممشى».

إن من المناظر التى تمس القلب دائما ذلك المنظر الذى نرى فيه الطبيعة والحب والموت متقاربين فى مضيق بشع. لكن فى حياة مارى بشكير ستف القصيرة ما أدرى أية مرارة وأى يأس يقبض القلب. وأنه ليخيل للانسان إذ يقرأ يومياتها أنها ماتت قبل أن تُطفأ رغباتها.. لذلك يسرى طيفها متنقلا فى بعض الجهات ينوء بحمل من الرغبات الثقال.

وإنى كلما فكرت فى اضطراب تلك الروح المتعبة واتبعت تلك الحياة المجتثة ألقى بها إلى كل رياح أوربا تمتمت فى اخلاص المتعبد بهذا البيت من شعر سانت بيف:

من لى بأن أولد وأعيش وأموت فى بيت واحد.

أناتول فرانس

٦

خرافة يونانية

كم خلق خيال بنى آدم من صور، وكم أخذت هذه الصور شبهة الحقيقة زمنا حتى جاءت صور غيرها ردتها إلى عالم الحلم والوهم وقامت مكانها تزعم أنها الحقيقة الملموسة. ثم جاء عصر جديد زج بهذه الحقيقة فى عالم الخرافات ليبنى هو لنفسه اعتقادات وحقائق جديدة من يدرى كم يكون على الزمن بقاؤها. هكذا يبقى بنو آدم يلعبون بالخيال والوهم ويلعب الخيال والوهم بهم؛ وهم فى ذلك يحسبون أنهم يبتغون الحقيقة وفى أملهم أن يصلوا إليها يوما ما.

وقعت على خرافة قديمة من خرافات اليونان. خرافة أبدعها خيال شاعر وطرح بها وسط قومه على أنها الحقيقة. واتخذها قومه مثالا للحقيقة حتى تغير الزمان وتغيرت هذه الحقيقة معه. وفى هذه الخرافة فكرة حلوة خلابة لفتتنى.

فقد زعموا أن يونيا هى التى خلقت جماعة البشر. ولم تخلقهم من أب واحد وأم واحدة كما قررت الأديان طرا، بل رأت ـ وهى محقة فى كل ما ترى ـ أن خلق عدد كبير من هذا الجنس أضمن لسرعة العمارية فى العالم. ولكيلا تستغرق زمنا طويلا فى إبداع هذه الخلائق ولتبعثها كلها فى لحظة واحدة قامت بادىء الأمر بتسوية كل عضو من الأعضاء منفردا. فسوت عددا من أذرع الرجال وعددا آخر من أرجلهم ومثلها من الجماجم والقلوب وسائر الأعضاء. وسوت مثل هذا العدد من أذرع النساء وأرجلهن وصدورهن وسائر أعضائهن. ثم ما كادت تتم ذلك حتى دعاها باكوس اله الخمر لوليمة أولمها. فأجابت دعوته وذهبت مع من دعى معها من الآلهة إلى الوليمة، وهناك أمضوا وقتهم فى الشرب والطرب. وقامت يونيا ورجعت إلى عملها وقد ملكتها صورة الخمر. فلم تكد تميز أعضاء الرجال من أعضاء النساء. فجعلت من حين لآخر تضع فى كيس مما أعدت لاحتواء هذه الأعضاء صدر رجل مع بقية جسم إمرأة. وجمجمة امرأة مع بقية أعضاء رجل. وبعد إذ ملأت كل الأكياس نفخت فيها من روحها حياة وحركة. وكان ذلك مبدأ خلق الناس. ومنه خرجوا ومن بين رجالهم من يعاوده ضعف المرأة لأن صدره يحوى قلب امرأة ومن بين النساء من تجد فيها مشاكسة الرجل أو شدته لأنها أوتيت خطأ فؤاده أو ذراعيه. وبقى ذلك ميراثا يتسلل على مر الأجيال.

هذه هى الخرافة التى كان يفسر بها اليونانيون ما نراه فى بعض الرجال من الخنوثة وفى بعض النساء من الشكاسة. وهذه الخرافة أخذت صبغة الحق زمنا ما ثم جاء الحق الجديد فأزهقها وصرنا معاشر الناس من كل الأجناس أبناء آدم وحواء.

ملحوظة ـ هذه الخرافة فى كتاب من كتب أناتل فرانس وعنه أخذنا فكرتها.

بيير لوتى

لمناسبة وفاته

متى؟

نعاه البرق، منذ أيام، فنعى كبيرا من كتاب فرنسا المعدودين وأحد محبى الأنسانية الذين إمتازوا بالعطف على الشرق وعلى مصر عطفا خالصا من كل شائبة. فقد ظل لوتى رغم أحداث السياسة فى هذه الأيام الأخيرة شديد العطف على تركيا، شديد التعلق بها، شديد الأمل فى ألا يقع بينها وبين فرنسا ما يدفع الألم إلى قلبه الذى جمع بين محبة وطنه واعزاز تركيا.

ولو لم يكن من آثار لوتى الأدبية إلا كتابه (موت أنس الوجود) الذى كتبه عن مصر وأهداه إلى المرحوم مصطفى كامل باشا لحق على المصريين أن يشاركوا فرنسا فى الأسف على موته وأن يقيموا له بينهم ما يخلد ذكره ويديم أثره. ولو لم يكن إلا هذا الكتاب لوجب عليهم أن يعنوا بدراسة كاتبة ومعرفة ما انطوت عليه روحه من عبقرية وما اشتمل عليه قلبه من عواطف دائمة التجدد، ولكان أول واجب عليهم فى

هذا السبيل أن ينقلوا الكتاب إلى اللغة العربية ليقف بنو مصر جميعا على ما أنطوى عليه من قوة عبارة، وسحر أسلوب، وجمال وصف، وسلطان عاطفة.

على أن (موت أنس الوجود) ليس إلا جزأ من عشرات الأجزاء التى وضعها لوتى والتى أحدثت فى الأدب الفرنسى نوعا طريفا جمع بين بساطة القديم وجمال الحديث، وكان ولا يزال له أثر على قارئية إذا هم قرأوه فى سن معينة واستمعوا فيه إلى نغمات أسلوبه المتجاوب البديع الذى يحرك فى النفس الشابة كل أنغام حياة الشاب والذى يبعث إلى النفس التى تعدت الشباب صورا من الشباب تحييها فتلذ لذكرى ماض كان لذيذا حين عاشته لم يزده تذكره فى طيات الماضى إلا جمالا وروعة.

وليس يسعنا، نحن أبناء الشرق، إذا قرأنا كتب لوتى إلا أن نشعر بشىء من التجاوب بين نفوسنا الممتلئة بالخيال وبين ما فى هذه الكتب من صور العالم وخيالاته. ويصل هذا التجاوب إلى حد التمازج أحيانا ثم ينبض التمازج ويضعف التجاوب، وتحتاج النفس إلى غذاء عقلى أكثر دسما مما يجود به الخيال.

ونحن أبناء الشرق فى أشد الحاجة إلى المتاع بهذا التجاوب ثم التمازج ثم الانفصال. فإن أدبنا القديم غنى ولكنه قديم. فيه العواطف الرقيقة وفيه نزعات النفس للفضيلة ونزغها للهوى وفيه المعانى الكثيرة. لكن لكل عصر ميولا خاصة. ومهما يعترف الأوربى بأن أدب القرن السابع عشر الفرنسى بالغ غاية الإبداع فإنه يعترف بأنه لا يتجاوب مع نفس رجل القرن العشرين. ولذلك يحب الرجل منا بعد إذ يعيش عصور امرىء القيس وحسان وجرير وأبى نواس والمتنبى أن يعيش العصور الحديثة. والأدب العربى فى العصور الحديثة متهم بالضعف. وهو من غير شك قليل فى كمه لا يروى ظمأ النفس فى هذا العصر الذى فتح من كنوز مخبآت العالم ما لا تقنع النفس أمامه بوشل من خيال فج أو ذهن محصور أو عقل ضيق الأفق.

أنت بحاجة اذن إلى أن تقرأ لوتى. وأنت تحس بنفسك تتحادث مع نفسه وخيالك فى حاجة إلى السبح مع خياله. وأنت تتركه بعد ذلك متطلعا إلى غذاء أدسم. فإذا وقفت عليه وانقضت سنون ورجعت إلى لوتى شعرت بلذة الماضى ورأيت فى هذه الكتب صديقا قديما كان معك زمان تخطيته وقد يتعذر أن تعود فتبقى طويلا معه.

ولا عجب. فليس لوتى بالرجل الذى حبس نفسه فى غرفة جعل فيها يستقصى تاريخ الأمم ويرد فيها الوقائع إلى أصولها ويحلل هذه الوقائع ثم يضع قصة تاريخية أو تحليلية أو يقيم نظرية خاصة تؤيدها قصته. بل هو رجل نشأ ضابطا فى البحرية الفرنسية فجاب أقطار العالم وتخطى البحار فوق ظهر الموج المضطرب فعرف الوحدة اللذيذة المتشابهة وعرف الانكماش فوق سطح المركب الساعات الطوال يناجى الطبيعة الهادئة أحيانا والمضطربة أخرى والمتجددة دائما فى صور متشابهة متعاقبة لا يمل تشابهها ولا يؤيس تعاقبها. وهو فى انكماشه لا يفتأ يستعرض أمام خياله ما قد يكون وراء الحجب التى يحيطه بها الأفق من كل جانب من ذلك الغيب المريب الذى بدأ منذ الأزل ولزم العالم وما زال ملازما له برغم جهود الأجيال المتعاقبة لكشف مستوره. ولم يكشف له خياله من ذلك الغيب إلا عن مخاوف تلخصت عنده فى ذلك الشبح المفزع الذى أفسد عليه نسمات الحياة ـ شبح العدم المتجدد فى صور الموت الذى يحصد كل صور الحياة والتجدد. كشف له خياله عن ذلك الشبح فرآه فى كل قوته وكل سلطانه لا يغالب ولا يقهر فاستسلم له وأنكر كل ما سواه وأقر له بالقدرة وجعل منه الغاية الأخيرة للحياة فرتب حياته وفاق هذه الغاية.

كثيرون غير لوتى يرون فيما رأى هو من صور الطبيعة ومظاهر الوجود دليلا على الخالق ووسيلة إلى الإيمان ودافعا للامعان فى تقديس الله والتسبيح بحمده. أما هو فقد أثقلت هذه المظاهر كاهله بفكرة العدم والموت. فكان عبوسا. لكنه استسلم لفكرته فكان عبوسه فى غير ثورة ولاقطوب. بل كان عبوس أبيقورى مستسلم لفكرة

الحياة استسلامه لفكرة العدم مندفع فى سبيل المتاع بالحياة حتى ينسى نفسه فى الحياة قبل أن يدركه العدم.

وهذه الفكرة البسيطة العظيمة. وهذه الطبيعة المترامية الأطراف التى يظل يجوبها من طرف إلى طرف طوال شبابه وهذا الاستسلام للطبيعة وللفكرة التى ألهمتها الطبيعة اياه ـ ذلك كله هو ما تراه واضحا جليا فى كتبه ظاهر الأثر فى أسلوبه

* * *

كان لوتى يجوب البحار مستسلما لهواجسه رازحا تحت حمل فكرة العدم «يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها». ولذلك كان اذا رسا به السفين عند الشاطىء يندفع مع زملائه يريد أن ينسى نفسه فى لذائذ الحياة وشهواتها تخلصا من عبء فكرة العدم والموت. وكان بطبعه سريعا إلى الانخراط فى البيئة التى يحل بينها وإلى تقمص روح الطبيعة والناس الذين يحيطون به وإلى العيش كما يعيشون وإلى المتاع بما به يمتعون. فكان تركيا فى تركيا مصريا فى مصر يابانيا فى اليابان مستوحشا فى تايتى. وكان يرى فى الحب خير متاع ينسى به ألم الحياة كما كان يرى فيه خير مطية تنقله فوق لجة الحياة إلى ساحة العدم. وأنت لذلك لاترى فى كتبه إلا وصفا للطبيعة المحيطة به يشعرك بمبلغ حبه لها وبأنه فيها فنى فانطبعت بكلها فى خياله؛ وتحدثا بعيشه بين أهل البلاد التى نزل فيها على صورة حياة أهلها؛ وقصصا لحكايات حبه للفتاة التى تمثل فى هذا الوسط مجموع جمال الوسط مجسدا فى المرأة. ثم تبدو من خلال ذلك الوصف وهذا الحديث والقصص فكرة العدم والموت من حين إلى حين. وتبدو فى صورة محزونة تدلك على مبلغ ما وخز الألم لوتى حين مرت هذه الفكرة المخيفة بخياله المستسلم لملذات الحياة.

وأنت ترى كذلك فى كتب لوتى ما يجعلها أشبه بالذكريات، كتبها صاحبها لنفسه فوصف فيها ما رأى وماسمع، وما أحسه وما اندفع نحوه. وكأنه يريد بهذه

الذكريات أن يزيد فى متاعه بالحياة وأن يجمع حوله فى كل لحظة من لحظات الحاضر صورة ذلك الماضى المتعاقب بملاذه وشهواته وآلامه ومخاوفه حتى يكون متاعه بالحياة مضاعفا وحتى ينسى مع هذه الذكريات شبح المستقبل الذى لا يحوى عند لوتى إلا صورة الفناء الأليمة المحزنة.. على أن هذه الذكريات لم تكن لتكفى كاتبها أداة لنسيان فكرته.. لذلك جمع حوله حين عاد إلى مسقط رأسه تذكارات شتى من البلاد التى مر بها فكان منزله مجموعة عجيبة مما فى الأرض من عجائب. وكان لوتى وهو فى وكره فوق ثرى فرنسا يشعر وسط هذه المجموعة بالأرض مجتمعة حوله وبصور صديقه تحيط به وبالزمن مجتمعة سنوه تحت نظره.

كان لوتى اذن يحب الحياة ويخشى الموت وكان حبه شديدا وخشيته شديدة. فكان يجمع حوله كل أدوات الحياة يتلهى بها عن شبح الموت. وكان دائم الاشتغال بما يحب وما يخشى فلم يتسن له أن يبتسم للحياة ولا أن يسخر من الموت. ذلك بأن المحب والخائف لا يعرفان الابتسام. انما يبتسم من يقف موقف المتفرج. من أجل ذلك كان أسلوبه بين الاستسلام والتهجم. وكان تصويره للأشياء تصوير المعجب بها أو الحذر منها. وكان به للمرأة حب امتلاك ليفنى فيها ولتفنى فيه أكثر مما كان حب غزل ليلهو بها وتلهو به، وأكثر مما كان حبا نفسانيا يتشارك المحبان بسببه فى المتاع بدقائق الكون وبدائع الخليقة. كان لوتى لا يتخير لحبه إلا فتاة فجة الذهن والنفس تفتحت عيونها للحياة كما تتفتح عيون الزهر أن حان موعد ازهاره، وبقى قلبها غضا يدفع إلى وجودها شبابا عذبا لا يفتر يبتسم لأنه الشباب ولأنه عذب كما لا تفتر الزهرة تبعث من أريجها ما دامت فى شباب إزهارها لم يجىء عليها ذبول ولا أفول. «فأزياديه» «وفاتوجيه» «وجنان» ومدام «كريزنتم» وغيرهن كن فى عذوبة الشباب جمالا ورقة وكن فى طفولة الانسانية استسلاما وطفولة. وهن قد بلغن من ذلك أن كن لا يرين فى اتصالهن بلوتى خطيئة ولا اثما.

وكان لوتى يعرف كيف يصف هذا الحب المتنقل وهاتيك الطفلات المحبوبات وتلك الطبيعة المترامية الأطراف المتنوعة الأرجاء. كان يعرف كيف يصف، وكان يعرف كيف يرى، وكان يرى كل ركن من أركان الأرض بالعين التى يراه أهله. وكان قلما يلجأ إلى الكلمات المبهمة المعنى إلا إذا كان المعنى الذى يريد أن يصيغه مبهم لذاته. مع ذلك كان عدد كلماته محصورا حتى لا تكاد تجد كلمة وحشية أو معقدة أو مهجورة. وما للوصف والكلمات المهجورة أو المعقدة أو الوحشية. انما يصف الكاتب ليرى القارىء من غير حاجة لمنظار معظم. وليس منظار يحتاج إليه القارىء أتعس من القاموس يلتجىء إليه.

على أن لوتى كان كثير التكرار فى وصفه. ليس ما يمنعه من أن يصف مغرب شمس اليوم ليعود بعد قليل فيصف لك مشرق شمس غد ثم مغربها. وليس ما يمنعه من أن يصف سفحا من سفوح الجبل ينتقل منه إلى وصف السفح المجاور له. وقد يجد الناس مثل هذا التكرار مملا. لكن للكاتب الوصاف عذره. فالشمس تشرق كل يوم وتغرب كل يوم وليس يضعف ذلك من أن كل مشرق شمس جميل. وأنت تتمتع كل يوم بصور متاع متشابهة فلا يصدك عن المتاع بشىء غدا أنك متعت بمثله اليوم. بل لقد يكون فى التكرار لذة. وقد يكون التكرار مضاعفا لذة لأنه يضاعف قوة الاحساس بها. والصحيفة التى يكتبها الكاتب المجيد كمشرق الشمس أو كسفح الجبل أو كساعة الحب تود لو تعود إليها. فما بالك لو أنك رأيت مشرق الغد فكان أكثر من مشرق اليوم بهجة وان كان أقصر منه حينا. أو لو أنك رأيت سفح الجبل غدا فإذا أزهار جديدة تفتح عنها أكمامها فتزداد بشذاها متاعا والتذاذا.

فالتكرار لا يمل لذاته. وإنما يمل منه ما زاد عن الحاجة وليس كاتب مجيد إلا يعرف مقدار هذه الحاجة وإلا تداعت اجادته. وقد ظل لوتى وصافا مجيدا حتى أتى عليه الموت.

وقد لايعنيك وأنت بين جنات لوتى أن ترى عقلا كبيراً وحكمة كثيرة. أنه ينقلك من وحدة التفكير إلى ساحات العالم الواسع. وهو ينتقل بك من متجمد الشمال حيث تكون بين الصيادين فى اسلانده إلى المحيط الهادى وإلى خط الاستواء فليس لديك وقت للتفكير. وهو لا يعنى بأن يحبس عنك صور الوجود المترامى لتحبس نفسك على التفكير فى ذرة من ذراته ولو أيقن أن هذه الذرة أصل الحياة ومصدر الوجود.

* * *

تلك بعض خواطر عن لوتى الذى نعاه لنا البرق أخيرا. وليس يسيرا أن نكتب عن لوتى فنوفيه حقه. وإنما أردنا أن نقف برهة عنده فى ساعة ارتحاله إلى العالم الآخر. أو إن شئت فقل فى ساعة دخوله من باب الموت إلى ساحة العدم التى كان يفزع من هولها. وحق علينا أن نقف عنده. فقد كان شاعر فرنسا. ولكنه كان نابغة من نوابغ العصر. وكان محبا للانسانية كلها. وكان كلفا بالشرق معجبا به.

قاسم أمين

١

لكل عصر فى حياة أمة من الأمم مميزات خاصة ولم يعن المؤرخون بدرس هذه المميزات فى أوربا إلا فى العصور الأخيرة بعد ما ثبت لهم أن مواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو والفتح ليس هو وحده الذى يقيم حياة الأمم. كلا بل ليس هو الركن فى إقامة حياتها. وإن قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس إلا مظهرا من مظاهر هذه الحياة. خصوصا بعد اذ دك عرش الاستبداد وقامت الديموقراطية حاكمة آخذة بيدها النهى والأمر. وإنما قوام حياة الأمم مميزاتها من أخلاق وعادات وعقائد وآمال. تلك مجموعة المظاهر التى تصدر عن الأمة والتى تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب. من يوم ثبت ذلك لعلماء التاريخ فى أوربا وجهوا عنايتهم الخاصة لبحث جميع المظاهر التى كانت تصدر عن المجموع الذين يريدون تعرف ماضيه. فلم يتركوا أثرا يهدى لبعض هذه المظاهر الاقفوه. وبذلك أمكن لهم أن يرسموا فى التواريخ التى وضعوها صورا مضبوطة من تلك الأمم واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر بالماضى وأن يقدموا بذلك لأنفسهم

ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم أقوم الطرق للوصول إلى أحسن ما يرجى فى المستقبل.

وكما كانت القوانين وكتب العقائد من تلك الآثار المفيدة التى عنى المؤرخون ببحثها والتنقيب عن أصولها لمعرفة العلاقة بين الفرد وضميره وبين الفرد ونفسه، وبين الفرد والفرد، كذلك كانت كتب المفكرين وكتاب الآداب من الآثار النفيسة التى قامت نبراسا لهداية الباحثين إلى عوائد الأمم وأخلاقها وطرق تفكيرها ونظام حياتها اليومى فى أعمالها. ولهذا اتجهت عناية التاريخ إلى دراسة هذه الكتب على اعتبار أنها آثار اجتماعية لا مجرد مظاهر فردية، وانقطع كثير من رجال العلم للتنقيب يريدون رد كل فكرة أو صورة أو خيال مما يجدونه إلى الأصل الاجتماعى الذى صدر عنه، كما استعانوا بها لتحقيق هذه الأصول الاجتماعية وتحديدها. وذلك المعنى هو ما أراده(تين) حين قال فى مقدمة كتابه عن تاريخ الآداب الانجليزية: لقد ظهر للمؤرخين أن الأثر الأدبى ليس مجرد حركة خيالية ولا هو شهوة ساعة لرأس حامية ولكنه صورة من الأخلاق وأثر من آثار الحال النفسية التى تحيط به. ومن الخطأ درس الأثر الأدبى على أنه عمل قائم بذاته. فما آى الأيمان بشىء لذاتها. وإنما هى أثر الذين وضعوها. وإنما يكون التاريخ الحق حين يبدأ المؤرخ يتعرف الرجل من خلال غيابات الزمن ويميزه حيا عاملا ذا شهوات وعوائد مسموع الصوت منظور الوجه ويرى اشارته وملابسه ويحيط به واضحا كاملا كأنما كان معه فى الطريق ولما يكد يتركه.

وظاهر أنه متى وصل المؤرخ من استفسار الآثار العقلية والأخلاقية والمادية لأمة من الأمم حتى أحاط بها احاطة استطاع معها أن يعرض أمام النظر صورة دقيقة من الشعب الذى اختار فى الزمن الذى اختار كان من السهل عليه وعلى من يقف معه عند الصورة التى وصل إليها الاتفاق على رسم طرق الاصلاح والعمل لتوطئة

مستقبل أقل أغلاطا من الماضى وأكثر سعادة. ومن دونه يكون نظر كل فرد أو جماعة صغيرة للحاضر وأحواله وحوادثه محدودا ضيقا وتكون الوسائل التى يتخيرها المفكرون للعمل فى المستقبل متشعبة متناقضة متضاربة. ومهما تكن حياة الأمم من القوة فإن التشعب والتضارب فى خطط السير التى ترسم لها تذهب بمجهودات المجموع فيها ولا يكون لها حينذاك مهما حسن حظها إلا أن تقف فى نقطة لا سبيل إلى التقدم بعدها. ووقوف الحى عن التقدم معناه التدرك إلى الفناء.

وأنه ليحزننا أن نقول إن مميزات حياتنا والآثار التى صدرت عنها لم يعن بالنظر فيها منا أحد. وترانا لذلك أشد ما نكون جهلا بحقيقة حياة هذا الوادى الذى نعيش فيه وبالتالى أبعد ما نكون عن معرفة الوسائل لاصلاحه. ولكم علت صيحاتنا طلبا للاصلاح ثم كم اختلفنا على هذا الاصلاح لا لشىء إلا لأننا نجهل حقيقة حالنا، ، إليها حتى يتم بعض ما نريد.

ولو عنى بعض دعاة الاصلاح باستظهار. صورة حية ناطقة من تاريخنا المتصل بحاضرنا أو البعيد عنه عناية المؤرخ الذى يريد أن يتعرف الرجل من خلال منائى الزمن ويميز شهوانة وعوائده لوفروا علينا كثيرا من مجهوداتنا الاجتماعية الضائعة ولطرقوا باب الاصلاح الصحيح الذى منه يصلون.

لا أعرف مصريا كتب عن عوائدنا وعقائدنا ليظهر صلة ذلك بباقى مظاهر حياتنا القومية ولا صلته بتاريخنا القريب أو البعيد.ولا أعرف مصريا فسر لنا صورة كتاب من كتابنا جاهد ليرد أفكاره الى مصادرها ويظهر حقيقة هذه المصادر. لا أعرف مصريا بذل أى مجهود جدى ليعلم المصريين تاريخ مصر.

وقفت على الجزأين الثانى والثالث من التاريخ الذى وضعه الشيخ محمد رشيد رضا عن المرحوم الشيخ محمد عبده. والشيخ رشيد إن لم يكن مصريا فهو متمصر. وفى هذين الجزءين ماكتب المرحوم من المقالات وما كتب عنه حين وفاته من

المراثى. ولكن الجزء الأول، الجزء الذى يحوى صورة الشيخ محمد عبده حية ناطقة متصلة بحياة العصر الذى عاش فيه متأثرة بهذا العصر مؤثرة فيه مفسرة له مفسرة به، هذا الجزء وهذه الصورة التى يريدها الناس من المؤرخ بقيا فى صدره إلى الآن وقد مضى على عزمه على إظهارهما عقد من السنين.

وقعت كذلك على بعض أجزاء مما كتب عن حياة المرحوم مصطفى كامل باشا. ولا شك فى أن مصطفى كامل من الأشخاص الذين يفسرون جهة من جهات حياة هذه الأمة ويتفسرون بها فى العصر الذى ظهر فيه. ومع هذا كان كل ما فى الأجزاء التى أذكر أنى رأيتها جملة من الخرافات لا تفسر حياة الكاتب ولاتبين صلتها بعصرها وتفسيرها له وتفسرها به بشكل من الأشكال.

ولا أذكر أن أحدا فكر فى استفسار كتابنا بعد هذا اللهم إلا بعض مقالات فى الصحف تظهر عن كل كاتب أيام حياته أو على أثر وفاته. هذا على أن كتابنا أمثال قاسم أمين وفتحى زغلول وعلى يوسف وغير هؤلاء وأولئك قد كان لهم فى حياة الأمة أثر غير قليل، كما أنهم كانوا مظاهر خاصة لحياة الأمة. وإذا كان هؤلاء لايزالون على مقربة منا وقد عاشوا بيننا وربما وجدوا فيمن بعدنا من يعنى بمعرفتهم فإن من هم أقدم منهم من الكتاب أمثال الجبرتى وإبن اياس لم يجدوا من يعنى بدرسهم ودرس ما كتبوا على اعتبار أنهم مظاهر اجتماعية للأجيال التى عاشوا فيها.

كذلك لم يعن أحد بدرس ما سوى الكتاب من مظاهر حياة الأمة فى الماضى وآثارها، بل كلنا نعيش للحاضر وفى الحاضر. نعيش وحدات مستقلة متأثرة بضرورات الحياة غير محسة بمعنى الاجتماع ولا بما يستلزمه العيش المشترك. فاذا مر بنا هذا الاحساس كان أقصى ما يستثيره عندنا رغبات وآمال تطير مع الهواء ولا تجد لها مستقرا ثم لا تبقى لها بعد ذلك باقية.والحقيقة أن طرق باب الاصلاح يستلزم قبل كل شىء الاحاطة بحال الأمة. والأمة لا تتكون من اللحظة الحاضرة بل إن للماضى

فى شركة حياتنا قسما أكبر مما للحاضر. الماضى هو حياتنا كلها. هو الأب الذى أنشأ اللحظة الحاضرة وسلطان أبوته سلطان فعال قاس شديد المحال. وإنما يكون الاصلاح بالاستعانة بما فى هذا الماضى من حسنات ومساعدة هذه الحسنات لتسرى إلى المستقبل وتنمو فيه وبمحاربة ما فيه من مفاسد محاربة استئصال وابادة.. أما مجرد ارسال الرغبات تلو الرغبات والتعلق بحبال الوهم فحلم ينقضى مع صاحبه ولا يترك أثرا بعده. والتألم على فوات أمل لم يتبعه عمل تألم الطفل على ما خيل له فى حلمه أنه حصله فلما استيقظ لم يفد شيئا. وحاشا أمة تريد البقاء أن تتعلق بوهم هذا مآله. وإنما عليها أن تعمل للوقوف على ما ضيها لتستطيع أصلاح مستقبلها وربما كان أحق الناس بالتغلغل فى خبايا الزمن واستطلاع حقائق التاريخ جماعة الأدباء والعلماء. ولكن الحال أن أدباءنا ناسون هذا الواجب تائهون فى خيالهم وشعرهم علماءنا واقفون عندما خطت أقلام السلف وما ينقل اليهم من أوربا فليس من سبيل إلا أن يتولى ما أهملوا قوم قد تساعدهم ارادتهم على التقدم بما يستطيعون من فائدة لسواهم. ولا يكلف انسان فى الحياة إلا وسعه.

لهذا رأيت أن أبحث من جوانب حياة قاسم أمين حياته ككاتب ومفكر اجتماعى بحثا تحليليا أظهر فيه صلة رجل قام بحركة فكرية كبيرة فى مصر بمجموع حياة الأمة ومقدار تأثره بهذا المجموع وتأثيره فيه وأبين الأصول التى يمكن أن ترجع إليها الأفكار التى قام بها قاسم والتى كانت من الظواهر الاجتماعيه المحسوسة التى ظهرت فى العصر الأخير فى مصر.

قاسم أمين

٢

من أجل درس رجل من الرجال فيلسوفا كان أو كاتبا أو شاعراً يجب قبل كل شيء تعرف الوسط الذى عاش فيه والحال النفسية الخاصة به حتى يعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة. فإذا تم ذلك تفسر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر إلى حد كبير.

لهـذا نرى للوصول إلى تفـهم أسلوب قـاسم أمين وأفكاره أن نحلل حال الوسط الذى عاش فيه والأوساط الأخرى التى قد تكون أثرت عليه فى حياته ثم نبحث من بعد ذلك حاله النفسية الخاصة به. فإذا تهيأ لنا من ذلك ما أردنا كان لنا أن نحلله ككاتب وأن ننظر فى كتبه من جهه أسلوبها، ومن جهة الأفكار التى وضعت فيها. حينذاك يكون قاسم قد ظهر لنا ككاتب ومفكر ظهورا تاما ونكون فى حل من الحكم على قيمة كتبه وما لها فى الوجود من حق البقاء.

الأوساط التى أحاطت بقاسم

ولد قاسم أمين فى مصر وأقام بها كل حياته إلا سنين قلائل قضاها فى فرنسا. على أن هذه السنين القلائل كانت ذات أثر كبير عليه. ولذلك يجدر بنا أن نحلل الوسط المصرى وأن لا نغفل الوسط الفرنسى. أما سياحاته الأخرى فى بلاد الترك والشام فلم تترك عنده أثرا خاصا ولم تكن أكثر من موضع ملاحظة السائح المار فى ربوع تلك البلاد. ويجدر بنا للوصول إلى نتيجة ما من بحثنا الوسط المصرى أن نعنى به من جهتين، وبتعبير آخر أن ندرس منه نوعين: أولهما الوسط الطبيعى، والثانى الوسط الإجتماعى للعصر الذى عاش فيه قاسم. ذلك بأن الوسط الطبيعى ذو أثر كبير فى الناس الذين يعيشون فيه، وبالأخص فيما يتعلق بخلقهم. والوسط الاجتماعى هو صاحب الأثر الأكبر فى تشكيل أفكارهم.

١ ـ الوسط الطبيعى:

بينا ترى مصر البرزخ الذى يصل بين الغرب والشرق اذا طبيعتها الجغرافية تضعها فى عزلة عن العالم بشكل غريب. فالصحارى تحيط بها شرقا وغربا وجنوبا والبحر المتوسط يحجبها عن بلاد الشمال. ووسط هذه العزلة المنقطعة ينساب نهرها المبارك الغدوات الميمون الروحات يظل واديه طقس متشابه دائم الابتسام وسماء صافية لا تتلبد بجهام وجو معتدل وشمس دائمة وصفو وسكينة. تجوب الوادى من أقصاه إلى أقصاه فلا تقابلك عقبة تحتاج مجهودا لازالتها ولا تثور عليك من ثائرات الطبيعة ريح أو زوبعة أو مطر. بل تراك تسير بين جبلين يقتربان حينا فيحدان الأفق دون مرمى نظرك ويبتعدان أحيانا فلا ترى دون الأفق مما يجلل أرض الوادى إلا النبت النامى والأشجار اليانعة وأسراب الطير السانحة والبارحة.

. وسط هذه المزارع الواسعة ترى الدواب فى سكينة أشبه شىء بسكينة الخلد، وأكثرها من تلك الد اب الهادئة المطمئنة إلى عيش السكون. فالثيران واقفة وسط مزارع البرسيم أيام الشد لا تتحرك من مكانها، والحمر مدلاة رؤوسها الفارغة لا تهتم بأكثر من أن تنال ع ها القريب منها. وقل أن تجد سوى هذين النوعين من أنواع الحيوان الإما قام لزينة ، حابه.

بل أن الحيوانات المستوحشة مما يوجد فى البلاد هى إلى قلتها حيوانات ضعيفة مستسلمة. فتلك الذئاب الضئيلة الضعيفة لا ترى إلا نادرا ولا يسمع أحد لها أنها شنت الغارة يوما على مخلوق مما يعيش قريبا منها. وهاتيك الثعالب المستميتة لا يعلم عنها إلا اعتداؤها أحيانا على بعض منازل الدجاج. وهذان أشد الحيوانات مما يوجد فى مصر حركة وافتراسا. وليس هناك سواهما إلا ما هو دونهما بمراحل فى الضآلة والضعف والاستسلام. حيوانات كلها لا تهيج طائرا ولا تبعث إلى موجود هزة الخوف.

لذلك كان كل شىء مما ترى تظهر عليه هدأة السكون. سكون يخيل لك معه أن هذه الأشياء تائهة فى أحلام مبهمة وخيالات بعيدة. ليس ثمت ما يكدر على شىء منها صفو أحلامه. ليس ثمت ما يمنع الصرصار من أن يستمر فى صفيره ولا ما يقطع على الضفدع نقيقه ثمانية أشهر فى السنة، وليس ثمت ما يزعج الحمر عن مرابطها من قيظ محرف أو قر مخيف. ليس ثمت ثلج يترك الأشجار مدة الشتاء عابسة قاتمة. ليس ثمت تلك الاختلافات التى تجىء بها الطبيعة فى بعض البلاد فتغير وجهها ما بين فصل وفصل وتغير لذلك معالم كل الموجودات التى عليها. وليس ثمت تلك الحواجز الطبيعية التى تستثير فى كل مخلوق حب الاستطلاع أو تستدعى منه صرف المجهودللتغلب عليها.

وليس هذا السكون الذى ترى سكون الصحراء البلقع المقفرة. بل أن ذلك الوادى المفرد فى عزلته هو مستقر النضرة والنعيم. فنهره الفياض يجود عليه كل عام بماء الحياة ويجعل من أرضه روضة يانعة كلها الخصب والثروة.

ولقد بلغ من ذلك حتى ذهب الأقدمون إلى أن النهر يستمد ماءه الغنى من ينابيع الجنان وأن الوادى قطعة من رياض الجنة. وتفننوا فى تصوير ذلك ما شاء لهم الخيال المتدفق الذى يتغنى بكل موجود على ضفاف النهر.

وعلى الرغم من هذه الثروة التى يجود بها النهر على وادية ترى حكم الطبيعة المتشابهة الساكنة على كل ما فى الوادى حكما قاسيا يخضع كل شيء لشدته. فأنك تمر وسط الحدائق والمزارع والمروج بقرى كلها من اللبن متضائلة تائهة فى سكون الوادى كأنها بأكواخها الترابية اللون آثار بالية مما خلف الماضى. أو هى أوجرة وأوكار لتلك الحيوانات الضئيلة المستسلمة. فإذا ما دخلت أحدها صدق الواقع ظنك فوجدت نفسك فى غرف مظلمة لا يجد النور إليها سبيلا إلا كرها. ثم إذا أضاءها أصحابها ليطلعوك على ما فيها جاءوك بمصباح قذر قليل النور فرأيت على شعاعه جدرانها السوداء العارية وأرضا ربما غطاها فرش من الحصير أو القش. وهناك عند أحد الأركان معلقة جريدة من سعف النخل تحمل كل ما فى الدار من فرش ودثر وما لأصحابها من ملابس وأردية. وإن أنت عثرت فى بعض القرى بمنزل ذى نوافذ وفى نوافذه زجاج كان ذلك دليل ما عند أهله من سعة ويسار غير عاديين. على أن هذا اليسار لا يحمل أحدهم ليدخل من مواد الترف إلى داره مايثور على الطبيعة القانعة المستسلمة.

وفى هذا الوسط الخالد إلى السكينة يجد الضيف النازل رحبا وسعة. ولا يمر بخاطر موجود ممن فى الوادى أن يحسب فيه منافسا أو مضايقا.

رزق الوادى يسعه ويسع غيره معه. وكل ما يطلب إليه أن لا يبالغ فى الأذى وأن لا يزعج موجودا عما هو فيه من أحلامه وسكنته. للتمساح إذا دخل فى النهر أن

يعيش مما يصل إليه من رزق. له أن يأكل ما ضعف عنه من الأسماك. ولكن عليه إلى جانب ذلك أن لا يثير في البر أو في الجو الفساد.

عليه أن يترك القوارب تخطر فوق مياه النيل كما تشاء.

عليه أن لا يخرج إلى حيث الناس والدواب فيقلقها عن مرافقها. فإن هو لم يفعل ذلك استعدى كل من في الوادى الآلهة واستعانوا عليه بما قد يبعث أذاه إلى نفوسهم من الحركة والهياج ضده. والآلهة وأكبرها الطبيعة ضمينة أن تخرج هذا الضيف الذى لا يلائمها من ملكوتها ملكوت الحياة المطمئنة الساكنة.

فقد جاء في التاريخ أن النيل قذف أكثر من مرة بالتماسيح إلى شاطئه ونزل عنها وتركها وسط الرمال في جو لا يلائمها فذهبت ضحية مقامها في وسط غير وسطها.

وجاء أن بعض السباع عدا على البلاد فخانة الوسط الطبيعى ولم يجد لنجاته سبيلا إلا الرحيل. وكل ما بقى من الضيفان من خضع للجو المحيط به ونزل عن كثير من أخلاقه ورضى بالعيش الذى يكرهه عليه ما حوله من المجاورات.. أو على الأقل تصنع هذا الرضا والخضوع.

وهذا الوسط هو الذى أحاط بمن نزل وادى النيل من قرون القرون وهو الذى خلق الموجودات والناس ممن عاشوا فيه. ولم يؤثر فيه الناس ولا الموجودات إلا أقل الأثر.

فماذا عسى تكون الخلائق التى أوجدها وماذا عسى يكون أثره فيهم؟

ب ـ الوسط الاجتماعى:

لسكان وادى النيل مميزات خاصة امتازوا بها منذ القدم. مميزات فى أنظمتهم الجسمية ومثلها فى أنظمتهم الأخلاقية والعقلية وكلها خلق ذلك الوسط الطبيعى الذى يعيشون فيه. فكما أن طقس بلادهم طقس هادىء دائم السكينة قليل الغير؛

كذلك تلمح فى وجوههم أثر السكينة الهادئة المطمئنة، وتلاحظ فى أخلاقهم الاستسلام والعيش فى الحاضر، وترى فى تفكيرهم خلودا للماضى وعدم ميل للتغير. هم يعيشون على نحو ما عاش آباؤهم خلا أمانى تجول برأسهم قد يتغنون بها أحيانا إذا ساعدهم الوقت على التغنى، كما يتنغى الطائر ما دام الصيف وما أسعده الدفء، فإذا جاء الشتاء أسكته.

كذلك إذا تغيرت الظروف انكمش المصريون ونسوا أغنياتهم ورجعوا إلى عيشهم الأول مكتفين من الحياة بحرث الأرض وبانتاج مواد الرزق وما تستلزم المعيشة.

وهذا هو سبب ما نرى فى التاريخ من تقلب الولاة والحكام الاجانب على هذه الديار من غير أن يدفع أهلها لمناوأة حاكم ملكهم دافع. بل لقد بقيت الأسر الفرعونية تتوالى واحدة بعد أخرى وليس من بينها أحد من سكان الوادى الصميمين. وهؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن التفكير فى اسقاط أسرة أو الطمع فى الاستيلاء على العرش. ويبقى الحاكم متربعا فى دسته آخذا بيده النهى والأمر حتى يجىء سواه من جنسه أو من جنس آخر فيستعين عليه بالقوة أو بالدهاء حتى يسقطه ويأخذ الحكم مكانه. والمصريون ينظرون لذلك كله بعين مطمئنة وقلب ان جالت به بعض الوساوس فإنها لا تخرج إلى أكثر من الهمس الذى يزول يوم ينكشف النزاع بين المتجادلين. وأى منهما غلب كان صاحب الحكم الحق على عرش وادى النيل وصاحب الرعاية على سكانه.

وعجيبة قوة الوسط الطبيعى للوادى فى اخضاع من يقيم فيه لسلطتها. فلا يلبث الحاكم القديم أن يتدرك إلى ملابسة الناس من أهل الوادى ومخالطتهم والعيش بينهم حتى تداخله وتداخل أبناءه الأخلاق الخاصة التى امتازت بها الطبيعة. فهو سرعان ما يميل إلى الاستسلام للطمأنينة والأخذ فى طريق الحياة الساكنة القانعة من العيش بما تنبت الأرض وبما يرزق الله. لهذا لم نر أسرة من الأسر بعد إذ غلبت

على أمرها كونت لنفسها حزبا تناوش به من بزها عرشها سعيا وراء استرجاع ذلك العرش اللهم الا فى ظروف نادرة ولوقت قصير.

ولقد كان من أثر هذه العوامل الرئيسية أن زادت فى ذلك الاستسلام الطبيعى الموجود فى النفس المصرية. فاصطبغ كل ما دخل إليها من الأخلاق والعقائد بصبغته وأصبحت قواعد الأديان التى توالت على أرض مصر مرتكزة على أساس الجبرية والايمان كما امتازت الأخلاق المصرية بالسكون إلى حكم القضاء. ولم يكن من صالح الحكام المتعاقبين تغير شيء من ذلك كله فانغرست تلك الصفات وتأصلت ووصلت إلى حد الجمود.

لذلك كله كان واجب المصلحين فى هذه الديار أشق وأتعس ما يتصور.

كان قاسم أمين والوسط الذى عاش فيه تحكمه كل هذه الصفات. ولكن كان إلى جانبه حركة اجتماعية جديدة قامت على أثر الحركات المتوالية التى تعاقبت على مصر فى القرن الأخير. حركة حرة قامت على أساس فكرة الاصلاح متأثرة بما حصل فى البلاد فى سنتى ١٨٧٦ و ١٨٨٢ وبما عقب ذلك من أوجه الاصلاح الاقتصادى والنهضة الشابة العلمية التى أخذتها بيدها حكومة ذلك الوقت. وأعان هذه الحركة الاصلاحية الحرة على البقاء والتقدم المركز الخاص الذى وجدت فيه مصر بعد سنة ١٨٨٣ والذى أدى لوجود حكم البلاد فى يدين متنافستين تنافسا سمح بازدياد الحرية الفردية وترك للأمة أن تبدى على الملأ ما كان يجول بخاطرها من الأمانى متأثرة فى ذلك بما ورد إليها من نظريات الغرب الذى كان قد بدأ يهتم لها أهتماما خاصا لما خلقه لها قنال السويس من المركز الخاص.

لكن هذه الحركة الجديدة كانت قاصرة عن أن تمتد إلى جوف البلاد. بل كانت لا تزال متركزة فى العاصمة ولا يصل منها إلى بعض المدن إلا صدى لا يؤديها بشكل مضبوط ولا يترك منها فى نفوس أهل تلك المدن إلا أثرا ضعيفا هو

أشبه شيء بما يتركه الحلم في وهم الحالم بعد يقظته. كما أنها كانت لاتزال مترددة لم تختط لنفسها طريقا معينا ولا هى تحددت بحدود خاصة إلا فى نفوس بعض الرؤساء القائمين بها.

ولما كانت متركزة فى العاصمة كانت كل ملاحظاتها وكل أطماعها وكل الأغراض التى ترمى إليها مأخوذة من نوع حياة العاصمة وموجهة إلى اصلاح هذا النوع من الحياة. ومن شأن العواصم أن تعزو ما تراه بين جدرانها من الخير والشر وما تتوهم فى ربوع البلاد من بر وفقر الى عمل الحكومة والى نظامها. لذلك كانت حركات العواصم متطلعة أغلب الأحيان الى الناحية السياسية. وفى حركة العاصمة المصرية فى سنة ١٨٨٢ شيء من هذا المعنى. لكن ما قدمنا من صفات أوجدتها الظروف الطبيعية والسياسية فى الشعب المصرى كان من شأنه أن يضعف عزم كل مصلح يريد الدعوة للانقلاب السياسى ويدعوه للتفكير فى البدء بالإصلاح الاجتماعى. هذا فضلا عن أن قوى خارجية كانت تحول بين السياسى وبين نجاح الدعوة للانقلاب. لهذا كانت الحركة الحرة التى نشأت عند نشأة قاسم أمين مضطرة إلى أن تهتم بالاصلاح الاجتماعى قبل كل شيء.

ولما كانت هذه الحركات ترمى إلى شيء من التجديد فى طرق العمل والتفكير والاعتقاد كانت المعارضة القائمة فى وجهها غاية فى الشدة. فلم يكن قوامها إلا المركز الممتاز الذى كان للقائمين بها. ولولا مثابرة هؤلاء الرؤساء وما لقوا من التعضيد من بعض الجهات التى كانت تهتم بأن تبقى الحركات الاصلاحية اجتماعية كلها لماتت تلك الحركات فى مهدها.

وكان من الحركات الاصلاحية الأخرى التى قامت إلى جانب هذه الأولى حركات ذات وجهة سياسية اعتمدت فى انتشارها على سعى الرأى العام لمثل المبادىء التى كانت تنادى بها. وقد لقيت هذه الحركات نجاحا وانتشارا كبيرا فى

العاصمة. لكنها اندفعت إلى مقاومة حركة الاصلاح الاجتماعى فى بعض ما كانت ترمى إليه مقاومة ذات قيمة.

ولقد ساعد تلك المقاومة أن هذه الأحزاب كانت تناصر المبادىء الجامدة التى توارثتها الأمة وتحبذها، على حين كان أهم ما ترمى اليه حركة الاصلاح الإجتماعى زحزحة الأمة عن مركزها الجامد وادخال نوع من التفكير الحر إلى نفسها كى تستعين به على التحلل من بعض العادات والأنظمة. أى أن هذه الحركة كانت احتجاجا ناطقا على هذا الجمود وصيحة عالية فى وجهه.

* * *

وكان مما وجه إليه بعض المصلحين نظرهم بوجه خاص ما كانت عليه الأمة ـ ولا تزال ـ من الوقوف فى الدين عند تفاسير قديمة رأى أولئك المصلحون أنها لا توافق روح العصر الذى يعيشون فيه من جهة، وليست ضربة لازب ولا ضرورة من ضرورات الدين من جهة أخرى. فرأو من الواجب الأخذ بغير هذه الآراء والتحلل من قيودها ونبذ ما ترتب عليها من المفاسد التى تراكمت بعضها فوق بعض مع الزمن وأصبحت فى اعتبارهم علة من العلل التى أصابت الدين وهو منها برىء. وكان على رأس هذه الحركة الشيخ محمد عبده.

ولا شك أن هذا الباب من أبواب الاصلاح كان يومئذ الأساس لكل ما سواه. لأن الفكرة الدينية كانت وحدها المتسلطة على عقائد الناس وأخلاقهم وأنظمتهم ومعاملاتهم تسلطا مطلقا لا يفكر أحد فى أية وسيلة للتحلل منه ولو فى أضعف الحدود. ومن أجل ذلك سمح المصلحون الدينيون لأنفسهم أن يجوسوا خلال كل أنواع الاصلاح. فكانوا يتقدمون بالرأى فى الحال الاقتصادية وفى الحال الأخلاقية وفى الحال الاجتماعية. ولم تكن إلا الحال السياسية هى التى أغلق بابها دونهم لأنها لم تكن فى يد الأمة كما أن أصحابها لم يكونوا ليتهاونوا فى أمرها أو ليدعوا لغيرهم أن يبدى فيها رأيا.

ولقد وجه رئيس الحركة الاصلاحية المرحوم الشيخ محمد عبده همه الأول إلى تصفية الدين مما يعتقده الناس من الترهات التي ألصقت به. وكان مثله في ذلك مثل لوثر وكلفن وغيرهما من المصلحين الذين قاموا بالحركة الدينية في أوربا في القرن السادس عشر. أى أنه جعل العقل مقياس الدين، فكل ما لم يتفق مع العقل من تفاسير السابقين هو يعتبره دخيلا لا يستحق البقاء ويجب أن يقوم مجتهد يحل غيره محله. وكان أكبر همه من ذلك موجها لما يختص بالعقائد. لذلك تراه أصدق ما يكون حملة على مسائل الأولياء والنذور وأمثال هذه الطقوس مما هو دخيل على الإيمان بالإله في رأيه. أما ما كان متعلقا بالأنظمة الاجتماعية والأقتصادية فلم يكن صاحب نشاط فيه وان كان صاحب رأى. ورأية إنما كان أغلب الأحيان أثرا من اثار مركزه. فقد كان يصدره كفتاوى فيما تطلب منه الحكومة الفتوى فيه وفيما يعرض عليه من غير الحكومة.

ولقد كان لهذه الحركة التي قام بها الشيخ محمد عبده في وقته من القوة ما لم يكن سهل الاحتمال عند الأمة لولا الظروف الخاصة التي كان فيها الشيخ المفتي. فقد كان صاحب الافتاء في البلاد. كما أنه كان باطلاعه الواسع وبحسن فهمه للظروف المحيطة به وبتوفيقه ما بين العلم الشرقي والعلم الغربي صاحب مكانة لم تتهيأ لغيره من المصلحين. مكانة سمحت له أن ينفث روحه في الصحافة ويؤثر بذلك في الرأى العام.

لكن المصريين كانوا مع ذلك أنصار القديم إلا الأقلين منهم كانوا أنصار الطمأنينة للحياة والسكون للماضي والاستسلام للحاضر وعدم الميل لجديد. بل إن كثيرين من الأقلية لم يناصروا الشيخ محمد عبده ومدرسته إلا لغرض في نفوسهم. فقد كانوا يرون أن هذه المدرسة تتصل بالسلطة الحاكمة وتقدر بذلك على أفادتهم فائدة مادية. لهذا ما لبث الشيخ محمد عبده أن وافاه الأجل المحتوم حتى ابتدأ عقد

مدرسته ينفرط، وإن بقيت آثاره فى نفوس جماعة الذين لم ينقطعوا للعمل الدينى. وبهذه الآثار استطاعوا أن يجعلوا الأمة تسيغ من مبادئهم الحديثة ما لم يكن فى وسعها أن تسيغة من قبل. لكن هذه الهوادة فى قبول الأفكار لم تجىء إلا بعد زمن طويل وفى ظروف غير التى كان فيها قاسم. لم تجىء إلا بعد قيام نهضة غير مستمدة من الدين كان قاسم من السابقين إليها والذين لم يتمتعوا بثمارها.

وفى هذا الوسط الاجتماعى ظهرت أفكار قاسم فاضطرت أن تأخذ صبغته إلى حد كبير لولا نزعات كانت ترجع إلى ما أفاده الكاتب من فرنسا وإلى حاله النفسية الخاصة. وقويت هذه النزعات عنده فى الكتب التى وضع آخرا ـ المرأة الجديدة والكلمات. ولو أنه عاش بعد ذلك طويلا لزادت قوة ولكانت من أقوى العوامل فى مساعدة الروح الشابة الحاضرة، روح التجْديد.

ج ـ الوسط الفرنسى:

قضى قاسم أمين سنى دراسته العالية فى فرنسا. وككل شاب يتاح له المقام فى إحدى ممالك أوربا زمنا غير قصير تأثر قاسم بما رأى فى تلك البلاد، وتأثر أكثر من سواه، وكان تأثره بنوع خاص من جهتى الاحساس والتفكير، وترك ذلك فى حياته الخاصة وفى مظاهره العامة أثرا غير قليل. لذلك يجدر بنا أن نستظهر قدر الطاقة نوع الوسط ومميزاته حتى يتسنى لنا تتبع قاسم ككاتب ومفكر.

ولسنا ندعى امكان الاحاطة بمميزات الوسط الفرنسى فى هذه الكلمة القصيرة. فإن مثل هذا الدرس تحوجه مؤلفات طويلة. لكنا أنما نريد أن نضع أمام النظر الجهات الخاصة منه التى تأخذ بذهن الشاب الشرقى الذى يقصد إلى تلك البلاد ليفيد منها العلم والنظر. وربما وصلنا إلى ما يساعدنا على تحليل أسلوب قاسم وكتبه وأفكاره وعقيدته..

تقابل الناظر فى فرنسا طبيعة جديدة جميلة لم يعرفها فى مصر ولم يتذوقها إلا من طريق الخيال. تقابله جبال وغابات وغياض وحدائق يأخذ جمالها بالنظر ويسترعى اللب والفؤاد. وتقابله كذلك مبان فخمة بديعة النظام فيها غير المعنى التاريخى الذى ألفناه فى مبانينا التى وجدت على التاريخ قبل أن يوجد التاريخ معنى الاتساق والتوازن. وفى كثير من هذه المبانى يجد التماثيل والنقوش والصور وكلها مثل الجمال على مختلف أنواعه. فلا يلبث أن يرى ذلك كله حتى تأخذه نشوة تدعوه إلى تكرار النظر إليه الإستزادة منه. فهو يذهب المرة تلو المرة إلى قصر اللوفر الفخيم يشاهد فيه أبدع الصور وأدق التماثيل مما خلف اليونان والرومان والهولنديون والإيطاليون وأهل الأمم ذات المدنية والحضارة. ويتردد إلى غاب بولونيا يشاهد فيه أبهى مناظر الطبيعة من بحيرات وأشجار، وارق مظاهر المدينة من جياد مطهمة وسيارات بديعة تحمل الحى زاد نفسه جمالا بدقة ذوقة فى نوع لباسه وكيفيه ابتسامه وما يشف عن رقة طبعه. ويعود بعد ذلك مارا بقصور الإليزيه وبميدان الكونكورد وبحدائق التويلرى وبما فى ذلك من مختلف صور الجمال الصامت والناطق. ثم هو يخرج أيام الآحاد إلى الضواحى فتقابله الجبال الصغيرة والأنهار والغياض. فإذا تغلغل فى أحشاء فرنسا إلى الأوفرن سحرته عن نفسه ببديع جمالها تلك الجبال المنيعة الرفيعة تجلل هاماتها الثلوج وتغطى سفوحها الأشجار وتنساب فى أخاديدها المياه دائمة الخرير ويتوجها كل مساء مغرب الشمس الباهر.

وهو فى حل ما دام فى فرنسا من أن يرى جديدا من هذه المناظر الطبيعية والمدنية متى شاء. أمامه غير قصر اللوفر متاحف لا يحصيها العد وغير حدائق التويلرى وغاب وبولونيا حدائق وغابات لا تنتهى وغير الأوفرن جهات الرفييرا والتيرول وسواهما. وكل هذه المتاحف والحدائق والغابات والنواحى تحوى من الجمال ما يدعو إليه ويحبب فيه. كلها الشعر الناطق بآى الحكمة والبهاء والرواء.

تسترعى هذه الأشياء كلها نظر النازل فرنسا وتفتح أمامه عالما جديدا لم يجل قط من قبل في تصوره وتدعوه بذلك للاستزادة ما استطاع مما حولها. فيقصد مسارح التمثيل يرى فيها أثر الفكر الإنسانى مجسما متنوعا كما يرى التفنن فى حسن الذوق حين يجيل بصره فى صالات التياترو المزدحمة أثناء هدنات ما بين الفصول بالمتفرجين. ويذهب إلى ملاعب الموسيقى فتأخذ بسمعه نغمات جديدة مملؤة بالحياة والقوة مختلفة جد الاختلاف عن نغمات موسيقانا المستسلمة الشاكية. قد لا تطربه هذه النغمات بادىء الأمر، ولكنه يرى فيها معنى خاصا غير الذى ألفه فى الموسيقى الشرقية. يراها أغلب الأحيان موسيقى عصبية يهزها الفرح أو يخرجها عن طوقها الحزن. فاذا انبعث عنها الوجد والشكوى لم تدم على ذلك إلا ريثما تصور المدنف الواله وسط الحركة الشديدة؛ حركة المدنية الحاضرة.

ثم يرى فيما حول ذلك المتاجر والمصانع كلها النشاط والحركة، ويحس فى كل مخلوق مما على أرض هاته البلاد أنه يحب الحياة حبا حقيقيا ويرى فيها مواضع للفائدة واللذة يمكنه الوصول اليها متى أراد. ولن يكون ذلك بالاستسلام ولا بالطمأنينة للحاضر ولكن بالجد والعمل. فكل يجد ويعمل يريد أن يسخر كل ما على الطبيعة لفائدته ولذته. هذه هى النواحى الظاهرة التى تأخذ بنظر النازل فرنسا.

فإذا هو تعمق فى تعرف شئون الفرنسويين إلى أكثر من المنظر الظاهر؛ إذا هو بحث أنواع حياتهم ومبلغ احساسهم وأوجه التفكير عندهم مستعينا فى تفسير ذلك كله بما رأى تبدت له صور واحساسات وأفكار وأنظمة أكثر أخذا باللب وأوقع فى النفس مما رأى قبل ذلك. الأسرة وليست هى مجرد ذلك القطيع الإنسانى لا يجمعه أكثر من الروابط الطبيعية روابط الأبوة والبنوة تحت إمرة الأب، ولكنها شركة انسانية أساسها تبادل الأحساس الخالص والزيادة فى سعادة الفرد من طريق الاجتماع وخلق الأبناء والقيام عليهم ليكونوا فى مستقبلهم رجالا أحرار أو سيدات يعرفن معنى الحرية ويقدسن الواجب.

وتبدت له إحساسات دقيقة رقيقة قوية عنها صدرت تلك الموسيقى العصبية الحرة وهاته النقوش والصور البديعة المملوءة حياة ونظاما ومعنى، وتلك الروايات المملؤة بالشعر، والفكر؛ وعنها تصدر كل جلائل الأعمال التى يرى فى تلك البلاد.

وبدا له إلى جانب هذه الاحساسات وآخذا بيدها فكر دقيق مصقول هو مصدر فلسفة طويلة عريضة لم تترك نقطة من نقط الأخلاق أو العقائد أو الأديان إلا حققتها وحللتها ووصلت فيها إلى مختلف النتائج.

وليست هذه الفلسفة استسلام وتواكل. بل هى الأخرى فلسفة قوية مبناها احترام الجنس الانسانى وكل ما ينتج، لا تعرف تقديس الماضى ولا الخضوع له. بل هى تأخذ كل ذرة من ذراته فتحللها وتبحث عن مصدرها وأصلها وطرق نموها والنتائج التى انبنت عليها ثم تبحث عن قيمتها وحقها من البقاء فإن لم ترها متفقة مع العقل أو رأتها عقيمة النتيجة طرحتها جانبا.

لذلك لم تذر الاعتقادات دون النقد المر ولم تترك الديانات ولا أساساها إلا بعد اذ هدمت منها جانبا غير قليل. وقد سارت فى هذا الطريق أزمانا طويلة حتى كانت مسألة عدم التدين فى العصر الذى نزل فيه قاسم أرض فرنسا مسألة مفروغ منها بعد ما استنفدت من الكتب الفلسفية ومن كتب الشعر والأدب آلاف الصحائف.

وكان من أثر هذه الفلسفة اللادينية أن بثت فى الشعور العام فكرة جديدة عن الأخلاق وعن المعاملات وعن طرائق النظر عامة. فصارت فرنسا المفكرة تعمل لبناء عمرانها الإجتماعى على أساس من العقل والعلم البحث؛ وصارت فرنسا المتصلة بهذه الأولى ـ أقصد بذلك شعب المدن ـ بعيدة عن أن تدين بالأفكار القديمة أفكار الزهد والتقشف. بل آمنت بالأفكار الاقتصادية المنادية بوجوب السعادة فى هذه الحياة الدنيا.

ولقد كانت هذه الطوائف جميعا قائمة بهذه المبادىء بنفس الحدةوالقوة التى قام بها أهل العصور السالفة لنصرة الدين. فكأن هذه الأفكار العلمية البحتة كانت ترمى لتأخذ صبغة إيمان جديد يحل محل الإيمان القديم ويطالب أنصاره بتعزيزه بمبلغ ما عزز الدينيون إيمانهم الأول.

لكنما كانت هذه المبادىء الجديدة لا تزال فى تشعبها لم تتركز ولم تصل إلى حد الايمان فعلا. كان كل صاحب رأى يجاهد لاعلاء أمره جهاد صاحب الدعوة. لكن أصحاب الدعوات المختلفة كانوا جميعا من التحمس بحيث لم يصل أحد منهم ليبلغ بدعوته من النفوس مايجعلها دينا جديدا يحل محل الدين الذى هدمه فولتير ورينان وتين ومن عاصر كلا منهم من الفلاسفة.

هذه الحركة الفكرية القوية فى ذلك الشعب الحى وسط تلك الطبيعة الناطقة المتحركة، وهذه المظاهر الفنية من نقوش وتماثيل وروايات وموسيقى، وتلك العواطف الشديدة التى تحرك النفوس – ذلك كله هو أول ما يأخذ بنظر الأجنبى المقيم فى فرنسا – وذلك كله هو أساس مدنية الغرب.

فى هذا الوسط أقام قاسم أمين زمنا من حياته وتأثر به أكبر الأثر. وتأثر به إلى حد تدثرت معه صفات وملكات مما يستلزم الوسط المصرى المستسلم الساكن. وظهر هذا الأثر فى حالته النفسية وفى أخلاقه وفى كتبه وعقائده إلى حد كبير.

الرجـــــل

لم تتح لى معرفة قاسم أمين على قرب عهدنا به. وكل ما كنت أعرفه عنه مظاهره فى الحياة ككاتب وكقاض. على أن هذه المظاهر كفت لتحل الرجل من نفسى مكانا جمع بين الاجلال والمحبة. فلما وافته منيته فى سنة ١٩٠٨ شيعته إلى مقر رفاته وفى القلب لوعة حزن وأسى وحسرة.

لكن انعام النظر فى صورة الرجل والتدقيق فى ماكتب وفى ما ذكره عنه من عرفوه ومقارنة ذلك كله بعضه ببعض تحيى فى النفس منه صورة مضبوطة تجعله أمام المخيلة حيا جالسا فى هدأته العصبية الحزينة تؤثر فيه الحوادث جميعها دقيقها وجليلها من جهات العواطف والاحساس أولا ومن جهة الفكر المنطقى البحت بعد ذلك وتستدعى منه ملاحظات عصبية هى الأخرى ولكنها بعيدة عن ذلك التهيج الذى يلزم فى أحيان كثيرة جماعة الكتاب العاطفيين. فاذا هو توترت أعصابه أمام تكرر المشاهد والمناظر وأمام جمود المحيطين به دون التأثر بما يراه هو ويلاحظه ترك الناس إلى وحدته آملا أن يجد فيها من الطمأنينة والسكون مايرد إليه هدأته، وكذلك تبقى هاته الحال العصبية تتناوبه حتى تدفعه ليكتب أجمل ما فى كتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» وليحفظ فى أوراقه الخاصة بعض كلمات بديعة أظهرتها الظروف بعد وفاته.

وكانت هذه الحال العصبية المحتوية نفسها مرتبة حياته الخاصة كما كانت مصدر أعماله جميعا. كانت منبع سعادته ولذته وأمله وسبب آلامه ومتاعبه ومصدر كتاباته وأفكاره وأساس أحكامه وقضائه. فكأنما كانت أعصابه أوتارا تتأثر بملامسة الحوادث تأثرا سريعا ينقل إلى نفسه الاحساسات المختلفة وينقل إلى الخارج مظاهر هذه الاحساسات على النظام الذى تعطيها اياه قوة ملاحظته الحادة الدقيقة.

عاش قاسم أمين حياة لم يتخللها حادث غير عادى يجعل لها صبغة غير مألوفة. دخل المدارس فى مصر ثم سافر مع ارسالية الحكومة إلى فرنسا فلما عاد منها اشتغل فى وظائف قضائية انتهت به إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف الأهلية. وبقى فى هذا المنصب حتى آخر حياته.

لكنه مع ذلك لم يكن الشخص العادى فى أى طور من هذه الأطوار. فلقد امتاز فى فرنسا بحدة فى الذهن لفتت إليه أساتذته. وانى لأذكر الساعة يوما كنت فيه مع الأستاذ «أرنود» أحد أساتذة كلية الحقوق فى باريس ومال بنا الحديث إلى المصريين

فذكر لى قاسم بشيء من الاعجاب ملأنى كمصرى غبطة، وكمعجب بقاسم سرورا أن شاركنى فى احساسى عالم كبير. كما أنه امتاز فى القضاء بحسن ذوق غير متعارف وبدقة فى التقدير أكسبته ثقة زملائه وعطفهم. كذلك لم يشاركه فى حياة مصر العامة مشارك. لم يقم معه قائم بمبدأ جديد بتلك الثقة بالنفس وهذه القوة فى العقيدة. وهذا الامتياز فى درجات الحياة التى مر بها راجع إلى حالته النفسية. إلى تلك الحال العصبية الحساسة.

فلم تكن تقابله مسألة مهما تكن من البساطة الا تأثر بها وارتسمت فى مخيلته واستدعت منه النظر والفكر واهتزت نفسه لها. فتلك امرأة محجوبة تسير فى شارع الدواوين مبرقعة كما يسير آلاف غيرها. ولكن يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة. فترى عيون قاسم الواسعة تحدق بها، لماذا؟ لأن احساساته تأثرت ونفسه تغيرت أن رآها «تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المسرح، وتخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة واستسلام يجعل مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم». هذا هو أثر حى أمامه من آثار الحجاب الذى يحاربه. وهذه هى الصورة التى يدعى خصومه أنها مثال ذلك النظام الذى وضعته العادة محافظة على العفة. أفلا يرى الناس هاته المرأة أمامهم تكذب كل مايزعمون؟

وتلك بعض الحوادث فى عمل القاضى لاتتفق مع وجدانه وضميره. حوادث يأتيها بعض زملائه لسبب قد يعرفه وقد لايعرفه. قضايا يحكمون فيها أحكاما لا تتفق مع المألوف. فاذا كان لايستطيع أن يعين هذه القضايا فانه يعجز عن أن يسكت نفسه دون أن تصيح :«أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل».

ويتوفى صاحب اللواء وتمر جنازته فى الشوارع ويشهدها قاسم ويرى تلك الجموع الحاشدة التى تسير فيها جامعة مختلف طبقات الأمة وأهالى بلادها المختلفة

مظهرة اتحادا فى الشعور فتهتز أعصابه وتمتلىء بالأمل نفسه المحزونة ويرى أن «الاحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة. هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل».

وكانت هذه الهزات العصبية تترك فى نفسه صورا مضبوطة من الحوادث أو المظاهر التى انتجتها. فالمرأة التى رأى فى شارع الدواوين «طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين فى وسطها حزام جلد مشدود على خصر رفيع.. وعلى وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه تحجب فاها وذقنها حجابا لطيفا شفافا... وتترك الحواجب والجبهة والشعر والرأس إلى منتصف الشعر مكشوفة».

وقد رأى مدة وجودة فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبه على فرقة من العساكر الفرنسوية وهى عائدة من حرب التونكين. «فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظره حتى غاب عنه» أمام هذه الصورة المضبوطة من جاره وحركاته أحس قاسم «أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار فيه جميع الاحساسات التى بعثها فيها ماتربى عليه من حبه حتى خاله رجلا كاملا» وصور غير هاتين كثيرة يمر بها من يقرأ ماكتب قاسم. صور حية ناطقة بما تحوى منبئة باهتزاز روح واضعها وتأثره.

وكان من أثر هذه الحال العصبية الخاصة عنده أن كان على الرغم من دقة ملاحظته ومتانة تفكيره رجل عواطف يحس بالحياة أولا ويحللها ثانيا. لم تكن الحياة ومافيها من مظاهر وموجودات موضوعا خارجا عنه فهو يحلله وينظر فيه بالهدأة التى يشرّح بها الطبيب جثة أمامه يريد أن يعرف ماتحوى، ولكنها كانت روضة يريد أن يسعد بما فيها ويود لو يشاركه فى هذه السعادة أمثاله. لذلك تراه دائم التغنى بمعانى الحب وآثار الجمال داعيا الناس بشوق وشدة يريد منهم أن يسيروا معه ويشاركوه فى المتاع بذلك الجمال وأن يسعدوا أنفسهم بالحب ليكون له بسعادتهم سعادة مضاعفة.

ولذلك تراه شديد المقت لكل مايحول دون هذا المتاع من ظلم أو جهل أوفساد. وهو يمقته بنفس تلك الهزة العصبية التى توجهه فى جميع أفكاره واحساساته. هو لا يريد لبنى آدم ممن حوله أن يعيشوا عيش النبات يشبون ويذبلون ويفنون من غير أن يكون لهم فى ذلك من حظ. ولكنه يريد منهم ولهم عيشا انسانيا ممتلئا، عيشا تهزه العواطف وتملأه الأعمال، عيشا يسمح لهم بورود مناهل السعادة، ويجعل لمجموعهم وللأفراد الممتازين منهم محلا للخلود الشريف.

وظاهر من ذلك أن قاسم لم يكن من مذهب الساخرين من الحياة وأنه كان يرى لها قيمة كبرى ويظنها مجالا للسعادة والنعيم. هو لم يكن يقول لنفسه: مادام الموت هو الغاية العظمى والنتيجة الأخيرة لهذا الوجود المملوء بالمتاعب والآلام فخير الطرق إليه أسرعها وأقلها متاعب وآلاما. ولكنه كان ينظر إلى الموت بعين الخائف الوجل. ويخيل إلى أنه كان يتمنى لو يصدق الظن ويحشر مع أهل الجنة وينجو بذلك من الفناء المخوف الأسود الذى يقول بعضهم أنه ينتظرنا ساعة الموت. ولقد عبر هو نفسه عن هذا الاحساس بكلمة بالغة فى الدقة والابداع قال : «أتعس البرية انسان ضاع ايمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليه شهوتها» تلك كلمة تعبر عن أثر الخوف من موت يقطع كل أمل فى البقاء. تعبر عن احساس نفس تحب الحياة وترجو البقاء فيها وترى أن فيما يحيطنا من أنواع الجمال وفيما يختلج صدورنا من مختلف العواطف وفى ذلك العالم المملوء بما يبهر العين ويأخذ بالقلب ويستدعى الملاحظة ويشحذ الفكر وينبه الاحساس وبالجملة مايبعث إلى النفس السعادة والى الذهن النشاط – ترى فى ذلك مايجعل الحياة حقيقة لذيذة تستحق أن يتمسك بها وأن يسعى لها.

وكل ما كان يؤلم نفس قاسم تلك العقبات التى يجد فى سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة اللذيذة والاستمتاع بها كلها. ويهزه ذلك الألم فيبعثه إلى النظر والسعى فى ازالة هذه العقبات التعسة. ولكن مافى طوقه من ذلك قليل.

فاذا هو شعر بضعفه أمام المجموع وأمام العادة وبعجزه أمام طبيعة الحياة عاوده الغضب حتى يكاد يخرجه عن طوقه. ثم يستطيع لكثير ما درب نفسه أن يسكن ثائرة نفسه أو على الأقل أن يخفيها عمن سواه. وانك لتشعر فى كثير من كلماته التى خلف بعد وفاته بأثر هذه الثورة العصبية المغضبة. أسمعه مثلا حين يقول:

«اذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة ساخطا عليه شديد الرغبة فى سقوطه فاعلم أنه غالبا رجل طاهر وعامل نافع - واذا رأيت الرأى العام معاديا لكاتب وأعد له خصوما يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق - ما هو الرأى العام؟ أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله عدو التغيير - خادم الباطل ومعين الظلم» فمن هو هذا الكاتب الذى عاداه الرأى العام؟ أليس هو قاسم نفسه! ولم كل هذا الغضب؟ لأن الحالة العصبية لاتسمح لنفس صاحبها أن لا يتأثر بالحوادث. وكل ما استطاع قاسم أن يكتم هذا الغضب فى نفسه فلا يظهر عليه سواه. بل انك تراه يعيد الكرة فى جهاده، وكتابته هى هى لم تخرجها ثورة نفسه عن حدها الأول.

وكذلك عاش قاسم مناديا للسعادة طالبا اياها يحدوه الأمل فى الوصول اليها من طريق عواطفه مرة ويتوقعها أخرى من طريق الصداقة والجماعة. ولكنه طول حياته «يجد السآمة غالبا فى الاجتماعات ولا يشعر بها فى الوحدة. يشتاق إلى الناس فاذا اختلط بهم رأى وسمع مايزهده فيهم فيفر منهم ويرجع ملتجئا إلى نفسه فيجد فيها الراحة والسكون». وبكلمة أخرى بقى دائما وكل سعادته فى الحياة منتزعة من أحلامه بالسعادة.

ومات وهو لايزال فى دور جهاده. مات تاركا من بعده أثرا خالدا هو عمله الذى كان لذته الأخيرة الباقية بعد اذ خذلته واحدة بعد أخرى كل ماسواه من اللذات.

ذكرى قاسم أمين [1]

لعل ذكرى الكتاب والمفكرين أجدر من كل ذكرى سواها بالحياة والخلود. ذلك أن الكتاب هم كلمة الحق. وكلمة الحق هى روح الحياة الخالدة، بينا عدوان القوة انما هو رسول الموت المبيد. ذلك شعور تمتلىء به كل نفس ويقره كل انسان. ولذلك ينزوى رجال السيف فى أركان التاريخ أشبه الأشياء بالأشباح المخيفة وكل أثرهم أنهم كانوا فى وجود الانسانية غمامة سوداء انهمرت على سطح الأرض دما وموتا. على حين ترى رجال القلم من شعراء وكتاب وفلاسفة ومفكرين هم الشموس السواطع التى تضىء طريق الانسانية فى سيرها إلى الكمال.

ما نابليون إلى جانب هوجو؟ ومامولتكى إلى جانب جيتى؟ وما ولنجتون إلى جانب شكسبير؟ ما أولئك الا الأجساد البائدة إلى جانب الأرواح الخالدة. أو لم يقل نابليون ان فخره بالقانون المدنى يعدل أضعافا مضاعفة فخره بيينا وأوسترلتز؟ وهلا ترى كل حرب تنتهى تاركة وراءها الخراب والويل ملقية عبء الاصلاح والتنظيم على عاتق العلماء والكتاب والمفكرين؟

---

(١) ملخص خطبة ألقيت فى احتفال بهذه الذكرى أقيم فى شهر ابريل سنة ١٩٢٠ بدار الجامعة المصرية.

فالاحتفال بذكرى رجال الفكر والقلم هو أجمل عمل انسانى يدل على الاعتراف بالجميل لرجال نسوا مصلحتهم الفردية حرصا على مصلحة الجماعة.

وقاسم أمين كان من رجال الفكر والقلم الذين نصروا كلمة الحق. فمن حقه أن تحيا ذكراه وأن يعرف الناس جميعا أفكاره ونزعاته.

* * *

نشأ قاسم أمين فى وقت كانت البلاد فيه تحت أثر الهمود الذى أصابها عقب الحركات العنيفة التى كانت ميدانا لها أيام الخديو اسماعيل وفى أوائل حكم الخديو توفيق. وفى هذا الوقت كان هم الجميع أن يسكنوا إلى الطمأنينة وأن يخلدوا إلى الراحة. لذلك كانت تحل المصائب بالبلاد فتقفل المدارس ويضيق نطاق التفكير وتؤخذ مقاليد الحكم من أيدى الأهلين ويستقبل الناس ذلك بالاستسلام والسكون. وكانوا يظنون أن هذه الحالة لابد ستنتهى بطبيعة الظروف كما انتهت حالات غيرها من قبلها. وماكان يدور بخلدهم أن الأفكار الاستعمارية كانت تتطور لتأخذ شكلا جديدا هو الاستعمار على أساس تمدين الأمم التى يعتبرها المستعمرون فى نظرهم قليلة المدنية.

وظلت الحال كذلك وقاسم يشتغل فى ميادين العمل الحكومى ويدل على مواهب نادرة ولكن من غير أن يظهر فى ميدان الحياة العامة حتى ظهر كتاب الدوق داركور فى سنة ١٨٩٣ عن المصريين. ويرمى هذا الكتاب إلى وصف المصريين بالتأخر فى مدنيتهم وفى تربيتهم وفى تفكيرهم وينعى عليهم حبسهم النساء وتركهم اياهن بعيدات عن العلم ويضع أساسا لذلك كله العقيدة الاسلامية التى يدينون بها، ويرى بالتالى ضرورة تمدين أنصاف المتوحشين هؤلاء على أساس آخر. هنالك أخذت قاسم النخوة وهزته وطنيته أن يدافع عن قومه. وليست حرب الأقلام بأقل مرارة وقسوة من حرب السيوف. فبأقلام كتابها تنصر الأمم مدنياتها. وبأقلامهم ترفع احترام كل

فرد منهم لذاته. وبأقلامهم تكسب أنصارا يقفون إلى جانبها عند الحاجة. وآثار الأقلام هي الخالدة وآثار السيوف الدمار والبوار. فوضع قاسم في سنة ١٨٩٤ كتابه «المصريون» فند به مزاعم الدوق داركور وأظهر فيه فضائل مواطنيه من غير أن ينسى الاعتراف ببعض عيوبهم التي أرجعها لا إلى عقيدتهم كما يزعم داركور وجماعة من الكتّاب معه ولكن إلى توالي الحكومات الفاسدة عليهم. ونشر هذا الكتاب بالفرنسية ليطلع عليه من يقرأ كتاب دار كور فيجد فيه الفضائل المصرية من ذكاء وكرم وقوة وبأس في الحروب مؤيدة بالوقائع والأسماء وعندئذ ينقلب الأثر السيء الذي تركه كتاب الكاتب الفرنسي إلى أثر حسن برد الكاتب المصري المجيد.

كان قاسم رجلا عصبيا حساسا سريع التأثر شديده قوى العاطفة ثابتها لا يسهل أن تتركة اذا ملكته. لذلك لم يطو أوراقه بعد أن نشر هذا الكتاب ولم يعتبر نفسه قد انتهى من القيام بالواجب عليه. بل شعر من يومئذ أن واجبه تضاعف. صحيح أن دوق داركور غالى في مطاعنه على المصريين. وصحيح أنه أخطأ تمام الخطأ في رد سبب التأخر إلى عقيدتهم الدينية. وصحيح أنه اختلق عليهم معايب هم براء منها. لكن هناك في بعض جهات الحياة الاجتماعية نقصا. فالحياة المصرية يومئذ لم تكن الحياة الانسانية الكاملة في نظر قاسم. فما هو موضع الضعف الذي يتغذى منه ذلك النقص؟ موضع الضعف هو لاشك فقد الحرية. فقد الحرية عند الرجل والمرأة. والحرية كما قال قاسم هي قاعدة ترقي النوع الانساني ومعراجه إلى السعادة. لكن فقد الحرية عند المرأة كان أشد خطرا وأفعل أثرا. فلنجاهد أولا اذن لتحرير المرأة.

هذه هي الفكرة التي دعت قاسم لتأليف كتابه تحرير المرأة. ويظهر أنه تردد كثيرا قبل أن ينشره. تردد مخافة الرأي العام الذي كان محافظا متأخرا يومئذ. وكم ثبط هذا التردد من عزائم وكم قتل من أفكار عند شبابنا في الماضي. ولا يزال أثره قويا اليوم. بل كم كان قاسم يكون لولاه أكثر انتاجا وأغزر مادة. وظل في تردده وقتا ليس

بالقصير. لكن الفكرة انقلبت عنده من مجرد رأى يقال إلى عقيدة ثابتة وايمان قوى. والرجل المؤمن لايقف دون الدفاع عن معتقده وان عظمت الحوائل. وهذه الكلمة التى نشرها فى أول كتابه تدل على مبلغ ايمانه بفكرته، قال : «هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى إلى مزاياها وتذكرنى بالحاجة اليها، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر». وعلى أثر ذلك نشر كتابه داعيا فيه إلى تحرير المرأة من رق الجهل ومن رق الحجاب.

وقد تطورت فكرة قاسم أمين نوعا ما فى الفترة التى مرت بين نشره كتابه الأول ردا على الدوق داركور وكتابه الثانى عن تحرير المرأة. وهذا التطور طبيعى لأن موقفه الأول كان غير موقفه الثانى. موقفه الأول كان موقف دفاع عن قومه، وموقفه الثانى كان موقف ارشاد لقومه. لذلك تراه وقد كان فى الحالين فى صف الأحرار لا فى صف المحافظين أكثر مناصرة فى كتابه الثانى لمذهب الأحرار وأكثر اعلاء لشأن الحرية.

تردد قاسم طويلا ثم دفعه ايمانه فأظهر كتابه. وهنا ظهر هذا الرأى العام المحافظ الجامد فى محافظته وانبرى للرد عليه كثيرون لم يقرأوا الكتاب. انبروا وهم لا يقلون فى الحقيقة اعتقادا بالنقص عن قاسم أمين. لكنهم كانوا «يخشون الخروج من وكرهم لتصيد الخيرات الغامضة المبعثرة فى ظلام المستقبل». ليكن هذا الوكر فاسد الهواء، ليكن مملوءاً بالميكروبات القتاله ليكن بحيث تنهمر عليهم من جوانبه الأفاعى والعقارب. لكنهم يخشون الخروج لأنهم يخافون أن يجدوا فى الخارج سباعا وفيلة وهم أجبن وأضعف من أن يتصوروا مقابلة الخطر ولو لم يكن هناك خطر.

تعرض هؤلاء للرد على قاسم فى تحرير المرأة فأظهر كتابه المرأة الجديدة فى سنة

١٩٠٠ ردا عليهم وتأييدا لرأيه. وبعد هذا الكتاب لم تظهر له مؤلفات حتى ظهرت في عالم الطبع كلماته التي نشرت بعد وفاته.

هذه الكتب الأربعة وبعض الخطب هي كل ما تركه قاسم للجمهور. ومما يوجب أكبر الأسف أن تنوء نفس قوية عبقرية كنفس قاسم بحمل الرأى المحافظ وأن يختزل الموت حياته فلا تظهر من آثارها الكتابية والفكرية إلا هذه الصحائف المعدودة.

* * *

في هذه الكتب الأربعة – إلى جانب مافيها من الأفكار – صور كثيرة للمشاهد وللحوادث العامة والخاصة. وهذه الصور مرسومة بدقة مدهشة حتى يكاد الانسان يلمسها بيده في كثير من الأحيان. وأنت تراها مرصودة بعضها تلو بعض كلما أريد التدليل على رأى من الآراء أو نظرية من النظريات. ذلك بأن قاسم كان أميل إلى الاستقراء منه إلى الاستنتاج. كانت تأخذ بنظره الجزئيات فيبحث عن نظائرها ويجاهد ليكون لنفسه رأيا كليا من مجموع هذه الجزئيات. وكان لذلك يحب دائما أن يحلل هذه الجزئيات وأن يقف على دقائقها حتى لاتدعوه الملاحظة السطحية إلى الخطأ. على أنه لم يكن ميالا إلى الأخذ بهذه النتائج التي يرتبها على الجزئيات وإلى ترتيبها والاستنتاج منها هي الأخرى والاستمرار في ذلك لاقامة بناء مذهب فلسفي عام شأن الأشخاص الذى تتغلب عندهم موهبة الفكر المجرد على المواهب الأخرى، مواهب الاحساس والعاطفة والتشكك. بل كان يعتقد «أن عقل الانسان المحدود لايسع غير المحدود وأن علمه القليل لايصل إلى ادراك المجهول الذى لانهاية له. ولذلك ترى هذا الانسان متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا لا فرق في ذلك بين الغبي الجاهل والذكي العالم». هذه هي كلمة قاسم وهي تدل على أنه لم يكن من عشاق النظريات البحتة كما كان يرى «أن المطلق ليس له وجود ذاتي. وأن الذوات الجميلة التي نحبها ونقدسها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد في الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها».

على أن ذلك الاقتصار على الاستقراء فى التفكير لم يكن ليبعده عن النظر فى الوجود العام أو ليصده عن الامعان فى بدائع الكون. بل انك لتجد له فى هذا الباب كلمات أدق مايكون. كلمات صادرة من أعماق قلبه يستجمع لاصدارها إلى جانب فكره الاستقرائى عاطفته القوية واحساسه الشديد. وهل أبدع من هذه الكلمة فى التعبير عن دخيلة نفس صاحبها:

«لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة، العفو عن أكبر خطيئة، العفو عن كل خطيئة.

«هل المخطىء مسئول أو غير مسئول؟ وما هى درجة مسئوليته؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها. لكن حلها يكاد يكون محالا. اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها الأدبى والمادى. والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا. وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على أنه ان لم يكن متولدا عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له فى شرهه وأطماعه وشهواته. خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم. خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية مصادفة سعيدة وعارضا مؤقتا.

«فالخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه. هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان. هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرّمة وذاقا ثمرتها التى يخيل إلى أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما. من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلا بعد جيل. ذلك هو الحمل الثقيل الذى تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقا إلى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب المجهودات.

حتى هذا النزر القليل لاسبيل إلى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر في الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه في المستقبل.

«وأخيرا فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح المذنب. فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لايمكن أن تلين اذا هي عولجت» ... هذه الكلمة ومثيلاتها مما يوجد في كتب قاسم يدل على أنه كان يقف بتفكيراته عند الملاحظة والتجربة والاستقراء أكثر مما تدفعه إلى التفاؤل. صاحبها أكثر ميلا للوحدة والانزواء ليجد الفرصة التي يفكر فيها فيما رأى من الحوادث وليستسلم إلى تيارات عواطفه واحساساته المتأثرة بهذه الحوادث. لأنه ليس من وصل بالعاطفة إلى ملأ الوجود الأعلى.

والنفوس العصبية التي تتأثر بالعاطفة تدفع بصا حبها إلى التشاؤم. أولئك الذين صاغوا لأنفسهم قوالب من التفكير وقفوا عندها وألبـوا عواطفهم ومشاعرهم ثوبها فلا تحيلهم الحوادث مهما عصفت ولاتهز أوتار أفئدتهم المشاهد مهما اشتدت، ليس ماكينة تعمل مادامت تجد الوقود الذي يملأ جوفها ولكنه روح انسانية راقية متصلة بأجزاء العالم المختلفة تتأثر بما يصيب هذه الأجزاء من مختلف الآثار. وهذه النزعات هي ماكان يشاهد في قاسم وماتدل عليه كتاباته. وهي ظاهرة في تقدمة كتابه المرأة الجديدة إلى صديقه سعد زغلول حيث يقول: «فيك وجدت قلبا يحب وعقلا يفكر وارادة تعمل. أنت الذي مثلت لي المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها». فهذا الاعتقاد بأن معظم ما في الحياة شقاء، وهذا الميل الذي يدفعه إلى أن يجد السآمة في المجتمعات ولا يشعر بها في الوحدة، وهذا الألم الذي يشعر به للنقص الذي يجده حوله، واحساسه العصبي العميق؛ هذا كله كان نتيجة سببها تحكم العاطفة في نفس قاسم في كل مايتعلق بمسائل الوجود العام.

ولا عجب فقد كان قاسم ممن يعتقدون بأن العواطف هى التى تسير أعمالنا فى الحياة، وأن العناية بها أثناء الطفولة وتربيتها تربية عالية هى التى ترفع الشخص من المستوى الوضيع الذى لا يهتم فيه الا بمصالح الجسد ليعرف للروح مصالحها ويهتم بغذائها ويجاهد لرفعها وليفهم ضرورة اتصالها بالأرواح الأخرى لفائدة الجماعة ولفائدة الوطن ولفائدة الانسانية. وكان يقول بأن السبب فى التأخر والانحطاط الذى كان يشاهد يومئذ فى بعض بلاد الشرق ليس راجعا فقط إلى توالى الكوارث والمصائب على هذه البلاد. قال : «وانما السبب الحقيقى لفقد الشعور هو اهمال تربية العواطف عندنا فى زمن الطفولة، وتبع ذلك أن أعصابنا أصبحت لا تتأثر الا بالاحساسات المادية التى تقع عليها مباشرة وصارت غير قابلة للتأثر بالمعانى النفسية – رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة من العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين. فلما مر أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه. فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مر أمامه وأثار عنده جميع الاحساسات التى بعثها فيه ماتربى عليه من حبه حتى خلته رجلا كاملا. أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال، فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق. فبمثل هذه المناظر ومايدور فيها وعنها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر. هكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى».

فهذه الحكاية البسيطة مكتوبة بتلك اللغة الرشيقة تبين بوضوح وجلاء طريقة تفكير قاسم وتحكم العاطفة فيه وتأثير احساسه الشديد عليه وعدم ذهابه فى البحث عن مصادر الخلق للتفتيش فى أعمال عظماء الرجال وكبار القادة. بل كفى أن يرى

هذه الحادثة التى تمر أمامنا مثيلاتها كل يوم فلا نلتفت لها ولا نهتم بها لتثير نفسه الحساسة ولتستفز عواطفه وتستوقف عندها تفكيره فيتذكر إلى جانبها مثيلاتها مما مر به ويبنى على ذلك حكمه فى النهاية. وان من قرأ كتبه ليجد فيها جميعا هذه النزعة الميالة إلى البساطة الطبيعية الدالة على عظمة النفس عظمة صحيحة لا تكلف فيها ولا ادعاء.

وفضلا عما تدل عليه هذه الحكاية البسيطة من طريق تفكير قاسم فانها تدل أيضا على أسلوبه فى الكتابة. هذا الأسلوب البسيط السيال الخالى من التكلف والتعمل البعيد عن تصيد الألفاظ من أعماق أقدم القواميس ورصها بعضها إلى جانب بعض كأنها رجم الأحجار يقذف بها كاتبها على القارىء حتى لا يلتفت إلى خلو العبارة التى أمامه من المعنى، وكذلك كان شأن قاسم فى كتابته دائما. كان يضع الصورة أو المعنى بنفسه على أبسط الأشكال بحيث تكاد تفنى الألفاظ دونه. بل تطالبك هذه الألفاظ بأن لا تلتفت إليها هى بالذات بل بالصورة الجميلة أو بالخيال البديع أو بالمعنى الدقيق الذى تحمله اليك. على أنها دائما ألفاظ رقيقة منتقاة موزونة تشعر أثناء قراءتها كأنك سابح فوق موجات الموسيقى الشعرية فاذا فرغت منها طاب لك أن تستعيدها مرة ومرتين وثلاثا لأنك تجد فيها غذاء حقيقيا لنفسك المتشوقة للاختلاط بنفس أخرى عظيمة عندها عزيزة عليها، راقية تميل به إلى التأثر مع الانسانية كلها. وكأن هذه الفترة من حياته التى قضاها بين أظهر الفرنساويين من أهل الثورة الكبرى قوت عنده هذه النزعة الديمقراطية حتى جعلته يرى فى كل ماسواها افتياتا على حقوق الانسان. بل جعلته حين رده على الدوق داركور يذكر ذلك بصراحة ووضوح: قال مانرجمته:

«يظهر أن المسيو داركور ينعى علينا عدم وجود الفوارق الاجتماعية عندنا ويعيبنا لأنناليس من طوائفنا طائفة الأشراف بالمولد أو بغير المولد. وكل السكان الذين

يقيمون فى بلد اسلامى هم متساوون أمام القانون بلا تفرقة بين أجناسهم ودياناتهم. ولم يعرف الاسلام امتيازات الميلاد أو الثروة. وفى هذا هو قد تقدم بأكثر من ألف سنة أشد الأنظمة السياسية الثورية. وذلك ليس عيبا فيما أعتقد. فليس من العدل أو الفائدة فى شيء أن تخلق مصادفة الميلاد مركزا ممتازا. وليس كون الشخص باشا كافيا ليكون ابنه كذلك. بل ليعمل هذا الابن وليجد حتى يستحق بنفسه هذا الشرف أو مايزيد عليه ثم انه لنائله».

فهذه النزعة الديمقراطية فى نفس قاسم هى التى كانت تدفعه ليشعر مع الناس جميعا. هو لم يكن يعرف المظاهر الكاذبة والألقاب الفارغة. لم يكن يهتم بالرجل المترف العائش فى النعيم لترفه ونعيمه ولكنه كان يهتم من كل إنسان رجلا كان أو امرأة بقوة خلقه وبشرف نفسه. كان يكره الضعة والصغار والجبن النفسى لا فرق أن يكون مصدرها القائد العظيم أو الفلاح الحقير ولا فرق أن تظهر فى المواقف الكبيرة أو فى الحالات التافهة. وكان يكره ذلك بميله الفطرى المتأثر بعاطفته الانسانية العالية.

وهذه الحكاية الصغيرة من مشاهدات قاسم تدل دلالة بينة على ماتقدم. قال :

«قبيل الغروب وقف بنا وابور النيل الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان).

أما الأخر فتقدم إليه حاملا فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ثم تركه فى مكانه وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترسا على أطراف قدميه شاخصا إلى الحيوان واقترب منه بطيئا بطيئا ولما وصل إليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب!) وطعنه بالفأس طعنة قوية.

«ولما رأى الشعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به إلى الجسر وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة فاستوقف الأطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلا (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الشعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ومازال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا وهو فى مقدمتهم حاملا فريسته - أليس هذا هو الحال دائما فى جميع مظاهر الحياة الدنيا. ترفع من رجال العمل عن حب الظهور وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها!».

ورقة قاسم فى الشعور والاحساس وهذا الأسلوب البسيط الجميل فى ألفاظه وفى تنسيقه وهذا البعد عن الكلام الحوشى الغريب وهذه الدقة فى نقل الصور النفسية والخارجية تظهر أيضا وبشكل أوضح فى كلمته الآتية عن جنازة المرحوم مصطفى كامل :

«١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى :

«رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات. كان الحزن على جميع الوجوه. حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشىء من الدهشة والذهول. ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة.

«ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان.

«أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

«هذا الاحساس الجديد. هذا المولود الجديد الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة. هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل».

* * *

ليتك عشت ياقاسم حتى كنت ترصد بلغتك الجميلة المتأثرة وباحساسك الدقيق صور الحركات القوية المنبعثة من أعماق نفس هذه الأمة والتى كنت تتوق أن تراها فترصد للخلَف آيات مايفعل أهل هذا الجيل. ولكن المنية فاجأت قاسما وهو لايزال فى ريعان القوة فتركنا تاركا لنا من تفكيره وكتابته أبدع الأثر ممليا علينا أن : اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولاشرف النسب ولا علو المنصب ولا شىء من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ولكن أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم».

توماس وودرو ولسن

أسلم توماس وودرو ولسن روحه أول من أمس، فودع هذا العالم المضطرب الذى جاهد ليكون فيه نبراس هداية للناس، ينقلهم من ظلم الحرب إلى ربوع السلام. فاذا الناس كما كانوا قبل الحرب لايزال يغريهم منظر الدم بالدم، ولا يزالون يفرحون بكلمة الهدى ساعة ليندفعوا فى تيار الضلال دهرا.

مات الدكتور ولسن رئيس الولايات المتحدة السابق، ومن ذا الذى لايعرف الدكتور ولسن! ومن ذا الذى لم يردد اسم الدكتور ولسن! بل من ذا الذى لم ير هذا الضياء العظيم الذى نشره روح ذلك الرجل الكبير، ومن ذا الذى لم يحدق بهذا الضياء ذاهلا معجبا به مأخوذا عن نفسه، فملك عليه الاعجاب كل حسه حتى نسى ضعة الناس وحقارتهم وتعلقهم بتافه شؤونهم وعبادتهم دنىء شهواتهم، وخيل إليه أنهم يستطيعون أن يعتنقوا طفرة مبادىء هذا الرسول الجديد وأن يرتفعوا عن الدنايا وأن يتخطوا هذا العالم الأفن الذى يعيشون فيه إلى عالم جديد هو عالم المحبة والصفاء والسلام.

كلنا نعرف الدكتور ولسن. وكلنا نذكر الساعات التى حدقنا فيها بمبادئه الأربعة عشر ذاهلين مأخوذين. وكلنا لم ننس ما بنى على هذه المبادىء من كبار الأمانى التى لاتزال تهز العالم إلى اليوم هزا. وهل هذا الصراع العنيف القائم بين الشرق

والغرب، وبين الاستعمار وتقرير المصير، وبين الاستعباد والحرية، وبين الظلام والنور؛ هل هذا الصراع العنيف الذى بدأ من يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها والذى سيستمر قائما إلى أن ينتصر النور وأن يعلو الحق - الا أثرا من هذه المبادىء الكبرى التى يحسبها بعضهم اليوم أحلام واهم وماهى بأحلام واهم. وانما هى القوة التى تكونت على القرون شيئا فشيئا واشتركت فى تكوينها الآلام والآمال العامة، والنزعات والأوهام الفردية، وتفكير المفكرين وشعر الشعراء، وكل ما فى النفس الانسانية من قوة وحس وشهوة. ثم اختار القدر هذا الرئيس ولسن ليكون ترجمانها والمعبر عنها.

لم تكن مبادىء ولسن أحلام واهم. فقد قالها ثم سرعان ما آمن الناس بها. ذلك بأنها كانت جوابا لما يتردد فى نفوسهم من نزعات وفكر وآمال وأمان مضطربة. آمنوا بها ثم لم ينفذوها ثم أنكروها ثم قالوا انما تلك أحلام واهم. وكذلك كانت من قبل كل فكرة. تبدأ تأخذ بالنظر. ثم ينكرها الناس ويقفون فى وجهها. ثم يغلون فى الاندفاع وراءها. ثم هم يقدرونها حق قدرها وينظمون حياتهم على هذا القدر الصحيح.

فاذا كان ولسن قد مات فان فكرته باقية وهى لاشك ستنتصر. وسيكون انتصارها فوزا كبيرا للحق وللخير وللسعادة.

* * *

ولد توماس وودرو ولسن فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٦. وكان جده جيمس ولسن من أهل الصتر بارلندة. وقد هاجر إلى أمريكا سنة ١٨٠٧. وفى السنة التى بعدها تزوج من فتاة ارلندية مثله واحترف الصحافة ومات محترما بين أهل بلده الذين كانوا يدعونه القاضى ولسن. وقد أخلف عدة أولاد تزوج أصغرهم واسمه يوسف رابل ولسن من فتاة أيقوسية الاصل تدعى جانت وودرو. ومن هذا الزواج ولد توماس الذى ورث اسم أبويه فصار توماس وودرو ولسن.

وقد ورث توماس من أبويه ما يمتاز به الارلنديون من الظرف والايقوسيون من البلاغة وجمال الخطاب. وكان ميله للتحرير واضحا من أول نشأته. فاشترك وهو فى الحادية والعشرين من سنه مع جماعة من أصحابه الطلبة بجامعة برنستن فى اصدار مجلة انفرد هو بادارتها بعد عام من صدورها. وفى هذه المجلة ظهر ميلة للتحرير السياسى.

وقد تأثرت حياته منذ نعومة أظفاره بما مرت به بلاده من المحن السياسية. فقد ظلت حرب الانفصال بين جنوب أمريكا وشمالها قائمة من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ ، وانتهت بانتصار الشمال وببقاء الوحدة الأمريكية بفضل ما أبداه ابراهام لنكن رئيس الولايات المتحدة من حزم ونفاذ بصيرة. وكان توماس متأثرا بهذه الأحداث فى طفولته. فلما آن له أن يقرأ وأن يفكر اتجهت قراءته للناحية السياسية كما رأيت. وظل بعد اذ أصدر مجلته يتابع أبحاثه ثلاث سنوات وضع بعدها كتابا عنوانه (الحكومة – مبادىء السياسة التاريخية والعملية) وقد جاء فى هذا الكتاب فكرة من أفكار ولسن السياسية عن الحكومة كانت هى الفكرة الأساسية التى سار عليها والتى ظهرت من بعد ذلك فى مبادئه العامة التى أراد – كما قال فى غير خطبة من خطبه – أن يلقى بها من فوق رأس الحكومات مباشرة الى الشعوب.

وهذه الفكرة الأساسية التى ظهرت فى كتاب ولسن عن الحكومة هى :

«ليس حتما أن تقوم الحكومة على القوة القاهرة بل يجب أن تقوم على أساس أخر. ولقد أصبحت الاستبدادات الحزبية بادرة غير مطمئنة، وصارت الشعوب على غير ما كانت عليه من الانحلال أيام الاقطاعات ومن الانحناء أيام الملكيات القديمة. فهى الآن مجاميع بلغت فيها قوة الاقرار وقوة الاعتراض مبلغا عظيما. وقوة الأغلبيات هى من مستحدثات الجمعيات الحديثة. وفن الرجل السياسى يجب أن يتجه اليوم لايقاظ هذه القوة الجديدة ودفعها وقيادتها.

وفى أثناء أبحاثه احترف المحاماة فلم ينجح فيها لأنه كان فى شغل بالقضايا العامة عن القضايا الخاصة. فلما صادف كتابه عن الحكومة النجاح دعته جامعة «برنستن» التى تخرج منها ليدرس بها، فدرس التشريع مع السياسة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٠، وكان رئيسا لهذه الجامعة من سنة ١٩٠٢ إلى أن تركها حين انتخب حاكما لولاية نيوجرسى من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٣.

علت مكانته وهو فى جامعة برنستن وعرفت له أفكار خاصة عن حكومة الولايات المتحدة فطمح إلى رياسة الجمهورية ولما يترك رياسة الجامعة. فقد ألقى سنة ١٩٠٧ عدة محاضرات عن (الحكومة النيابية فى أمريكا) نشرها سنة ١٩٠٨ قبيل انتخابات رياسة الجمهورية التى نجح فيها المستر تافت. وقد أوضح فى هذه المحاضرات أفكاره التى أذاعها من قبل فى كتاب نشره أيام شبابه عن حكومة بلاده. وكانت أظهر فكرة له فى هذه المحاضرات أن الدساتير السياسية ليست نظما أبدية حتى يمكن تعريفها وتحديدها على طريقة رياضية بل هى كائنات حية قابلة للتطور. والدساتير فى رأيه هى مايريد الساسة أن تكون. وكان نشر محاضراته دافعا لازدياد اهتمام الناس به. ولكنه لم يظهر مايجول بخاطره من ميل للدخول فى ميدان الانتخابات لرياسة الجمهورية وإن كان قد قدر استطاعته الفوز فيها لما كان عليه المستر تافت من ضعف السلطان، والمستر روزفلت من عدم المهارة السياسية على قوة سلطانه، والمستر بريان من سوء الحظ لسابق فشله مرتين فى الانتخابات. فلما كانت سنة ١٩١٠ وكان قد اختلف مع مجلس ادارة جامعة برنستن وكانت انتخابات الرياسة لاتقع الا فى سنة ١٩١٢ عرض نفسه سنة ١٩١٠ لانتخابات ولاية نيوجرسى وكانت خالية فنجح وأبدى خلال حكمه لهذه الولاية مااشتهر معه بالحزم والمقدرة على الاصلاح. وفى سنة ١٩١٢ تقدم لانتخابات رياسه الجمهورية وكتب له الفوز فيها وتسلمها فى سنة ١٩١٣. وتجدد انتخابه للمرة الثانية فى سنة ١٩١٦ وظل فى رياسته إلى سنة ١٩٢١.

وقد افتتح عهد رياسته الأولى بخطاب دل على مايجول بخاطره وماظهرت آثاره فى مبادئه التى أعلنها أثناء الحرب، اذ جاء فى هذا الخطاب مايأتى :

«نشعر ونحن نتقدم إلى هذا العصر الجديد، عصر الحق والاطلاق من كل معانى الرق، بشعور يهتز له فؤادنا حتى لكأنما جاء الينا من عند الله، شعور يتآلف فيه العدل والرحمة ويجعلك ترى قاضيك وأخاك بعين واحدة.

«إنا نعلم أن الواجب الذى ألقى علينا ليس واجبا سياسيا فحسب. بل هو واجب سيبتلينا إلى غور وجودنا، وسيظهر مقدرتنا على فهم عصرنا وحاجات شعبنا واستطاعتنا أن نكون لسانه وترجمانه، وسيبين عما اذا احتوت جوانحنا القلب الذى يفهم والارادة القوية التى تعرف كيف تختار أسمى وسائل العمل. فاليوم ليس يوم نصر ولكنه يوم توجه. وليس السلطان اليوم لقوة حزب ولكن السلطان لقوى الانسانية. وأفئدة الناس فى انتظار عملنا وآمالهم تود لو تعرف ماسنقوم به. فمن ذا يستطيع أن يفخر بأنه جدير بمثل هذه الرسالة الكبرى. ثم من ذا يستطيع أن يرفض التقدم للتجربة. وانى أدعو كل الاشراف وكل الوطنيين وكل من يتجه نظرهم للمستقبل إلى جانبى. ولن أرفض بعون الله ما يتقدمون لى به من نصيحة ومعونة».

وفى أثناء رياسة الدكتور ولسن الأولى نشبت الحرب فظلت أمريكا على الحياد إلى سنة ١٩١٧ . وظل الدكتور ولسن ينظر إلى هذه المجازر بعين الأسف لما تلاقى الانسانية من ويلات بسبب أطماعها الوضيعة. وكان لاشك يبقى فى حياده لولا ماكان من اقدام غواصات ألمانيا على نسف المراكب الأمريكية. حينذاك دخلت الولايات المتحدة الحرب. فكان دخولها بدء انقلاب كفة الميزان، وسبب انتصار الحلفاء.

وقد سافر الدكتور ولسن بعد عقد الهدنة إلى أوروبا وأراد أن يكون لسان أمته وترجمانها فى مؤتمر الصلح. لكنه مع الأسف لم يستطع أن ينفذ مبادئه وضعف عن أن يترك أوروبا فى مصائبها لأن أمريكا كانت دائنة كل دول الحلفاء ومصلحتها

تقتضى بقاء تحالفهن. فلما عاد إلى أمريكا أراد أن يصادق مجلس الشيوخ على معاهدة فرساى فلم ينجح. وبذلك انهار أمل من أكبر آماله. بل انهار أمله الأكبر. ولم تفلح دعوته الناس وانتهى به الحال أن أصيب باصابة كانت مقدمة الأمراض والعلل التى جاءت على حياته. على أن فشل ولسن فى حمل بلاده على قبول المعاهدة التى عقدها لايحط شيئا من قدره. وسيبقى فى التاريخ علما من هداة الانسانية العظام. وسيبقى اسمه فى التاريخ حيا ما بقى التاريخ.

احمـد لطفـى السيـد

علم الأخلاق - لارسطوطاليس

من نحو سبع سنوات، بينما جو العالم يبرق بنار الحرب ويرعد، جلس الأستاذ لطفى السيد إلى مكتبه ينقل كتب أرسطوطاليس إلى العربية. وقد أثار عمله هذا دهشة كثيرين جعلوا يتساءلون : كيف ارتضى مدير «الجريدة» أن يهجر ميدان السياسة إلى صحراء الفلسفة؛ وأن يغمض عينيه عن الحاضر الممتلىء بجلائل الأحداث ليأوى إلى كهوف الماضى يفتش فيها عما يتسلى به ويلذ له؟ تخطى بعضهم حدود التساؤل إلى النقد: مابال هذا الكاتب الكبير المشهود له بالفضل من أصدقائه وخصومه جميعا يهدر وقته فيما لايعود على أمته وبلاده بفائدة؟ وهل ترى ترجمته لأرسطو أكثر من أن تكون لذة لنفسه وزينة عند أصحاب المكاتب الذين لا يقرأون مما يقتنون سطرا.

بلغ هذا النقد وذلك التساؤل مسامع لطفى السيد، كما ذهب إليه قوم يصدونه عن المضى فى عمل حسبوه عقيما. لكنه استخف بأحلام الناقدين، ووجد من انضم إليه فى استخفافه، فمضى فى عمله ولايزال حتى اليوم ماضيا فيه. وأشهد انى ما رأيته أكثر اغتباطا بمجهود ولا أوفر طمأنينة لكد منه باغتباطه وطمأنينته لهذا الجهد

الشاق الذى يعالجه أرسطو. وانك لتلمس غبطته بينة بارزة فى الجزأين اللذين نشرهما ترجمة لكتاب الأخلاق، وفى التصدير الذى قدم به هذا الكتاب.

وليست هذه الغبطة والطمأنينة مقصورة على الأستاذ وحده، بل شاركه أصدقاؤه وتلاميذه فيها. فقد رأوه اليوم كما كانوا يريدون أن يروه دائما بعيدا عن مضطرب الحياة اليومية وشهواتها، بعيدا عن السواد وحكمه السريع التقلب، جالسا حيث وجب له أن يجلس: بين أرسطو وبارتلمى سانتيليير، وبين عامة المؤلفين الذين يتحدثون إليه كلما أراد أن يستمع اليهم. وليس أخلق به من سلوك هذا الدرب من دروب الحياة؛ فهو فى سكينته العبوس أسمى ألوان الحياة وأثمنها، وهى يحمل مجده فى طياته غير خاضع لحكم الحاضر ولاهياب حكم المستقبل.

وليس هذا وحده مصدر طمأنينة الأستاذ وغبطة أصدقائه، بل ان لهذا الضرب من ضروب الحياة فضل الخصب فى الانتاج النافع. وقد يعجز سواد أدعياء الفهم والحكم عن ادراك هذا الفضل، وقد ينكرون لعجزهم مجد هذا الانتاج، وقد يزيدهم انكارا بهرهم بما تزينه شهوات الساعة من وهم المجد، وقد يحسبون هذا الالتجاء إلى كهوف الماضى عجزا عن النضال لمجد الحاضر، وكثيرا ما يؤثر حكم هذا السواد من الأدعياء على اتجاه حياة الرجال الذين يعيشون للحاضر وحده ويلذهم بريق مجده؛ لكن أكبر هم الرجل ذى الهمة أن يغالب حكم شهوته على عقله فيغلبها، كما أن أكبر هم الرجل الفاضل أن يغلّب فى نفسه الخير على الشر، وان يك وجه الخير متجهما عبوسا ووجه الشر باسما جذابا. وقد وسع لطفى السيد أن يتخلى لغيره عن المتاع بمجد الشهوة. وعكف على العمل الصالح المطمئن البعيد عن كل ضجة وجلبة.

على أنه لم يرض أن يمر فى تصديره من غير أن يدفع ماقيل من أن عمله عقيم «ولا يعتبر الا ضياعا للوقت» فبين أن الرجوع إلى «المعلم الأول» هو فيما يرجح :

«الطريق القريب والأمين والخالى من العقبات إلى تمكين الفلسفة من بيئاتنا العلمية لتنتج فى الذكاء المصرى صحة الحكم على الأشياء» لأن «الفلسفة العربية قد انتشرت فى مصر وفى جميع الأقطار الاسلامية. والفلسفة العربية هى فى مجموعها فلسفة أرسطوطاليس».

وقد نتفق مع الأستاذ فى هذا الحكم تمام الاتفاق. على أنا لانرى وجه الضرورة فى بيانه. فان أدعياء الفهم ممن صدر عنهم ذلك النقد السليم لن يعالجوا مراجعة أرسطو وتعاليمه. والذين يعالجونه فى غير حاجة إلى هذا البيان، فهم يقدرون أرسطو ويقدرون لطفى السيد. أم أن الأستاذ يرى ممكنا أن ترجع هذه الحجة ضالا إلى حظيرة الهدى، أن كان بين الضالين من فتنتهم النهضة الحديثة فآثروا فلسفة العصر الحاضر على الفلسفة القديمة.

إن يك ذلك رأيه فليسمح لنا بمخالفته، فان الذين فتنوا بفلسفة العصر الحاضر فتنة صحيحة يدركون التضامن فى التفكير بين مختلف العصور، ويعلمون أن أدب العصر الحاضر وفلسفته يمتان لليونان بأقرب الصلة. ولا يفوتهم أن الاحاطة التامة بالشيء لاتكون الا بعد استقصاء مصادره وأصوله. وما دامت غاية الفلسفة الوقوف على حقائق الأشياء والكشف عن أسرارها فمن ألزم أدواتها الرجوع إلى مصادر العلم والنظر لتحقيق سلسلة النسب وضبط مرامى الفكر، فهم اذن فى غير حاجة إلى التنبيه إلى فضل فلسفة أرسطوطاليس لأن حاجتهم اليها ضرورية وليست حاجة كمال ولذة.

أما الذين فتنوا من فلسفة العصر الحاضر بأدب هذه الفلسفة وزخرفها، وكانوا لذلك عشاق أنصاف الحقائق وخيالاتها، فلن يقنعهم رد على نقدهم، لأنهم يريدون الفكرة السهلة فى ثوب فياض من ألفاظ خلابة، وأن تكون هذه الفكرة مرنة ليتسنى لها أن تصادف أهواء أفئدتهم جميعا، وليست فلسفة أرسطوطاليس وتعاليمه هى الجواب لما يسأل هؤلاء المفتونون عنه.

على أنا لا نعتقد أن هذا الذى دفع به الأستاذ لطفى السيد قول ناقديه هو ما دفعه إلى معالجة عمله الشاق الجليل من ترجمة أرسطوطاليس. انما دفعه إليه ميله له وحرصه عليه. لذلك اغتبط به وجعل منه أسمى أمله. فلم يضن عليه بوقت ولابجهد. ولو أن الأستاذ كان حرا طول حياته فى اختيار العمل الذى خلق له لكان قد عالج أرسطوطاليس وترجمته قبل سبع سنوات، ولكن لنا أن نعتب اليوم عليه أنه وقف عند الترجمة من غير تعليق. وما نقول ذلك رجما بالغيب. فقد عالج لطفى ترجمة العقد الاجتماعى لروسو بدأ شبابه، ثم منعته ظروف عن اتمامه. وقضى عليه بعد ذلك أن يلبس دروع الجندية حين صار مديرا للجريدة. وفى خنادق الصحافة قضى سبع سنين تباعا لم ينقطع خلالها حنينه الدائم لحياة العلم والفكر. ومع ما أحيط به أيام جنديته من تقدير المقدرين واعجاب المعجبين فما أشك فى أن نفسه كان يغصها الألم حتى لتكاد تشرق به لولا عزاؤها بأداء الواجب للوطن. ولم يكن الاعجاب ولا كان المجد الأجوف ليمنع عنه ألم الحرمان من أحب الملذات إلى نفسه. فلما كانت الحرب وأكره مترجم الأخلاق فيمن أكره على السكوت أسرع ينهل مما حرم منه ويؤدى مايسرته الحياة لأدائه كواجب عليه لنفسه وللحياة.

وانما كان لطفى السيد حين ادارته للجريدة كالشجرة القوية فى واحة تحيطها الصحراء، ولابد أن تعطى المحيطين بها ثمرا غير ثمرها فتطعم عليها أثمار شجرة أخرى. تنتج هذه الأثمار أجود مما تنتجها أشجارها الأصلية الضعيفة ولكن على حساب ثمرها الطبيعى؛ فاذا آن للفرع المطعوم أن يزول عادت الشجرة تعطى كل مافيها من حياة وقوة لثمرها. كذلك عاد لطفى السيد ينتج من ثمر العلم والفكر ماطاب له، فكان من ذلك ترجمته لأرسطو وتقديمه للقراء كتاب الأخلاق.

وليس أرسطوطاليس جديدا عند قراء العربية. فقد نقلت كتبه اليها أيام العباسيين كما انقطع له ابن رشد فى الأندلس. وليس هذا مقام الكلام عنه ولا عن ترجمته،

فكل المطلعين على فلسفة العرب أو فلسفة أوربا يعرفون أرسطو، وكل قراء العربية يعرفون لطفى السيد. ولو أن رجلا كان له أن يتكلم فى افاضة ودقة عن المعلم الأول فهذا الرجل هو مترجمه. لكنا مع ذلك لا نستطيع غير القول بأن كتاب الأخلاق، وهو أول الكتب التى نشرها الأستاذ لطفى السيد من سلسلة تواليف أرسطو، لابد مثير فى حركة مصر العقلية والعلمية ثورة كبرى. فان اللغة التى ترجم بها تجعله أقرب إلى القراء، ونظرياته التى أخذت عنها الفلسفات العربية والغربية جميعا كفيلة بأن تبعث فى الفكرة الفلسفية السامية حياة جديدة. وما أشد حاجتنا إلى هذا البعث فى عصرنا الحاضر وقد جف معين الفكر المتعمق فى بحث الحقائق الذاهب إلى غور الأشياء.

لقد طال بالناس الوقوف من الأشياء على قشورها، وقد صار الباحث المدقق غريبا بين أهل هذا الجيل المندفع وراء العاجلة الراغب عن الحق والحسن والجميل. فهل يكون مثل الأستاذ لطفى السيد فى المثابرة والجد وراء اظهار الحقيقة التى عرفها الاغريق للناس خليقا بأن يعيد اليهم الرغبة فى الحق والحكمة؟

هذا ما نرجو. ولو صدق رجاؤنا لكان ماتقدم به الأستاذ من عمل أحبه وحرص عليه بشيرا بخصب عظيم فى مستقبل الشرق الفكرى. والخصب الفكرى هو أساس العظمة والمجد والسعادة.

محمد فريد وجدى

دائرة معارف القرن العشرين

السيد فريد وجدى كاتب قديم معروف. كان ولاتزال له جريدة الدستور تصدر أحيانا وتمتنع عن الصدور أخرى. وله مؤلفات غير قليلة يدور أكثرها حول الروحانيات. وهو من بين المسلمين الذين يقولون بأن كل علم وكل اختراع وكل فكرة قديمة أو حديثة لها أصلها فى الاسلام. وله على ذلك أدلة تراها فى كتبه وأبحاثه الكثيرة التى تدل بكثرتها واتساعها على أنه لا يضيع وقته فى غير البحث والعمل لتأييد رأيه وفكرته.

وهو كذلك من بين المولعين بجمع معلومات بنى الانسان من يوم كان لبنى الانسان معلومات إلى وقتنا هذا. وشغفه بذلك واصراره عليه قديم. وقد تمكن من جمع هذه المعلومات وترتيبها تبويبها حتى اذا اطمأن لكمالها أصدرها للناس دائرة معارف ليكون للقارئ منها (قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية، بجميع أصولها وفروعها، ففيه النحو والصرف.والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الطرق والمذاهب والتفسير والحديث والأصول والتاريخ العام والخاص وتراجم

مشهورى الشرق والغرب والجغرافية الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخواص العقاقير والاقرباذين والاحصاءات وسائر ما يهم الانسان فى جميع المطالب).

هذه العلوم والفنون والمذاهب والأبحاث وسائر مايهم الانسان فى جميع المطالب كانت من زمن مضى طى كتاب وضعه السيد فريد وجدى وأسماه (كنز العلوم واللغة) وقد لقى هذا الكتاب، فيما يقول المؤلف فى مقدمة دائرة معارفة، (غاية ما يتاح لمثله من الاقبال والتقدير، سواء من جانب الأمة أو من جانب الهيئات الرسمية. فكانت هذه الشهادة المزدوجة أحسن مكافأة للمؤلف بعد جهاده الطويل وسهره المتواصل).

لكن (كنز العلوم واللغة) انما حصر (معلومات البشر كلها فى دائرة واحدة يلم بها المطالع إلماما اجماليا فيستفيد منها لعقله وروحه وجسده على قدر ما تسمح له الحال). وقد ذكر المؤلف حين آنس من وقته فراغا: «حاجة الأمة إلى دائرة معارف أغزر مادة، وأجمع فوائد، فإن الذى كان يكفيه بالأمس أن يقرأ مادة من المواد العلمية خلاصة موجزة أصبح لا يقنعه الا بحث مستفيض». ورأى أنه جمع مافاته جمعه فى «كنز العلوم واللغة»، فأجمع على وضع دائرة معارف تناسب الحاجة العصرية، و(عولنا على أن نتوسع فى اللغة توسعا لا يدع حاجة فى النفس. وأن نتبسط فى القسم العلمى تبسطا يبلغ بالطالب غاية ما يرمى اليه، جاعلين نصب أعيننا أن يكون الكتاب جامعا بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية. فكما يحرص عليه العالم ليسبح منه فى نظريات العلوم، يحرص عليه الرجل العادى ليبحث فيه عن مسكنات آلامه، وصحة أهله وعياله، ووجوه السير فى أعماله، وأمور دينه، وكل ما يحتاج اليه فى معاملاته). ولقد لقى عمله هذا من تقدير الأمة واعجابها مادفعه

لاعادة طبع كتابه. وهذه الطبعة الثانية التى حدثك المؤلف عن غايته منها وعما تحتويه وعن كيفية وضعه اياها وتطورها من كنز العلوم واللغة إلى دائرة المعارف التى نفدت والتى أعيدها طبعها هى موضع نظرنا اليوم.

* * *

تقع هذه الطبعة الثانية فى عشر مجلدات كل مجلد منها ثمانمائة صفحة عدا السابع فصحفه ٩٦٠ والعاشر فصحفه ١٠٥٦ فمجموع صفحاتها جميعا ٨٤١٦. وهى مطبوعة بمطبعة دار معارف القرن العشرين علىٍّ ملازم (ثمانيات) بحرف بنط «٢٠». وكلها من تأليف السيد محمد فريد وجدى. فهو لم يكتف فيها بوضع قواعد البحث ونظامه والاشراف على أبحاث سواه، بل تفرد بها فلم يستعن بأحد ولم يشرك مع مجهوده مجهود غيره. هو الذى بحث ونقب، وهو الذى نظم ورتب. وبحسبك هذا لتعرف مشقة العمل وعظم المجهود. فأنت اذا رجعت إلى التعريف الذى وضعه تحت عنوان الكتاب ورأيت ما بين دفتى هذه المجلدات من: قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها الخ. إزددت عرفانا لما اقتضاه هذا المجهود من وقت وصبر ومثابرة.

فلو أن هذه الآلاف من الصحف كانت كلها فى فن أو علم واحد لكان ماتقتضيه من مجهود أقل مما تقتضى «هذه العلوم النقلية والعقلية بجميع أصولها وفروعها». ذلك بأن اتحاد اتجاه الذهن وامعانه فى الغوص على نوع من المعانى يلذه ويشحذه ويزيده دقة فى التصور وفى التفريق بين الألوان البادية التشابه لذى النظر السطحى ولغير المتعمق. فأما هذاالانتقال من علم إلى علم ومن فن إلى فن فعسير كل العسر. يحدث فى الذهن وقوفا كلما شاء أن يتحول الى اتجاه جديد، وليس هذا الشأن مقصورا على التفكير وحده، بل انك لتشعر به ولو كان عملك مقصورا على مجرد النقل والترجمة؛ فأنت إذا ألفت لغة مؤلف واتجاه فكرة تيسرت لك العبارات

التى تؤدى بها مقاصده وأغراضه، فاذا انتقلت إلى غيره فى نفس العلم أو الفن شعرت بقلمك يقف حتى يسيغ ذهنك اللغة وطريقة التفكير الجديدة التى انتقلت اليها. ما بالك لو كان الانتقال إلى علم أو فن جديد له أساليبه وله مصطلحاته فى اللغة وله قواعده التى تجمع فى ألفاظ معدودة أبحاثا مستفيضه ! إنك فى هذه الحال بحاجة إلى هدنة تستعيد إلى ذاكرتك فيها ما سبق لك الإلمام به من العلم أو الفن الجديد، وأنت كذلك بحاجة إلى عدة لغوية تصلح ثوبا لهذا العلم أو الفن.

بهذا المجهود قصد السيد فريد وجدى إلى (أن يكون الكتاب جامعا بين الحاجة العقلية والحاجة المعيشية. فكما يحرص عليه العالم ليسبح منه فى نظريات العلوم، يحرص عليه الرجل العادى ليبحث فيه عن مسكنات آلامه وصحة أهله وعياله الخ). وما نشك فى أن عددا كبيرا من القراء يجد فى مراجعة هذا الكتاب فائدة له غير قليلة. فأنت اذا رجعت فى الكتاب إلى كلمة من الكلمات رأيت تفسيرها اللغوى ثم انتقلت فى أحيان كثيرة إلى بحث طويل عما ينطوى تحت هذه الكلمة من تاريخ أو فلسفة أو كلام. خذ مثلا لفظ «مصر». لقد كتب المؤلف عنها فى مجلده التاسع ٢٢٦ صفحة (من صفحة ١٥ إلى صفحة ٢٤١) جمع فيها تاريخ مصر القديم والحديث وتكلم عن تقسيم البلاد وعن التعليم فيها وعن قوانينها النظامية وعن دينها العام. ثم خذ كلمة (اله) تجد بحثها فى الجزء الأول من صفحة ٤٨١ إلى ٥٦٢ وتجد المؤلف يبدأ الكلام عن (الله) بقوله (العقيدة بوجود الخالق فطرة فطرت عليها النفس الانسانية أو هى فى مرتبة العلوم الضرورية التى تحصل للانسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية) ثم يجئ بكلمات لكبار الفلاسفة عن الله ثم عن اثبات وجوده. وفى هذه الكلمات والبراهين والمناقشات شئ غير قليل يتمتع به الذهن. وقد ترى فى هذه المادة غير البحث فى الإله وأدلة وجوده فلتات عن العلم والمادة وغيرهما. ثم ينقلك المؤلف إلى رأيه الخاص فى المسألة وعقيدته بالله «عقيدة فى

درجة المحسوس بلا دليل» وعجبه أن يؤدى الدليل إلى عقيدة، وبحثه فى المذهب المادى والمذهب الروحى. ثم راجع كلمة «موت» فى الجزء التاسع تراها قد استغرقت منه ٢٦ صفحة بينها خمس صفحات رسالة لابن مسكويه فى علاج الخوف من الموت وفيها ثمانى عشرة صفحة عما يجب للمسلم بعد الوفاة من جنازة وصلاة ودفن.

وأنت كلما رجعت فى دائرة المعارف هذه إلى شئ من الشؤون الروحية فأنت واجد دائما بحثا كما أنت واجد رأيا خاصا للمؤلف، ومنته إلى نتيجة معينة. كذلك كلما رجعت إلى شاعر من شعراء العرب أو كاتب من كتابهم المعروفين أو مؤلف من مؤلفيهم فى الفقه والكلام فأنت واجد شيئا من تاريخ هذا الشاعر أو الكاتب أو الفقيه وغير قليل من شعره وما كتب. وللمدن والبلاد العربية حظ عظيم من عناية المؤلف. فالاندلس وبغداد ومكة كانت مواضع بحثه، وان كان لمكة من هذه العناية القسط الأوفر وكانت بغداد لم تحظ منه بأكثر من صفحة واحدة.

وقد يسرك أن تشعر حين مراجعاتك فى دائرة معارف القرن العشرين أن كتّاب اللغة العربية حتى هذا العصر الأخير قد عرضوا لأكثر المسائل وأعوصها فلا يكاد يخلو بحث من رأى لهم فيها، فالمغناطيس كتب فيه الرشيدى فى مادته الطبية وعرض فيما عرض للآراء الحادثة عن المغناطيسية من أيام المسمرية «المسمرزم» وقبلها. والبناء ـ بناء البيوت ـ كتب عنه الدكتور محمد أفندى كمال. وتاريخ مصر القديمة رجع فيه المولف إلى كتاب سليم أفندى سليمان عن (مختصر تاريخ الأمة القبطية). هذا سوى الأقدمين من المؤلفين أمثال ابن خلدون وابن خلكان وابن مسكويه وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم ممن كانوا عمدة المؤلف فى مراجعاته الفلسفية والروحية والأدبية والتاريخية.

إلى جانب عناية فريد وجدى بهذه الأبحاث التى «يسبح منها العالم فى نظريات العلوم» ترى عناية لا تقل عنها لما يحتاج اليه الرجل العادى «من مسكنات آلامه،

وصحة أهله وعياله، ووجوه السير فى أعماله، وأمور دينه، وكل ما يحتاج إليه فى معاملاته» . فكما وقفت منه على جنازة الميت والصلاة عليه ودفنه لم يفت المؤلف أن يضع تحت نظرك مواد القانون المصرى عن البيع والايجار وسائر المعاملات، كما لم يفته أن يذكر الفوائد المنزلية والصحية والطبية لكل نبات ولكل مادة حين الكلام عنها. ولم ينس أن يذكر الدواء الذى يعالج به كل مرض. ولم يترك الكلام المفصل فى أمور الدين. ولم يهمل ذكر شئ وقع له واعتقد أن هذا الرجل العادى بحاجة إلى معرفته.

* * *

والآن فأى حظ من التوفيق أصاب السيد فريد وجدى فى سبيل غايته؟ وهل أنتجت مجهوداته النتيجة التى ترجى من دائرة معارف توضع فى القرن العشرين؟

يذكر السيد فريد وجدى فى عنوان دائرة معارفه أنها «قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها» ويشير فى مقدمته إلى أنها من «كنز العلوم واللغة» كقاموس لاروس الكبير من قاموسه الصغير. ويكفى هذا التعريف لتشعر بأن القيام بتحقيق ما اشتمل عليه يستحيل تمام الاستحالة على شخص واحد. فان وضع قاموس عام مطول للغة العربية وحدها وتحرى هذا القاموس لحاجات العصر الحاضر اللغوية يستغرق من الوقت والمجهود ما استغرقه عمل الاستاذ فريد وجدى فى دائرة معارفه. وكل علم نقلى أو عقلى أو كونى بجميع أصوله وفروعه يستغرق من المجهود أكثر مما استغرقته دائرة المعارف هذه. وهذا هو السبب فى أن علماء ذوى اطلاع ونشاط وذكاء قد قضوا حياتهم فى البحث والتنقيب فى تحقيق أصول علم من العلوم ورد كل الفروع إلى هذه الأصول ثم تركوا الحياة ولم تنته كل مهمتهم، لذلك يجب مهما تحمد للسيد فريد وجدى مجهوده أن تتوقع فيه هذا النقص العظيم، ويجب ألا تطلب اليه ماتطلبه إلى دائرة معارف وضعت على الطريقة العلمية الصحيحة وأريد منها أن تحقق الغاية التى وضعت لتحقيقها.

دائرة المعارف التى توضع على الطريقة العلمية الصحيحة لا يقوم بوضعها رجل واحد؛ بل يشترك جماعة من بادئ الرأى فى وضع الخطة التى تنهج فيها. فإذا تم وضع هذه الخطة استعانوا بكل عالم وبكل اخصائى فى العلم أو الفن الذى انقطع له وطلبوا اليه أن يوافيهم برأيه على الخطة التى وضعوا. كذلك فعل دالمبير وأصحابه فى الانسيكلوبيديا الفرنسوية فى القرن الثامن عشر. وكذلك فعل لاروس فى قاموسة الكبير. وكذلك يفعل العلماء حتى فى المطولات المقصورة على علم واحد. فأنت اذا رجعت إلى دالوز فى الحقوق وإلى أشباه دالوز فى العلوم الأخرى وجدته معتمدا فى مادته على عدد كبير من فحول العلماء. وحكمة ذلك أن القصد من دائرة المعارف أن تجمع من كل علم ومن كل فن خلاصته وآخر الآراءفيه والمعلومات عنه، حتى اذا رجع اليها من ليس له بهذا العلم أو الفن اتصال وثيق وقف منها على كل مايريد أن يقف عليه، ثم كان مطمئنا إلى أنه يأخذ منها أو ثق المعلومات والآراء وأدقها؛ حتى لو أنه كانت له بهذه الآراء حاجة علمية لم يخش أن يضله فسادها أو قصورها.

ووضع دائرة معارف على هذا الوجه أمر لا يتيسر لشخص واحد. ولذلك لم يتيسر للأستاذ فريد وجدى برغم المجهود الكبير الذى بذله والذى يستحق من أجله الحمد والثناء. فلو أنه أتيح له أن يضع لنفسه خطة ونهجا فى وضع كتابه، ولو أن خطته ونهجه كانا على مايريد العلم الحديث لهما، ثم لو أنه أنفق أضعاف ما أنفق من وقت وعمل ما تيسر له مع ذلك أن يرضى أطماع العلم فى دائرة معارفه ولإقتصر عمله أكثر الأمر وفى أكثر المواد على جمع معلومات لا يستطيع الحكم على مبلغها من الدقة، ولا يستطيع أن يرضى بها عالما ولا يفيد بها غير عالم.

هذا لو أنه وضع لدائرة معارفه خطة ونهجا. ودوائر المعارف جميعا تقوم فى هذا العصر الأخير على أساس من النهج العلمى الذى اطمأن اليه الكتاب والعلماء والفلاسفة، والذى يقتضى ملاحظة الوقائع ومقارنتها وترتيبها واستنباط القوانين من

متشابهها ومتناقضها جميعا. ونحن نرانا فى «دائرة معارف القرن العشرين» بعيدين عن هذا النهج العلمى كل البعد. ولعلك تذهب إلى الظن بأن مرجع هذا البعد أن واضع هذه الدائرة روحانى لا يعترف بالعلم الحديث ولا بآثاره. ولسنا نجيبك بأن العلماء الذين يعنون بالروحانيات فى هذه الفترة الآخيرة يريدون أقامتها على أساس من هذا النهج العلمى، وانهم لذلك يلاحظون المظاهر الروحية ويسجلونها ويقارنون بينها ويجمعون بين ما تآلف منها ويقصدون من ذلك إلى وضع قوانين ثابتة لما يريدون تسميته العلم الروحى. وانما نقول ان السيد فريد وجدى لم يضع لدائرته نهجا على أية صورة من الصور. فأنت اذا أردت الرجوع إليها لا تعرف ماستلاقى. فقد تجد بحثا لغويا مستفيضا يبدأ به عبارته فيرد الكلمة إلى أصولها ويبين أوجه استعمالها وقد لا لا تجد من هذا البحث اللغوى كلمة. وقد تجد بحثا تاريخيا وقد لا تجد. وقد ترى نظريات فلسفية عن كلمة تافهة علاقتها بالفسلفة، وقد لا تجد ذكرا لاسم من أسماء الفلاسفة على جلال قدره وعظيم خطره.

أشرنا إلى أن مكة وبغداد ورد ذكرهما فى الدائرة، وإلى أن مكة قد أفرد لها ما يزيد على ثلاثين صفحة، وإلى أن بغداد لم تحظ بصفحة كاملة. هذا وبغداد كانت عاصمة الاسلام زمنا طويلا. فيها ازدهرت مدنية العرب ومنها امتد ملكهم وانتشر فى العالم سلطانهم العقلى والعلمى. وإلى أمراءِ المؤمنين الذين اتخذوها عاصمة ملكهم وإلى العلمآء والفقهاء والشعرآء والكتاب والحاذقين من الصناع والفنانين يرجع حظ عظيم من الحضارة التى كانت ولا تزال ولن تزال مجد المسلمين.

هذه الاطالة فى الكلام عن مكة والتقصير فى التكلم عن بغداد وعدم الاشارة عند ذكر بغداد إلى ما يمكنك أن تعثر عليه خاصا بها فى أجزاء الدائرة الأخرى ليس إلا مثلا من أمثلة كثيرة تجدها فى كل مناحى بحث المؤلف. هذا إلى أن المعلومات التى يذكرها فيما يطيل فيها من مباحثه التاريخية لا تدعو لطمأنية الذى

ألم بشئ من العلم. فلئن كان قد أفرد للفظ مصر ٢٢٦ صفحة فان ماورد فى هذا القدر من المعارف يقف فى أحيان كثيرة عند المعلومات الأولية التى يتلقاها التلاميذ المبتدئون، كما يورد أحيانا أخرى معلومات تفصيلية لا يحتاج اليها الباحثون عن المعارف العامة فى دائرة معارف؛ فما أوردوه عن تاريخ مصر القديم ملخصا من كتاب سليم أفندى سليمان (تاريخ الأمة القبطية) موجز لا جديدفيه من علم أو فكرة. ولا يزيدك علما عما عرفته فى المدرسة الابتدائية. وإلى جانب هذا ترى تفاصيل كثيرة مأخوذة عن الاحصاء السنوى العام الذى تصدره الحكومة المصرية والاحصاء الرسمى والدين العمومى، وقد يكون خير ما فى هذه الصحف الست والعشرين والمائتين مذكرة عرابى باشا عن الثورة العرابية. لكن ايراد هذه المذكرة عند الكلام على «مصر» ايراد لها فى غير موضعها. وقد كان لهامكانها عند الكلام عن «عرابى». ولعل المؤلف يوافقنا على هذا وبخاصة بعد ما أفرد للفظ «بونابرت» فصلا ذكر فيه خطاب أكابر مصر اليه منفردا عما أورده عن نابليون. لكن المؤلف لم يكن يستطيع ـ وهو يقوم بهذا العمل وحده ـ أن يحقق الثورة العرابية تحقيقا تاريخيا صحيحا.

وكما كان ماذكره المؤلف عن تاريخ مصر القديم موجزا ضعيفا كان ذكره للآثار المصرية ولآلهة مصر القديمة أشد أيجازا وضعفا. فقد ذكر عبارة موجزة عن أبيس. أما ايزيس وأوزوريس وسائر الآلهة فلم نوفق إلى الوقوف على أثرهم أو خبرهم. وأما الآثار المصرية فان ما كتب عنها فى أى كتاب أوربى وفى أى دائرة معارف أوربية أدق وأشبع مما كتبه السيد فريد وجدى عن بعضها.

وكأن عناية المولف بالتاريخ القديم مقصورة على الفلسفة اليونانية. وهى فى هذه أيضا ليست عناية علمية بحال. فأما تاريخ أشور وبابل وقرطاجة فما ذكر عنه قليل إلى حد لا يفيد القارئ منه شيئا. وقد حاولت أن أعثر على شئ خاص بسميراميس الملكة الآلهة ذات التاريخ المجيد فى حكم أشور فلم أجد شيئا خاصا بها، ولم يكن

لها ذكر الا ورود اسمها فى كلمة موجزة ايجازا غريبا عن مملكة آشور برغم ما كان لهذه المملكة من تاريخ مجيد وحضارة كبيرة.

لكن هذا الاهمال للتاريخ القديم ولآلهة مصر والاغريق وآشور لم يمتد إلى أرباب الاديان الباقية إلى اليوم. فقد تكلم المؤلف عن بوذا ـ ،ولعله تكلم عن كونفسيوس. ومع ما أظهره من العناية فى هذا الباب الذى يهتم هو له بنوع خاص فقد كان حديث بوذا قصيرا وكان ينقصه شئ غير قليل من التحقيق، وهو بعد موجز ايجازا لايروى غلة الباحث العالم ولايفيد المتعلم الفائدة العلمية التى يجب أن يجدها.

* * *

مثل هذا الايجاز المخل والاسهاب الممل وعدم الأخذ بنهج معين وعدم الاعتماد على قواعد علمية وعلى معلومات ثابتة شائع فى أكثر أجزآء «دائرة معارف القرن العشرين». فمع ما يبدى المؤلف من عناية خاصة بالفلسفة لم يذكر شيئا عن جماعة كبيرة من أعاظم الفلاسفة ذوى المبادئ التى قامت ولا تزال قائمة، ولا تزال مرجع الفلسفة. فقد أردنا الوقوف على ما كتبه الفيلسوف الألمانى الكبير «كانت» فلم نجد لاسمه ذكرا. ورجعنا نبحث عن الفيلسوف الفرنسى «كومت» صاحب الفلسفة الواقعية فلم يكن أحسن من زميله حظا. وفيما نقرأ ما كتبه عن كلمة «فلسفة» عثرنا على أسمى هذين الفيلسوفين وعلى ذكرهما عرضا فى تاريخ الفلسفة الحديثة مع الاعتراف بجلالهما وعظيم قدرهما.

والعجب أن أسماء الفلاسفة التى نزلت إلى ادراك الجمهور العادى أن كان أصحابها بين الفلسفة والأدب لم تلق من المؤلف ما يجب لها من عناية ولا من تحقيق. فجان جاك روسو معروف فى دائرة معارف السيد فريد وجدى بما هو معروف به عند السواد.هو معروف بكتاب العقد الاجتماعى وبما كان لهذا الكتاب من أثر

فى الثورة الفرنسية. أما آرواؤه فى الرجعة إلى الطبيعة وفى الديانة الطبيعية فقد تجد عنها شيئا فيما ترجمه المؤلف تحت لفظ «تربية» مثلا. لكنك لا تجده واردا عند الكلام على روسو كأن لم تكن له به صلة.

ولعل الأدب الغربى أقل الأشياء ذكرا فى دائرة معارف القرن العشرين. فأكابر شعراء الانكليز: شكسبير وملتون وبيرون لايهتدى لأسمائهم فى ألوف صحفها. وشعراء الفرنسيين وكتابهم ممن طبقت شهرتهم الآفاق أمثال هوجو وشاتو بريان لم يحظوا الا بأسطر معدودات.

يجب أن نعترف إلى جانب ذلك بأن شعراء العرب وأدباءهم يشغلون مئات الصحف من الدائرة؛ ويكفيك مثلا أن تذكر أن عبد الغنى التابلسى قد استغرق شعره ثلاثين صفحة؛ لكنك مع ذلك لا ترى عن عبد الغنى النابلسى هذا ما يدلك على شئ من أمره. فمن هو؟ ومامقامه بين شعراء أهل زمانه؟ وماخلاصة رأيه الشعرى؟ هذا ما يجب أن تلتمسه بين السطور التماسا. وهذا الابهام تجده فى كثير من أبحاث المؤلف.

هذا قليل من كثير مما عثرنا عليه أثناء مراجعتنا القصيرة من ملاحظات.

* * *

الاضطراب بين الاهمال والاسهاب والايجاز يرجع إلى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدى بالبحث أهمها. أنما أهمها أن ليس للمؤلف نهج ولا خطة؛ ،ولو كانت ثمة خطة واتبعت لما كانت هذه العيوب واضحة إلى الحد الذى أشرنا إليه؛ ونحسب أن هذا يرجع إلى نوع تربية السيد فريد وجدى العلمية. فهو كثير الاطلاع والمراجعة، لكنه فى اطلاعة ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتى خاص. لذلك ترى تأليفه متميزا بجمع المعلومات من غير اختيار ومن غير ترتيب. فهو حيث عثر على مقال أو فصل فى صحيفة أو فى مجلة أو فى كتاب استعان فيما يظهر لنا بالمقص وأخذ هذا المقال

أو الفصل فوضعه فى حرف الهجاء الذى يتبعه وفى اللفظ الذى يخصه، وهذا ما يتضح لك حين تراه نقل مقال مخمد أفندى كمال عن بناء البيوت من جريدة العلم. وحين تراه نقل مقالا مطولا من مجلة المقتطف عن افتتاح خزان أسوان، مع أن أفتتاح خزان أسوان وما ألقى فيه من خطب وما كان فيه من مدعوين لا يجوز بحال أن يدخل فى نطاق دائرة معارف. وحين تراه نقل المغناطيس عن مادة الرشيدى الطبية. فاذا هو لم يعثر فى مطالعاته العادية على شئ لم يكلف نفسه مؤنة البحث وأهمل الموضوع الاهمال كله، أو اكتفى بالاشارة إليه فى عبارة موجزة كقوله تعريفا وشرحا وتفسيرا للرياضيات: العلوم الرياضية هى الحساب والهندسة والجبر وما يتفرع منها. ولو أن للسيد فريد وجدى أساسا ذاتيا من التربية العلمية لما رضى لنفسه هذا النحو من التأليف، بل لو أن له أساسا ذاتيا من التربية العلمية لتردد كثيرا قبل أن يضع دائرة معارف. وربما أدى به التردد إلى الاحجام عن عمل لا يستطيعه الا عدد عظيم من العلماء.

ولئن كان قد جمع فى الصحف العشرة الآلاف كثيرا من المعلومات التى قد تفيد من يرجع اليها اذا هو أخذها على أنها مراجع يجب تحقيقها قبل الاعتماد عليها وكان له بذلك فضل يشكر عليه فان كثيرين ممن لا يعينهم وقتهم أو علمهم على هذا التحقيق قد يضلون فى هذه المعلومات وقد يتخذونها عمدة وحجة ويبنون عليها آراء ونتائج لا يسهل أن تتفق والعلم.

لذلك نود لو أن الاستاذ فريد وجدى كان قد وجه همه إلى ترجمة دائرة معرف كدائرة معارف الاسلام مثلا، ولو أنه فعل ذلك لكان قد حصر موضوعه وأفاد كثيرا من فضل العلماء الذين وضعوا هذا المؤلف النفيس ويسر لمن يريد الاطلاع سبيل العلم الناضج الصحيح الذى هضمه أصحابه وتمثلوه وجعلوا منه نتائج مبنية على أسباب ومقدمات، لا مجموعة معلومات لم تهضم فخرجت لمن إطلع عليها مضطربة لا يطمئن اليها من لا وسيلة له إلى غيرها.

على أنا اخر الآمر لا نستطيع أن ننكر على السيد فريد وجدى أنه بذل مجهودا كبيرا لاقامة بناء فخيم. واذا لم يكن قد صادفه ما يرجوه له محبو العلم الصحيح من توفيق فليس ذلك ذنبه. واذا كان قد أجهد نفسه فنظم الانقاض كل لون إلى لونه وكل شبيه إلى شبيهه من غير أن يتمكن من تنسيقها، لما ينقصه من روح النظام، فقد يكون لسواه أن يخرج من مجهوده هذا خيرا للناس وأن يعترف لصاحب دائرة معارف القرن العشرين بفضل السعى للخير وللاحسان.

الدكتــور طــه حســين

١
صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان

ما أقل ما يظهر فى عالم الأدب من الكتب القيمة المؤلفة أو المترجمة وما أشدنا فى مصر إلى هذه الكتب القيمة احتياجا. واذا كان لنا أن نعود باللائمة لهذا الفقر على أحد فأكثر الناس استحقاقا للوم أولئك الذين عهد اليهم في العصور الأخيرة بواجب القيام بايفاء علوم الأمة حقها من العلم والأدب فقصروها على علوم الصناعات والحرف وتركوا روحها بذلك فجة وعقلها راكدا فلم تستثر حمية مؤلف ولا همة كاتب.

على أن ما عنيت به الجامعة المصرية فى السنين القريبة من العمل لنقل العلم والأدب إلى مصر قد بدأ يخرج ثمره وزهره. ولأول مرة تقدم أحد أبناء الجامعة البررة إلى الشعب المصرى بكتاب غير رسائل الامتحان، فأخرج الدكتور طه حسين صحائفه المختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان ونشرها على الناس.

ليس بنا من حاجة للكلام عن الدكتور طه ولا لبيان طريقته فى التأليف. فقد عرف القرآء رسالته فى ذكرى أبى العلا ومسلكه فى تحليل نفسية الشاعر ورده مختلف آرائه وأفكاره وأساليبه إلى الوسط الزمانى والوسط المكانى الذى عاش فيه. وهذه هى بعنيها الطريقة التى اتبعها فى رسالته عن ابن خلدون التى قدمها لجامعة باريس لجواز دكتوراه الأدب. وهى الطريقة العلمية التى تبعث للنفس صورة صحيحة من شخص الشاعر أو الكاتب أو الفيلسوف الذى يراد تحليله. ذلك بأن الفرد لا وجود له بذاته وانما وجوده بالوسط الذى يعيش فيه. فتفهم ومعرفة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والحالة التاريخية وما كان على أثر ذلك من عقائد وعوائد وأفكار وعواطف واتجاهات ذلك كله وذلك وحده هو الذى يسمح لنا بفهم أى كاتب أو شاعر أو فيلسوف وأى رجل آخر له صلة بالمجموع فتأثر به وأثر فيه.

كذلك يعرف القراء أسلوب الدكتور طه حسين. يعرفونه من تعليم الرجل حيث نشأ فى الأزهر ثم انتقل إلى الجامعة المصرية وإلى أوربا فجمع فى لفظه بين المتانة والدقة. ويعرفونه من طريقة تفكيره التى هى داخلية دائما لا تؤثر فيها مظاهر الطبيعة ولا أحداثها مما يضيف إلى متانة الأسلوب ودقته سكينة وعمقا وهدوءا تمنع عليه سبيل الاندفاع التخيلى وتقف به دون الارتفاع إلى شواهق الوجدان. ولعل التطورات التى يمكن ملاحظتها على هذا الأسلوب بالغة فى اقناعنا بأن أسلوب صديقنا يسير دائما فى سبيل السلاسة الجزله والسهولة المتينة من غير احتياج لتدفق ولا انقباض.

هذه الطريقة هى التى سار عليها فى المقدمة الصغيرة الثانية التى وضعها فى صدر كتابه الذى وضعنا اسمه عنوانا لهذا المقال وفى الكلمتين الممتعتين عن ايسكولوس وسوفوكليس. وهذا الأسلوب هو أسلوبه فيما ألف منه وفى أكثر ماعرب.

والكتاب موجز بديع يعطى فكرة عامة عن اليونان وعن شعرها التمثيلى. وناهيك باليونان وبأثينا القديمة. فهما مصدر المدنية الاوربية الحديثة والوحى المباشر لأبدع ما خطت أقلام شعراء العصور الأخيرة الخالدين، فشاكسبير وراسين وكورنى وكثيرون

جدا غيرهم من كبار كتاب (التمثيل) مدينون مباشرة لآثينا ولرومة. ويكفينا هذا لنقطع بأن كل ما يكتب عن اليونان يستحق قراءته والامعان فيه.

لكن مختارات الدكتور ليست أى شئ من كل مايكتب عن اليونان. بل لها ميزة خاصة تجعل قراءتها أكبر فائدة وأكثر امتاعا وتضعها فى الصف الأول بين ما يقرأ لفهم الروح اليونانية والحياة التى غذتها هذه الروح. ذلك بأنها صادرة من رجل تخصص لدراسة الأدب والفلسفة وما اليهما من مظاهر الحياة العقلية اليونانية، وتخصص لهذه الدراسة لأنه أعجب باليونان فشربت نفسه مشاربهم وألهمت روحه بديع معانيهم وأوصله التحليل العلمى إلى تعرف الاسباب التى ألهمت العقل اليونانى ما أفاضه به على عصره وبلاده ثم على كافة العصور والبلاد التى أخذت من المدنية بطرف أو ضربت فيها بسهم ونصيب.

وضع الدكتور طه مقدمة عن الحياة اليونانية وعن الشعر التمثيلى عند اليونان. فشبه الجزيرة التى تكاد تكون قاحلة والتى جمعت اليها أشتات الاجناس المختلفة من اليونان طبعت أهل مدينتها الكبرى ـ أثينا ـ بطابع خاص هو حب العمل لاستثمار أرض قليلة الثمر وشدة التضامن لدفع شر المغير. وقد عاشت هذه الدولة فى ظل الملوك حينا. ثم فى ظل الارستقراطية لقرب نظامها من النظام الملكى واتصالها به. ثم دنت من النظام الجمهورى قليلا قليلا حتى جاء سولون فأخذت الديمقراطية تظهر وتعلن وجودها وقدرتها على الحياة. وفى قليل من الزمن ظهر أن الديمقراطية نافعة مغنية، وبلغ من ذلك أن أنقذت اليونان من غزوات الفرس، فزعزعت عرش هؤلاء وخفضت كلمتهم وأدالت دولتهم. وكان ذلك سببا فى أن ظهرت أثينا بين أمم اليونان وكبرت مكانتها واعترف لها بالفضل على كل المدائن الأخرى.

وكانت حياة اليونان الأولين حياة دينية تعددت فيها آلهتهم وارتفع فيها الماضون من أبطالهم إلى مركز الألوهية أو ما يقرب منه. وكانوا يقيمون أعيادا سنوية للآلهة وبنوع خاص لديونوزوس آله الخمر ولدمتير آلهة الخصب. وكان الشعب يجد من

الحفل بهذه الآعياد والآلهة ما يسمح له بالافراط فى الأكل والشراب والسكر والسرور إلى حد نسيان هموم الحياة وشقائها. وفى هذه الحفلات كان يلقن الشعراء والقصصيون طائفة من الناس أبياتا ملؤها الحزن يجيبون بها هذا الشاعر حين يلقى شعره يبسط فيه ألم الآلهة أو لذتهم. وكان هذا أول مظهر من مظاهر التمثيل.

ثم ارتقى التمثيل بعد ذلك وانتقل من مجرد وصف آلام الآلهة وملذاتهم إلى وصف حياة الأبطال وأعمالهم وإلى استعادة مناظر التاريخ. ووضعت الآلهة بعيدا ترقب أكثر مما تعمل.

وكان أول من خطا بالشعر التمثيلى الخطوة الأولى ذات الأثر ايسكولوس. كان من أسرة أرستقراطية وولد فى قرية مقدسة تدعى ايلوزيس يحج الناس اليها من كل وجه لتكريم دمتير آلهة الطبيعة الحية الخصبة. وشهد حرب اليونان وفارس فى وقعة مارتون وشغف بالشعر الغنائى فضرب فيه بسهم ثم كلف بالتمثيل وتقدم إلى المسابقة فيه ولما يتجاوز السادسة والعشرين من عمره وانتصر فى مسابقاته حتى غلبه سوفوكليس فى آخر أيامه.

وكان اتجاه ايسكولوس تمثيل ارادتنا الانسانية فى تصلبها وقوتها وعنادها واندفاعاتها، ثم اذا الارادة الكبرى ارادة القضاء الهادئة المطمئنة تحول دون ما أردنا وتذهب بكل تصلبنا وعنادنا هباء وتنفذ هى قدرها من غير جهد ولاعناء.

وهنا يذكر لنا الدكتور طه حسن فضائل ايسكولوس الفنية، وكيف عبر عن فكرته القائدة المتحكمة فى رواياته المختلفة وكيف نجح فى ذلك أكبر النجاح.

أما سوفوكليس فقد ولد فى كولونا ونشأ فيها نشأة قروية خشنة بعض الخشونة ثم انتقل إلى المدينة فتأثر بما فيها من لين العيش ونعومته؛ وكان لهذين الأثرين فى حياته كشاعر ماسهل عليه الجمع بين القوة والرقة، والشدة المتناهية والانصات لصوت العقل. ولقد فاق ايسكولوس وبزه فى آخر حياته غير مرة بقوة عبقريته الشابة المتلائمة مع عصر كان ايسكولوس، وقد صار شيخا، قد فرغ منه. وزاد هذه العبقرية أن العصر الذى كان فيه سوفوكليس هو العصر الذى ارتقى فيه العقل اليونانى

والشعور اليونانى إلى حد أصبح فيه كل انسان محسا بوجوده وبشخصيته على طريقة شديدة يود معها لو أكره كل شئ على أن يعترف بهذه الشخصية ويشعر بذلك الوجود.

لسنا ندعى اقامة المقارنة بين الشاعرين الكبيرين فى هذه الكلمة. ومن شاء الوقوف عليها فليرجع إلى الصحف المختارة ويرى تطور العصر والموازنة بين مختلف ما كتب كل منهما. وانما نريد أن نشير إلى أن شعرهما جميعا بلغ من السمو والعظمة والقوة والمتانة ما يجعلنا نعتقد أن السبب فى عظمة شكسبير وراسين وكرنى راجع، فضلا عن عبقريتهم الطبيعية، إلى عظمة ذلك الوحى اليونانى والرومانى الذى كان يمدهم. وليس فى مقدور عصورنا الحاضرة عصور التحليل الدقيق وفحص الخلايا وتعرف الجزئيات والبحث وراء النتائج بعد استقصاء المنسببات. أقول ليس فى مقدور عصورنا التى هجرت البساطة الطبيعية العظيمة وارتكست فضلا عن ذلك فيما هى فيه من ترف مفسد مذل أن ترقى مراقى ايسكولوس وسوفوكليس ومن نسجوا نسجهم واستمدوا الوحى منهم، وهل نرى اليوم مثل انتيجونا قتل أخواها كل واحد منهما صاحبه وكانا فى رياسة جيشين متحاربين فأمر ملك طيبة المظفرة فى هذه الحرب بأن يدفن المدافع عن طيبة وأن يحرم الثانى من شرف الدفن ومن الطقوس وأن يبقى بالعراء نهبا لكواسر الطير وعوادى الوحوش. فآلت انتيجونا على نفسها الا ما دفنت أخاها وأقامت له كل الفرائض رغم ما أمر الملك ورغم عناية الحراس القائمين بالحراسة. فلما استدعاها كريون اليه وقفت فى وجهه وقفة جديرة بهلينا القديمة ولم تحفل بالموت وان جزعت على شبابها تفارقه فى غضارته ونضرته وتفارق معه الطبيعة الحلوة فى أجمل أوقاتها وأبهاها. واذا كان مثل أنتيجونا غير معروف اليوم فان ماوضعه سوفوكليس فى فمها من الألفاظ جدير بعبقرية سوفوكليس وبعظمة أثينا. اسمع مثلا كلمات أنتيجونا حين ترد على كريون لما تشدد فى سؤالها عن مخالفة أمره ودفن أخيها قالت:

ـ ذلك لأنه لم يصدر عن الآلهة ذوس ولا عن مواطن آلهة الجحيم ولا عن غيرهم من الآلهة الذين يشرعون للناس قوانينهم. وما أرى أن أوامرك قد بلغت من القوة حتى تجعل القوانين التى تصدر عن رجل أحق بالطاعة والإذعان من القوانين التى تصدر عن الآلهة الخالدين. تلك القوانين التى لم تكتب والتى ليس إلى محوها من سبيل.

ـ لم توجد هذه القوانين منذ اليوم، ولا منذ أمس! هى خالدة أبدية وليس من يستطيع أن يعلم متى وجدت. ألم يكن من الحق علىّ اذن أن أذعن لأمر الآلهة من غير أن أخشى أحدا من الناس. كنت أعلم أنى مائتة. وهل يمكن أن أجهل ذلك حتى لو لم تنطق به؟ ولئن كان موتى سابقا لأوانه فما أرى فى ذلك الا خيرا.

ـ ومن ذا الذى يعيش من الآلام فى مثل الهوة التى أعيش فيها ثم لا يرى الموت سعادة وخيرا. فأنت ترى انى لاأعد هذه الآخرة كأنها عقوبة؛ فلقد كنت أتعرض لما هو أشد لنفسى ايذاء لو أنى تركت بالعراء أخا حملته الأحشاء التى حملتنى.

ـ ذلك وحده هو الذى كان يجعلنى أشعر بهذا اليأس والقنوط. أما ما دونه فما كان ليخزننى أو يؤثر فى. فاذا قضيت بعد ذلك على ما فعلت بأنه نتيجة جنون فمثل هذا القضاء لا يصدر الا عن أحمق مأفون.

* * *

فالى هذه العصور القديمة اذن يجب أن نرجع لنفيض على أنفسنا المتمدينة المدنسة بأطماع المادة شيئا من هذا الروح القوى الكبير الذى يعرف أن فوق المتاع والشرف واللذة المادية شيئا أعلى من هذه اللذات الوضيعة. سيلا روحيا ينقذنا لحظات من تفكيراتنا الحيوانية الشرهة. أجل! اليها يجب أن نطلب السر ومعنى الحياة علّنا

نتجه ولو قليلا صوب ما تملى به العواطف السامية الخالدة من أداء واجب النفس ولو كان فى أدائه تلف الجسد.

لهذا فالخدمة التى قدمها الدكتور طه حسين للأدب العربى وللنفوس المتمدينة بنشره صحائفه المختارة خدمة جليلة. ولقد كان بودنا لو كان تحليله للنفس اليونانية أطول وأغزر مما كان. فتاريخ الانسانية متضامن كله وصلة ما بين الحاضر والماضى هى الضمين بمعرفة السبيل الحقه التى نسلكها فى المستقبل.

ولا نظن صديقنا يحجم بعد نشره هذا الجزء عن الاستمرار فى تاريخ اليونان بحثا واستجلاء وعرضا على قراء العربية. فان ماأضاء به فى هذا الجزء على عصر ايسكولوس وسوفوكليس ليجعل النفوس كلها أشد ما تكون اشتياقا لترى على نور بحث الأستاذ وترجمته سائر عصور اليونان فى مختلف نواحى حياتها.

طه حسين

٢

رد على نقد
حول كتاب جان جاك روسو

أخى طه

تحية واحتراما. أكتب لك عما تبرعت به من نقد الجزء الثانى من كتاب «جان جاك روسو، حياته وكتبه» ولست أقصد بما أكتب الا مناقشة صديق لصديق. وستجدها مناقشة خالية من كل ما تتهم به نفسك من عنف أو شدة.

أخذت على هذا الجزء الثانى من كتابى عن روسو أنه مطبوع طبعا رديئا على ورق غير لائق بكتب العلم والأدب وأن به أغلاطا مطبعية كثيرة، وأخذت علىّ انى فى اهمال الطبع وعدم اختيار الورق وعدم العناية بالتصحيح أزدرى الجمهور، وأنى لا

أحفل باللغة كما ينبغي، وأني لم أضع لكتابي فهرسا ولم أبوبه، وجعلت لهذا النقد أكثر من أربعة أنهر في «السياسة». ثم أثنيت على الكتاب بأن موضوعه جان جاك روسو، وبأن كاتبه هيكل. وجعلت لهذا الثناء نصف نهر من أنهر السياسة.

ولست أخفيك أني أشعر بأن نصف النهر هذا فيه من المعنى ما «يخجل تواضع» روسو لو أنه كان حيا، وما «يخجل تواضعي» أنا اليوم. واعذرني اذا استعرت في هذا المقام عبارة سعد زغلول. لكني أود أن أسألك عما اذا كان القارئ البعيد عني وعن روسو يشعر بمثل شعوري بعد أن يفرغ من قراءتك. وقد عرف أن الكتاب مطبوع طبعا سيئا على ورق ردئ، وأن به خطأ مطبيعا واهمالا لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية، وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد، لكن سوء طبعة وورقة يصد عن قراءته؟ فما الذى يمكن لهذا القارئ أن يقف عليه من أمر الكتاب. ماهو هذا الغذاء الأدبي والعقلي الذى لا يستطيع أن يصل إليه والذى كان حقا عليك أن تدله عليه؟ ألا تظن أنه ـ ولم يستدل على شئ منه ـ يشعر بأنك لم تقرأ الكتاب بل اكتفيت بتقليب صفحاته، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب لترى ان كان سوء شكله يستحق احتمال القراء عناء مطالعته ولتقدر مباحث الكاتب فتحكم له أو عليه.

ثم هب يا صديقي ان قارئك كان رجلا صالحا من أهل الأزهر الذين تعودوا قراءة الكتب مطبوعة على الورق الأصفر أو النباتي ولاتزيد على الكتاب الذى تفضلت بنقده بهاء ولا رواء. وهب أن قارئك كان من الذين يولعون باستقصاء ما في الكتب مهما يحملهم هذا الاستقصاء من عناء، وهب أنه كان من الذين لا يحفلون بالظواهر ولا يعنون كثيرا باللباس ولا يفهمون قيم الناس بأرديتهم ويحسبون التأنق لهوا، فماذا يكون حكم هذا القارئ على ما كتبت حين يراك اقتصرت على نقد الطبع والورق. وهلا تخشى أن يقول لك أن وضع صحيفة في آخر الكتاب لبيان

الخطأ والصواب كانت تكفى لرد نقدك الألفاظ. وانه كان أحوج إلى العلم بشئ من موضوع الكتاب.

أما نقدك غياب الفهرس والتبويب فكنت أود أن أشاركك رأيك فيه لولا أن هذا الجزء الثانى من كتاب جان جاك فى غير حاجة إلى فهرس أو تبويب. فهو يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينقدهما. وليس فيه شئ آخر. فهل كان يكفيك أن يكتب بدل ٩و١٠و١١ ـ هلويز الجديدة، واميل، وصوفيا، كما فعل فاجيه ولمتر وغيرهما من الذين كتبوا عن روسو؛ وهل تحسب أن الفرق كبير فى نظر العلم والأدب إلى حد لا يصبح معه نقدك مشوبا بشئ غير قليل من الاسراف الذى ذكرت أنك لا ترضاه.

وتقول لو أنك كنت غنيا لقمت بطبع الكتاب فى صورة تليق بروسو وبهيكل، وانى أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك. وربما رأيت أنت كتابى على غير مارأيته لو أننى كنت غنيا. على أنى لا أقول لك عن ثقة. فان بى عيبا آخر قد يحول دون اتقان الطبع وأظنك تعرفه. فانى تتحكم فىّ صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع. هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء. وقد أسرف الحظ فيما خلعه على من كل منهما إلى حد انقلب معه مايجده الناس فى كل منهما من فضل عيبا عندى ونقصا. وليس لى من سبيل إلى محاربة هذا الاسراف فى الصفتين الا أن يستطيع الانسان محاربة طبعة.

هاتان الصفتان تحولان بينى وبين الناس وتجارتهم. وأشهد أنى ما إغتبطت يوما لهذا العجز. كما أشهد أنى ما حزنت له يوما. فهو يحمينى من شرور كثيرة، ويدع المجال أمامى فسيحا لأحظى من نعيم الحياة بما تيسره المقادير من غير أن أخشى مداخلة الناس فى أمرى لتكدير صفو نفسى. ثم هو فى نفس الوقت يمنع على الاستفادة من معاملة الناس والاستعانة بذوى الإختصاص منهم فى طبع كتبى وتصحيحها وتوزيعها واسترداد نفقاتها لطبع كتب أخرى كما يمنع علىّ الإستفادة

من معاملتهم فى غير هذه من شئون الحياة ويضطرنى إلى القناعة من علاقاتى بالناس بما ييسر لى أقل حظ من النعيم أطمع فيه. فأنت ترانى أشد ما أكون غبطة مادمت جالسا إلى مكتبى متصلا بالناس فى غير حاجة إلى معاملتهم والاتجار معهم؛ وترانى أشد ما أكون حياء وحيرة ما اتصلت بالناس فى تجارة. وهذا ياصديقى هو السر فيما رأيت من سوء ورق كتابى وطبعه. وهذا هو السر فيما تتهمنى به خطأ من ازدراء الناس. ولو أنصفت لقلت أنه عكوف النفس على ذاتها وقناعتها بالرضا الداخلى الذى لايعنى كثيرا بحكم الناس، لأن حكمهم لا يصل اليه وان وصل فلا يعلق عليه.

وقد لا يسوؤك في هذا المقام أن أخبرك انى حين قرأت نقدك ابتسمت أن رأيتك تأثرت فيه بصداقتك اياى أكثر مما تأثرت بموضوعك. فانك قد عالجت اخفاء ما تبعثه المودة فى نفسك من محبة صادقة فنمّ حرِصك على التعرض لشكل الكتاب دون موضوعه، مع اظهارك الاعجاب بالموضوع عرضا، على أنك كنت تود أن يكون ما يظهر للناس من صاحبك بالغا ما يستطاع بلوغه من الكمال.

لكنك يا صديقى تعلم ماانطوت عليه نفسى، وتعلم أنى لا أكتب الا مايكون متاعا لى ولذة؛ فاذا نشرته بعد ذلك فلأنى لا أستطيع المحافظة عليه، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج اليه يوما لأتلذذ بمجهوداتى الماضية فى الساعات المجدبة من حياة الحاضر. وهذا هو مادعانى لتقسيم ما كتبت عن روسو إلى ثلاثة أجزاء، فكنت كلما فرغت من قسم من بحثى وهجمت علىّ مشاغل الحاضر وخشيت أن أوخذ بها إلى حد نسيان ما كتبت قدمته للطبع لكى لا يضيع. وهذه غاية يكفى لبلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء كبير.

على أنى أعدك يا صديقى ان أراد الحظ لى أن أظهر للناس كتبا أخرى بأن أجاهد لا حرص على رضاك، واذا أنا وجدت من عناية الأقدار مايسمح لى باتمام الجزء الثالث من كتاب روسو ــ وهذا مالا أعدك به ــ فلن أكتفى بما أكتفيت به

فى الجزأين الأولين ولن أتركه بغير فهرس أو تبويب، ولن أطبعه الا على ورق يعجبك، ولن أتركه بغير بيان لما فيه من خطأ مطبعى، ومن زلات القلم حين الكتابة.

لكنى مع ذلك كنت أرجو أن لا يقف نقدك عند الغضب لى منى، واظهار هذا الغضب فى ثورة صريحة؛ وكنت أود أن تتناول موضوع الكتاب وأن تبين لقارئك فى شئ من التفصيل ماتراه من وجوه حسنه وقبحة وكماله ونقصه. فقد يمكن ملافاة ما كان من نقص فى الطبع والورق عند اعادة طبع الكتاب سواء أعدت أنت الطبع أو أعدته أنا أو أعادة غيرنا. لكن ملافاة نقص الموضوع لاتكون الا اذا دل النقاد المؤلف على مواقع الخطأ فى البحث ومواضع التواء الدليل. وأصدقك القول أنى أحوج إلى هذا النقد منى إلى نقد الشكل والصورة؛ فنقد الشكل والصورة أعرفهما وأعرف أسبابهما من غير حاجة إلى أن يدل عليهما أحد، كما أعرف وسائل علاجهما. وهذه الوسائل على ما تعلم يسيرة لمن أراد الاصلاح. فأما النقص فى الموضوع وأما التواء الدليل فيحتاج اصلاحهما إلى تنبيه خاص من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوى الفضل والعلم. فهل لك أن تكلف نفسك هذا العناء فتنفعنى وتنفع الناس، ويكون الشكر لك مضاعفا.

وما أحسبك حين تعرض لهذا النقد مضيعا وقتك سدى. فان فى رواية الهلويز تحليلا نفسيا شائقا ومباحث فلسفية غير تافهة. وكتاب التربية هو خير ما كتب روسو. واحسبنى حين لخصتهما ونقلتهما لم أترك شيئا جوهريا مما جاء فيهما أو ورد عليهما، وان كنت قد أوجزت فى التلخيص والنقد فذلك لأوفر على القارئ وقته ولأحول بينه وبين الملال ولأعصم نفسى من زلة ادعاء العلم بما لا أعلم.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو أن أعيد أمامك كلمة مما سطرته فى مقدمة الجزء الأول لتكون متسامحا بمقدار ما يسمح به قدرى لمجهودى. قلت فى تلك المقدمة: «لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل، لأننى لم أتخصص له وانما هويته فأخذ منى وقتا ومجهودا كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت

فى حياتى فلم أشعر معهما بألم أو بملال، بل كنت أتنقل إلى تذوق أنواع من اللذة وأشعر فى أعماق روحى بدسم مايصل إليها أثناءهما من الغذاء. ولكننى على كل حال لم أتخصص. والبحث الكامل لا يأتى إلا بالانقطاع والمزاولة والامعان وطول التفكير فى الساعات والأيام والأشهر المختلفة، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جدا. واذا كنت قد قرأت كتبا كثيرة فهى على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو» ...

هذا ومع شكرى لك على حسن عنايتك بكتابى أرجو أن تتفضل بقبول فائق الاحترام.

حديث الشمس

تذاكر الناس شأن أمية بن أبى الصلت عند النبى (صلعم) فقال: أمية آمن شعره وكفر قلبه، وبينا أبو بكر الهذلى بين يدى عكرمة يوما اذ قال له: أفرأيت من يبلغنا عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال لأمية آمن شعره وكفر قلبه، فقال عكرمة هو حق. فما الذى أنكرتم من ذلك قال أبو بكر أنكرنا قوله:

والشـــمس تطلـــع كـــل آخـــر ليلة

حـــمـــراء مطلع لونهـــا مـــتـــورد

تأبى فـــلا تبـــدو لنا فى رسلهـــا

الا مـــعـــذبة والا تجلـــــد

فما شأن الشمس تجلد. قال عكرمة: والذى نفسى بيده ماطلعت قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقولون لها اطلعى، فتقول: أأطلع على قوم يعبدوننى من دون الله فيأتيها شيطان حتى يستقبل الضياء يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها. وما غربت قط الاخرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها. وذلك قول النبى صلى الله

عليه وسلم، تطلع بين قرني شيطان وتغرب بين قرني شيطان (الأغاني جزء ٣ص ١٨٤ طبعة ساسى) .كذلك كان شأن الشمس أيام عكرمة: لاتطلع الاكرها يدفعها جيش عرم من الملائكة. وما كان تقاعدها صلفا معاذ الله أو تيها. بل زيادة فى الخشوع وغضا على الضالين الذين يقرون لها بالالوهية. ومهما يكن عدد هؤلاء قليلا إلى جانب المؤمنين من بنى آدم وإلى جانب الطير والوحش تسبح بحمد الله وتقدس له، وإلى جانب الخليقة الخاضعة الخاشعة فانهم يغيرون من نفس معبودتهم حتى تنزع إلى العصيان لولا سبعون ألف منخاس تتناول جسدها حتى يدمي ويصل إلى حد ايلامها. هناك تبدو حمراء متوردة اللون آسفة. ولا تلبث أن تبدو حتى يقابلها من أعداء الله مريد يريد أن يحجب ضياءها ويقف بقرنيه دون مسيرها، فتصب عليه نارها ويحرقه الله تحتها. وتستمر سيرتها مضيئة ناصعة تعم الأرض بنورها وتأخذ اليها ألباب المعجبين بها. فاذا تمت دورتها وجاء وقت مغيبها عاودها الأسف على مارأت فتخر لله ساجدة منيبة. هنالك يجيء شيطان ثان يريد أن يصدها عن السجود فيحترق دون مايريد، وكذلك يتم أمر الله.

أما اليوم فقد انقضت تلك المعارك مما بين الملائكة والشمس والشياطين، وصارت الشمس غير ذات ارادة وانما تسير فى نظام الكواكب الأخرى. أصبحت لاتطلع ولاتغيب وانما تدور الأرض حولها فى حركة آلية لاتملك ارادة أيا تكون تحويلا لها ولا تبديلا. وأصبح توردها غير متعلق بمناخس الملائكة الذين يجلدونها.وانما هو نتيجة تكسر الأشعة فى أثير الهواء. ولعل السر الخفى فى حدوث ذلك الانقلاب الهائل فى نظام الكون أن عبادة الشمس انقضت من زمان فلم يبق من سبب لغضب الشمس وتقاعدها عن الطلوع ولم يبق محل لنخس الملائكة اياها. ولما كان من اثر ذلك أن تركت الشمس نفسها تسير كما توجهها الظروف، وكانت كل مَلَكةٍ لاتستعمل تندثر بالزمان، إنحطت قوة الارادة من نفس الشمس وتلاشت

رويدا رويدا حتى انعدمت وبقى ذلك الكوكب العظيم بلا ارادة يسير فى موكب الكواكب الأخرى من غير رأى ولاتدبر.

قد يرد على هذا التفسير المعقول اعتراض يجدر بنا أن نرده، ذلك أنه اذا كان دور الملائكة فى نخس الشمس قد انقضى بانقضاء عبادتها، وكان سجودها قد انتهى كذلك، فان الشياطين التى كانت تقف فى وجهها صباح مساء لايزالون بين أظهر الخليقة. فما الذى يصدهم عن مناوشتها ومناوأتها كما كانوا يفعلون من قبل؟ واذا كانوا لايزالون يقومون بدورهم فان معارضتهم تكفل استمرار تنبه ارادة الشمس لإحراقهم كلما تصدوا لها. ويكون ذلك معناه بقاء هذه الارادة التى لايبعد أن تستعملها صاحبتها اليوم أوغدا اذا أحوجت الظروف كما كانت تستعملها من قبل.

ولو ذكر المعترض أن تعرض الشياطين للشمس فى مطلعها ومغيبها انما كان لصدها عن ذكر الله والسجود له وقد انعدمت هاتان الخلتان منها بانعدام سببهما لرد على نفسه بنفسه. كذلك فان إحراق شياطين من عتاة الشياطين كل يوم – نقول عتاتهم لأنه لن يغرر بنفسه منهم للقيام بمثل تلك المهمة ضعيف أو عاجز – من شأنه أن يوقع فى قلوبهم الرعب والفزع.

إذن فهم لايقدمون على تضحية لاطائل تحتها ولا نتيجة لها وهى فوق هذا وذاك قد انعدم سببها. لذلك تركت الشمس حتى وصلت إلى ماهى عليه اليوم. كوكب يدور فى موكب الكواكب من غير ارادة لايطلع بين قرنى شيطان ولا يغيب عن قرنى شيطان.

ولعل أبا بكر الهذلى كان قد نسى عباد الشمس فلم يصله علم ماكانت تقاسى بسببهم الا عن طريق عكرمة. ولاشك أنه بقى مدة جهله محروما من التمتع بتصور الحركة العظيمة التى كانت تقوم فى الجو ساعة سحب الشمس من وجارها فى أبحر

الظلمات والنور. لكنه على كل حال تمتع بهاته الخيالات بعد ماجاءه من العلم. أما نحن فقد أفقدنا العلم هذه التصورات وأضاع علينا المتاع بها وبما تحويه من جمال.

على أنه خلق لنا عنها عزاء لاندرى إن كان حقا. ذلك هو اقتناعنا بأننا صرنا نعلم.

مصطفى صادق الرافعى

تاريخ أدب العرب

طلبت الجامعة المصرية للكتاب والأدباء فى مصر أن يضعوا تاريخا لأدب اللغة العربية ليكون كتابا لطلابها فكان من السابقين لاجابتها حضرة مصطفى صادق الرافعى. وقد ظهر أخيرا الجزء الأول من كتابه. وهو جزء ضخم كبير القطع يقع فى أربعمائة وأربعين صفحة، وقد بقى أمام المؤلف أربعة أجزاء «من غرار هذا الجزء وحجمه». فنحن لذلك أنما نحكم الآن على قسم من خمسة أقسام من التاريخ العام الذى أخذ المؤلف نفسه بوضعه. على أننا سنبدى آراء تشمل هذا الجزء وما بعده فيما يختص ببعض المسائل كأسلوب الكاتب وطريقة تقسيم الكتاب وسيره فى عمله وآراء أخرى تختص بهذا الجزء وحده لأنها تقتصر على النظر فى محتوياته.

المؤلفون اليوم فى مصر وفى البلاد العربية على العموم قليلون. والمواضيع التى يطرقونها محصورة. لذلك ترى كل واحد منهم متى أخذ يكتب فى موضوع أراد أن يستوعب فى كتابه كل ماجاء فى هذا الموضوع أو يمسه، ويكسب من ذلك أن يخرج الكتاب كبير الحجم يسر مؤلفه ويعجب الناظر إليه. وقليل جدا من يحصر

كتابته فى الموضوع الذى يبحثه الا متى اضطرته الحاجة للمساس بغيره. وهم فى ذلك معذورون لأن هذه الطريقة الدقيقة التى تضطر الكاتب لأن يحدد عمله وفى الوقت عينه يتعمق مااستطاع فى دائرة كتابه انما تجىء نتيجة لازمة لكثرة البحاث والكتّاب مما يضطرهم لتقسيم العمل فيما بينهم ويجعل كل واحد ملزما أن يخرج للناس جديدا من الأفكار أو الأشكال أو المعلومات حتى يجدوا فى قراءته لذة أو فائدة. أما فى البلاد الفقيرة فكل بضاعة رائجة لأن المطلوب دائما أكثر من المعروض. لهذا أرى واجبا أن ننظر لكتابنا من غير تشدد وأن لانطالبهم فيما يعملون باتباع طريقة دقيقة. فاذا جاء الكاتب الذى يعرف طريقة التأليف ويفهم أن المطلوب ليس هو وضع أخبار ومعلومات بعضها فوق بعض كنا مدينين له بالشكر الكبير،

وأظهر الكتب دلالة على ماأقول ماكتب عندنا عن أدب العرب. فانك قل أن تجد فى هذا الباب على أنه مطروق كتابا انتهج صاحبه فيه طريقة تأخذ بنفس القارىء جدتها أو جودتها. والغريب أنهم حين يريدون الكتابة فى تاريخ الأدب أى حين يريدون أن ينقلوا للقارىء ابن القرن العشرين نفس أهل القرون الأولى تراهم انتقلوا هم أنفسهم بين أهل هذه العصور المتقدمة وانتحلوا لأنفسهم طريقة أولئك فى الفهم والفكر والتعبير ثم بقوا هناك من غير أن يترجموا لنا عن صور نفس أهل هذه العصور، لذلك كانت كتبهم قليلة الفائدة.لأن الواجب المهم على الكاتب ليس أن يسرد الوقائع أو أخبار الرجال أو آراءهم العامة المعروفة بل أن يبين لقارئه النقط النافعة الظاهرة فيما يريد أن يكتب عنه. فاذا فرغ القارىء من الكتاب خرج منه بفكرة معينة مضبوطة تدل على نفس الكاتب ومبلغ تقديره للحوادث. والافما معنى أن يكتب كاتبون مختلفون فضلا عن عدد كبير من الكتاب فى علم واحد أو مسألة واحدة أو تاريخ خبر مخصوص إذا كان القصد نقله عن كتاب قديم أو رواية موجودة. أليس الأحسن، إن صح ذلك، أن نرجع للكاتب القديم نفسه أو أن نراجع الرواية.

وعذر بعض هؤلاء الكتاب أن اللغة العربية هى لغة الماضى والحاضر والمستقبل.. لذلك فخير من يكتب بها هو من يضاهى المتقدمين من الكتاب فى ألفاظه وتعابيره. وكأنهم ماعلموا أن الألفاظ والتعابير تتغير من زمان إلى زمان ومن مكان لآخر. وأنقل هنا كلمات مصطفى صادق الرافعى فى هذا الموضوع قال (ص ٤٩): «الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التى تعين عليها ولذا تراها فى كل أمة على مقدار ماتبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا». وقال (ص٥٥): «اللغة بنت الاجتماع وهى ألفاظ ملك السامع فى الحقيقة لاملك المتكلم». وهذه الفكرة غاية فى الدقة والامعان. فاذا كان ذلك فلم يبتعد الكتاب بمراحل عما يتصوره قارئوهم أو سامعوهم، ولم هم يذهبون فى تحريرهم كأنما يريدون تعليق كتبهم على أطلال العرب.

لنا اليوم لغة كتابية متعارفة بيننا نكتب بها فى جرائدنا وفى رسائلنا وفى مذكراتنا فلم ننساها مرة واحدة ساعة نريد أن نكتب كتابا فى علم ماوخصوصا فى تاريخ أدب العرب؟ أحسب ذلك راجعا لتقدير الذين يتناولون هذا النوع من الكتابة أنهم هم أنفسهم أدباء فيجب أن تسمو كتاباتهم عن هذه الكتابة المعروفة اليوم خيفة أن لايكون لهم فضل. هم يظنون أن القارىء يحنى رأسه اعترافا بعلو مركزهم حين يسمعهم يجيئون بالألفاظ غير المعروفة ولا المتداولة بالرغم مما يكون فى تركيبهم من التعقيد اللفظى والمعنوى وفى أساليبهم من الركاكة. وهذا الظن من جانبهم يكفى ليفهم الكثيرين قدرهم بمجرد قراءتهم.

ليس الأديب بالشخص العارف لعويص الألفاظ ومتروكها ولكنه الشخص الذى يستطيع أن يلبس المعانى الجميلة أو الأفكار الدقيقة أو الصور أو النغمات أو أى شىء مما يقع تحت الحس أو يجول فى النفس لباسا يظهر من خلاله جمالها وإبداعها. وكلما سهلت ألفاظه كانت أعذب سماعا وأقرب للقلب وأحب للنفس.

يخيل لى أن الكاتب الذى ينتزع نفسه من الوسط الذى يعيش فيه وينتحل فى أسلوبه وخيالاته وأفكاره صورا ليست له ولالقومه، شخص شارد عن الجماعة التى يقيم بينها خارج عليها منكر نفسه وأصحابه. والا فماذا الذى يدعو كاتبا عاش فى مصر وبين المصريين ليستمطر الغيث أو يعشق البادية مالم يكن منكرا مصر ومقامه فيها.

أسلوب كتاب الرافعى

وانى اسف أن أقول ان كتاب تاريخ أدب العرب فيه شىء من هذا الرجوع إلى أطلال سكان شبه الجزيرة الآسيوية. ويكفى دليلا على ذلك أن أنقل للقارئ السطور الأخيرة من كتابه. قال (ص ٤٣٧) «هذا مجمل من أمر الرواية والرواة ولولا أنى حبست من نفس المقال، وعدلت بالقلم عن انتجاع الغيث إلى التلال لأمضيت البحث لطيته، وتركت الخاطر على سجيته. ولكنها قصبة من جناح قد طار، واثارة من علم صار من الإهمال إلى ماصار وان هوالإبساط كان منشورا فطوى وحديث قيل ثم روى».

أريد أن أطابق بين مثل هذه الأسطر ـ والقارىء يقع على مثلها من حين لآخر فى عرض الكتاب ـ وبين اعتبار اللغة ملك السامع فأعجز دون ذلك. ويزيد عجزى حين أريد أن أطبق عليها قوله (ص ١٥٩) «الألفاظ فى كل لغة من اللغات انما هى أدوات الحياة الذهنية الخاصة بالنفس كما أن مدلولاتها أدوات الحياة المادية الخاصة بالحواس».

وإنى لا أحسب المؤلف رجلا يمكنه أن يسير فى كتابته على القواعد التى يضعها هو. وانما أحسب السبب فى وقوعه أحيانا فى النسيان شديد اعجابه بالعرب ولغتهم وأقوالهم وأعمالهم. ومفهوم أن الانسان يجتهد فى أن يتحدى كل مايعجب

به الاحين يرى هذا التحدى غير صالح. وفى هذه الحالة الأخيرة قد يغلب عليه النسيان. ذلك شأن الرافعى فى بعض ماكتب. أى أنه نسيان منه لقواعده.

لذلك نراه فى غير هذه الأسطر يكتب بلغة معتادة وبأسلوب معتاد أى أنه لايمتاز فيهما بشىء خاص ولاتظهر له فيهما صفة معينة. بل ترى مادة الحياة قليلة فى هذا الأسلوب المتشابه. والسبب فى ذلك أن الرافعى لا يدعو لشىء معين فيكون أسلوبه خطابيا. وليست عنده روح النقد الدقيق لتظهر فى كتابته. ولا هو متمسك بتقليد الأقدمين فتكون لهم صبغتهم.

ثم هو فى الوقت عينه غير دقيق فى انتقاء الألفاظ وترتيبها. بل يجىء أحيانا بجمل تكون من الغموض بحيث تستلزم وقتا طويلا لفهمها وهى لاتحتوى مايستدعى ذلك من خبر غريب أو معنى عميق. مثال ذلك ماجاء فى صفحة ٩٠، قال: «ان تاريخ الآداب ليس فنا من الفنون العملية التى يحذو فيها الناس بعضهم حذو بعض ويأخذ الآخر منها مأخذ الأول وتتساوق فيها الأمم على وضع واحد لأنها لاتتغير على الجملة فى تعرّف مادتها وتصريف أداتها حتى يتعين علينا أن نجعل آداب لغتنا جميلة على آداب اللغات الأعجمية يفصل على أزيائها وان ضاقت به وخرج بارز الهيئة مجموع الأطراف متداخل الأعضاء وكأنه مشدود الوثاق أو مأخوذ بالخناق» ولو أنه اكتفى بقليل وقال «ان تاريخ الآداب يختلف من لغة للغة وليس من الضرورى أن ننهج فى الكتابة عن آداب لغتنا منهج الفرنج (أو الأعاجم ان شاء) حين يكتبون عن آداب لغتهم» لكان أظهر فى المعنى وأقصر فى اللفظ ولوفر على القارىء وقته وعلى نفسه البحث عن تشبيهات هى على خلوها من الجمال لاتؤدى معنى فى هذا المكان.

أمثال هذه الجملة التى نقلنا كثير فى الكتاب. ولاندرى لعل اعتبارنا للبلاغة يختلف اختلافا كليا عن اعتبار المؤلف، فانا نراه يجىء أحيانا بسجعات أو تشبيهات

يخيل الينا أنها لاتتفق والبلاغة بحال. فقوله مثلا فى (ص ١٨) «ثم ان موارد هذا التاريخ ان لم يتولها الكاتب بالذهن الشفاف. ولم يعتبرها بالفطنة النفاذة حتى يكون نبيها كالعرّاف» . قول قاصر جد القصور من جهة الفصاحة فى انتقاء اللفظ ومن جهة البلاغةً فى سبك التعبير. كذلك قوله فى (صفحة ١٣) «انا استفدنا تحقيق معنى اللغات بما يقطع الريب ويمتلخ عرق الشبهة فيما أيقنا به» . أفلا كان الأجمل به أن يتنازل عن «يمتلخ عرق الشبهة» ، ولا جمال فيه ولاضرورة له. ومثل هذا يجده الانسان فى مواضع متعددة من الكتاب. وهناك كلمة جميلة المعنى لاتسمح لى نفسى أن أغتفر للكاتب الباسها ثوبا غير جميل من اللفظ. تلك قوله (ص١٠) «من ذلك تجد الأمة التى لاحوادث لها ليس لها تاريخ» ولو أنه قال (لاتاريخ لها) لأعطى الجملة رونقا يزينها.

على أن أسلوب الكتاب وان لم يكن أسلوبا مثلا فى مجموعه وتنقصه غالبا طلاوة اللفظ ودقة التعبير فانه يصعد أحيانا حتى يكاد يكون بليغا. انظر إلى قوله (ص ١٦٥) «فهى (اللغة) فى الكفاية سواء يوم كانت لغة الطبيعة البدوية الخشنة لاتلقيها الاعلى ألسنة البدو الذين هم الجزء المتكلم من هذه الطبيعة الصامتة ويوم صارت لغة الحياة المنبسطة تصرفها الألسنة والأقلام فى مناحى العلوم والآداب والصناعات التى قام بها التمدن الاسلامى» . وأنت تجد قطعا جميلة كذلك فى الفصل الذى كتبه عن أصل اللغات. وأظن أن السبب فى اختيار المؤلف أحيانا لألفاظ غليظة لاجمال فيها ماعنده من الاعتقاد بأن اللغة العربية والخشونة صنوان، وأن الرجل متى سكن المدن ذهبت فصاحته «وبدأت سليقته تتحضر فكأنما انصدع مفصل العربية من لسانه» (ص ٢٥١) . وهذه الفكرة الغريبة ان صحت عند العرب فلا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تصح بين المصريين الذين هم متحضرون بطبيعة بلادهم.. أم أن الرافعى يجاهد لينسلخ عن طبيعة مصر ليبقى بذلك عربيا فصيحا. أخشى إن صح هذا أن يقصر دون الأعراب ودون الحضر.

أسلوب البادية تتفق معه الخشونة أحيانا. هذا صحيح. ولكن ليس معنى هذا أن العربي يتكلف الخشونة ليكون فصيحا وانما معناه أنها تجيئه بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه. أما أسلوب أهل الحضر فان الخشونة لاتلائمه وهو ينبو بطبيعته عنها. لذلك كان الكاتب من أهل الحضر الذى يكلف نفسه الخروج على طبع بلاده يجد نفسه منظورا من قومه وكأنه غريب عنهم وان أخطأ بعضهم أحيانا فى فهم هذه النظرة فظنها نظرة الاعجاب. ولاشىء أدل على ذلك من أن مايكتب يبقى قراؤه قليلون محصورون فى دائرة ضيقة. ويكون شأن المعجبين به شأن ريفى يرى البالون لأول مرة.

ثم ان بعض الكتاب يحب أن يوارى عجزه عن بلوغ درجة البلاغة فيتوارى وراء الألفاظ الغليظة السميكة ويتخذ لنفسه منها ستارا. وما أظن رجلا تسمو به ملكة القول أو توحى اليه الموجودات بروح الشعر أو تجعله الأفكار يسير بخطى متتالية الأسباب المنطقية واحدا بعد الآخر فى حاجة أن يثقل نفسه بكلمات تحتاج إلى الشرح والتفسير ممايدل على عدم دقتها وصلاحها للمعنى المراد منها. نشرت احدى المجلات المصرية مقدمة كتاب الرافعى لأول ظهوره وعدتها آية من آيات البلاغة. وانى لشديد الآسف أن لاأجد فيها هذه البلاغة وأن أراها ألفاظا متراكمة فوق ألفاظ وصورا عتيقة تتلو تشابيه ضعيفة المعنى. وانما أعطاها فى نظرهم هذا الثوب من البلاغة أنها سميكة الألفاظ صعبة الفهم لمن يحب أن يكون دقيق الفهم. وإلى القارىء بعض عبارات منها: «هذا التاريخ علم قد كثرت عليه الأيدى واضطربت فيه الأقدام. واستبقت اليه العزائم حتى عثرت بها عجلة الرأى ولجاجة الأقدام. وقد أخصب فى الأوهام حتى نفشت فى واديه كل جرباء وامتزج أمره بالأحلام الخ الخ» فأى بلاغة فى هذه الجملة التى لاتعطى معنى ذا قيمة يحتاج ضخامة التركيب إلى حد تصبح الكلمات فيه لامعنى لها.

أسلوب الكاتب مرآته. فالكاتب السهل الأسلوب السيال الألفاظ هو الكاتب السهل موارد الفكر. والشخص الذى يعتمد فى بلاغته على غموض المعانى فلا ينتقى الألفاظ الدقيقة لمعانيها الموضوعة لها انما يدل بذلك على عدم وضوح أفكاره أمام نفسه.

طريقة أبى السامى فى التألف

ويدل على ذلك ما اتخذه أبو السامى ـ وتلك هى الكنية التى اختارها الرافعى لنفسه ووضعها على غلاف كتابه ـ فى طريقة وضع كتابه وتأليفه. فانك تجده جاء مابين طرفيه بأخبار ومعلومات وضعها بعضها إلى جانب بعض بحيث يكون من كبير التجاوز أن نسمى هذا الوضع ترتيبا. وبالرغم من أنك تقرأ على غلاف الكتاب أنه «تاريخ آداب العرب» فانك تمر به من أوله إلى آخره ولاتكاد تقف على كلمة واحدة عن آداب العرب وتاريخها. تجد فيه كل شيء عن العرب الامايخص أدبهم. وكأن أبا السامى خشى أن لايجد عنده من مواد التأليف مايكفى ليظهر كتابه فى خمس أجزاء من «غرار الجزء الأول وحجمه» فنفد منه الجزء الأول قبل أن يكتب كلمة واحدة فى موضوعه. بل لقد كتب عن أشياء لاتتعلق قليلا ولا كثيرا بأدب العرب ولا بتاريخه. ويكفى الانسان أن يراجع فهرست الكتاب ليعلم أن مافيه لايفيد مريد الوقوف على الآداب العربية شيئا مطلقا.

ولقد حسبت حين رأيت ذلك أنه وضع للفظ الأدب معنى خاصا به. وقوى هذا الظن عندى أن التعاريف التى جاء بها عن الأدب تشمل تحتها علوما متعددة. فهذه الكلمة تشمل على حساب ابن الانبارى (راجع ص٣٢) «ثمانية علوم: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم. أما الزمخشرى فجعل علوم الأدب اثنى عشر». الرافعى نفسه يعتقد «أن كتب الآدب هى

على الحقيقة كتب العلوم التى مرت» وبما أنه كان يكتب عن تاريخ الأدب فقد حسب نفسه مكلفا بطرق أبواب كل هذه العلوم وايراد ماجاء عن العرب فيها.

ولو أنه سمى هذا الجزء من كتابه تاريخ اللغة العربية لكان أدق فى انتقاء عنوانه وأبعد عن أن يخدع القارىء الذى يحسب نفسه سيجد فى المجلد الضخم الذى يرى شيئا عن أدب العرب فاذا هو يراه خلوا منه على الاطلاق، حاويا لمواضيع بعيدة فى الغالب عنه، تتعلق بالنحو والصرف والفقة ولاصلة بينها وبين الأدب. هذا بخلاف قسم عظيم وضعه عن الرواية والرواة يخيل للقارىء أن يجد فيه شيئا عن الأدب فاذا هو متعلق باللغة وبالفقه ولايفيد المطلع عليه عن أدب العرب شيئا.

هذه المواضيع التى كتب فيها الرافعى مفيدة فى ذاتها وتستحق البحث وأن يتعمق فيها ويفتش عن دقائقها. لكن ذلك شىء وتاريخ أدب العرب شىء آخر. لابأس لو أن الكاتب جاء بكل ما جاء به عن هذه العلوم فى مقدمته للكتاب. لكنه لم يفعل . فلك أن تأخذ كل الجزء الذى ظهر دليلا على أن المؤلف ليست عنده فكرة عن أدب أية أمة من الأمم.خلط أبو السامى بين اللغة فى ذاتها وبين أدب اللغة؛ فصار حين وضع كتابه كالذى أراد أن يكتب عن الآلات البخارية فاطال فى البحث عن الحديد وأصله وكيفية تكونه فى طبقات الأرض وكيف أمكن استخراجه وكيف وصل الناس إلى الانتفاع به وكيف تناقلوه. فهل هناك انسان يفهم أبسط الفهم فى الآلات البخارية يستطيع حين يقرأ هذا البحث أن يقول أنه موضوع عن الآلات البخارية؟ كذلك لايستطيع انسان يقرأ كتاب الرافعى أن يقول أنه مكتوب عن تاريخ أدب العرب.

هذا، واذا نحن انتقلنا من هذه النقطة إلى غيرها واعتبرنا الكتاب فى ذاته بالنظر إلى المواد المجموعة فيه فماذا نرى؟

عنى الرافعي نفسه وبحث كثيرا فى كتب العرب وأراد ان يخرج من بحثه بنتيجة يفخر بأنها شيء جديد. أما المعلومات التى فى الكتاب فكثيرة ومنها المفيد. لكن النتيجة العامة لاتفيد الاالأقلين وفى مواضيع ليس بذات أهمية كبيرة.

من الفصول الطبية فى ذاتها وان لم يكن لها مساس بأدب اللغة الفصل الذى كتبه عن أصل اللغات. فقد أبان فيه عن فهم للأمور ووقوف على ملاحظات الكتاب والعلماء إلى حد يلذ القارىء ويفيده. واذا كان هو نفسه يعترف بأن ماكتبه ظنى أكثر منه علمى فذلك لاينقص من قيمته ولا من حسن تقديرنا له. فقوله مثلا (ص٤٨) « من ثم قيل ان الانسان يستعمل الصوت للدلالة بعد أن استكمل علم الاشارة ولذلك بقى الصوت محتاجا إليها احتياجا ورائيا ثم ارتقى الانسان فى استعمال الاصوات بإرتقاء حاجاته و ساعده على ذلك مرونة أوتار الصوت فيه. وبتجدد هذه الحاجات كثرت مخارج الأصوات واتسع الانسان فى تصريف ألفاظه فتهيأ له من المخارج مالم يتهيأ لسائر الحيوان» يدل على عدم تقيده بآراء المتقدمين تقيدا يبلغ حد التعصب.

لكن القسم الأكبر من هذه الفصول غير مستوفى بحثه. لذلك يغلب على ظنى أن المؤلف اعتبر جزأه الأول مقدمة لتاريخ الأدب وظن أن وقوف القارىء على كل هذه المعلومات ضروى ليتمكن من حسن تفهم أدب العرب. ومع بعد هذه الفكرة عن الحقيقة فقد كان ممكنا اغتفارها لصاحبها لو أنه عرف أن يلبس ما كتب صفة المقدمة حتى لايضل القارىء ويبلغ به الملال أن يعدل عن قراءة الكتاب. لكن والحال هى هذه فانا لا نستطيع دون الحكم على الكاتب بأنه سار على طريقة فاسدة وعلى الكتاب بأنه لم يصل إلى شيء مما أراده منه صاحبة.

أهم الصفات لزوما فى مقدمة كتاب من الكتب أن تدل على روح الكاتب وكيفية تقديره للأشياء التى يريد أن يكتب عنها. وليس من ذلك شيء فى كل

ماكتبه الرافعى. فانه كما سبق القول ليس صاحب أسلوب حتى تتابع فيه الفكرة فيتسنى للقارىء أن يخرج منه ينظره عامة ولكنه مجرد جمع لقواعد وأسماء وحوادث لاتظهر الصلة بينها. واذا نحن بالغنا فى التساهل واعتبرنا الجزء الأول مقدمة فانه لايفى بهذا الغرض لأنه لايقوم بذاته ولايؤدى فكرة مما أراد المؤلف.

والغريب أن روح النقد ضعيفة للغاية فى كل الكتاب، وسبب ذلك فيما أعتقد أن أبا السامى اعتبر نفسه عربيا مكلفا باقامة تمثال للعرب، لامؤرخا يأخذ الوقائع ويرتبها ليصل من ذلك لوضع تاريخ مفيد. فكلما جاء ذكرهم رأيته أرسل قلمه بالمديح من غير حساب حتى ليخيل للانسان أن عرب أبى السامى جماعة من الملائكة هبطوا إلى الأرض ولبسوا أجساما انسانية ثم أقاموا بين الناس ليكونوا مثال الكمال البشرى.. قال الرافعى (ص٣٥) العرب «هم جيل تدلت عليه الشمس منذ القدم فى هذه الجزيرة التى كأنها قطعة اختزلت من السماء مع الانسان الأول فلايزال أهلها أبعد الناس منزعا فى الحرية الطبيعية الأولى فهم منه ينبتون وعليه يموتون. سكان الفيافى وتربية العراء ينبسطون مع الشمس ويعيشون مع الظل ويطيرون في مهب الهواء. بل أولاد السماء ماشئت من أنوف حمية وقلوب أبية وطباع سيالة(؟) وأذهان حداد ونفوس منكرة. وقد أصبحت بقاياهم الضاربة فى بوادى العربية (أى بلاد العرب) ومصر وسورية لهذا العهد موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع (من هم؟) حتى أجمعوا على أنه لا بد لهذا الجنس فى جميع السلائل البشرية من حيث الصفات التى تتباين فيها أجناس البشر خلقا وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تستمر على سائر الأجيال بالنظر إلى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه (؟) وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج وقوام القلب ونظام نبضاته فضلا عما هى عليه من ملاحة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح وفضلا عما فى طباعها من الكرم والأنفة والأريحية وعزة النفس والشجاعة ..لاجرم كانوا أهل هذه اللغة المعجزة».

يخيل للانسان حين يقرأ هذا أن كاتبه أعرابى جاء من الصحراء يستجدى أحد أمراء العرب لامؤرخ ينظر للناس والحوادث بعين الناقد الدقيق. ولكن لاغرابة فان الرافعى مولع بقول الشعر ومرجعه فى كل معلوماته كتب العرب وأسفارهم. فلاشك فى أنه يأخذ عنهم من أخلاقهم مدح الآخرين والتغنى بأخبارهم والذهاب فى الفخر إلى غايات تظهر سمجة لمن لا يفهم طباعهم.

على أن ذلك ليس من شأنه أن يبعث للنفس ثقة بما كتبه الرافعى فمدار الثقة أن لايترك المؤرخ نفسه لشهواته وأهوائه يرسل القول على عواهنه، ولكن أن يتقدم للقارىء دائما بالبرهان، بين يديه أدلته معتمدا عليها مظهرا أن كل حركة من حركات نفسه يظهرها قلمه انما دعا إليها أمر معين يستدعيها . هنالك يجد القارئ نفسه مدفوعا ليعتقد صحة مايقرأ ويؤمن به.

على أن كتاب الرافعى وان خلا من حسن الطريقة وطلاوة التعبير وخرج عن الموضوع الذى كتب له فان فيه مجموعا من المعلومات والاخبار والحوادث وبعض آراء طيبة تستحق أن يقرأها من يريد أن يقف على بعض مسائل خاصة عن لغة العرب والاختلاف اللغوى بين القبائل وأصل الحديث وروايته واتخاذ الروايه طريقا لتدوين الشعر إلى غير هذا من المعلومات التي لاتعدم من يحب الاطلاع عليها. أما من يريد أن يقف على تاريخ أدب العرب فلا يتعب نفسه ولايضيع وقته بالبحث فى الجزء الذى ظهر من كتاب أبى السامى. ولنا شديد الأمل أن تكون الأجزاء التى ستظهر أشد مساسا بالموضوع الذى يكتبها صاحبها من أجله وأحسن عبارة وأدق وضعا.

جـــورجى زيـــدان

تاريخ آداب اللغة العربية

تفضل حضرة الكاتب المؤرخ جورجى افندى زيدان فبعث إلى بكتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» على غير سابق معرفة بيننا.

وتفضل فأرسل لى كلمة يسرنى جدا أن تكون أول تخاطب بينى وبينه. لذلك لم يسعنى حين وصلنى الكتاب الا أن أتفرغ لقراءته بامعان. فلما فرغت منه حسبت من الواجب على أن أكتب عن الأثر الذى تركته قراءته فى نفسى اعترافا بفضل صاحبه وتبيينا للقراء عن مبلغ تقديرى لقيمة مايحويه.

جرجى افندى زيدان من أكبر كتاب التاريخ فى مصر.. بل لاأبالغ اذا قلت انه هو الرجل الوحيد المتفرغ فى الوقت الحاضر لكتابة التاريخ. وتحت يدى قائمة كتبه تحوى من الكتب والروايات التاريخية أكثر من خمسة وعشرين كتابا تقع فى أكثر من ثلاثين جزءا. هذا غير كتبه فى الموضوعات الأخرى. وإذن فقبل أن يفتح الانسان كتابه فهو واثق من أنه سيقرأ كتابة مؤرخ درس التاريخ وعرف ماهو.

ولتاريخه فى آداب اللغة العربية من الفضل أنه جاء بعد تجربة طويلة وحنكة وخبرة بالطرق فى أساليب التأليف وكيفية ترتيبه. لذلك ننتظر منه دقة كثيرة فى الوضع. واذا حاسبناه على شيء حاسبناه بالدقة عينها؛ فلا نتجاوز معه كما نتجاوز مع من لم يطرق كتابة التاريخ الاحديثا ولا نتهاون فى عدم التحقيق أو السهو أو نحو ذلك.

وانما ندقق كذلك لعلمنا أنه يقابل نقدنا بصدر رحب ويجيبنا اذا دعت الحال عن أسباب ما قد نرى مما يستحق النقد ـ يسمع كلامنا ويحيينا بهذه الروية والسكينة التى هى من طبع العالم البحاثة ولا يفعل فعل غيره من الذين يطرقون باب الكتابة أو التأليف جديدا، يستفزهم الغضب كلما أظهر ناقد خطأهم فى شيء كأنهم يحسبون أن ماجاءوا به هو الكمال.

كتب جرجى أفندى زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتابا فى التاريخ كما قدمنا. ويظهر حين قراءتها أن غرض المؤلف منها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التى وقعت فى الماضى ولتكون عندهم فكرة عامة عن العالم بأسره أو عن أمة بعينها. أريد أن أقول أن جرجى أفندى زيدان لايقصد من مؤلفاته التاريخية إلى تأييد فكرة له فى طريق سير العالم كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب التاريخ ولكنه يريد نشر المعرفة، وذلك ما يسميه الافرنج Vulgarisation

هذا فيما أعتقد هو الغرض الذى يومى إليه صاحب (تاريخ آداب اللغة العربية). ويقوى أعتقادى هذا طريقة المؤلف فى التأليف وأسلوبه فى الكتابة. فانك تراه واضح الأسلوب تماما. يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التى يتفاهمون بها فى جرائدهم ورسائلهم لابتلك اللغة المخصوصة التى يتخذها جماعة من الكتاب درعا لهم يقيهم عند غموض الفكرة أوفساد التعابير التى يجيئون بها. ويكتب من غير عناء ولاتكلف، بل يرسل قلمه حرا إلى أقصى درجات الحرية. لذلك يجيء أحيانا بتعابير لو استعادها

الكاتب أمام نظره لرآها غير صالحة في الكتابة. كما أنه يجيء أحيانا أخرى بتعابير غريبة خاصة له. كقوله مثلا فى مواضع متعددة من كتابه «إلى هذه الغاية» يريد بذلك أن يقول (إلى الآن) ومثل ذلك تعبيران أو ثلاثة يجدها القارىء ثم يعتادها باعتياده لغة المؤلف.

وبهذا الأسلوب البسيط يعبّر عن كل مايريد ويفهم القارىء بكل دقة الفكرة التى تجول فى نفسه. ثم هو لا يلجأ فى كتابته إلى اللغة الخطابية الا نادرا. بل تراه يذهب فى قصصه التاريخ الذى يريد أن يقصه بكل سهولة وبساطة. يعبر عما فى ضميره كما هو فى ضميره لايجتهد فى تفخيمه ولا تجميله ويحكى القصة التى وقعت كما وقعت من غير حاجة لإلحاق كل عمل منها بالصفات والمترادفات التى يضعها بعض الكتاب فى كل المواضع ولو مع عدم لزومها.

إذن فهو انما يريد من كتابته أن تؤدى فكرته (من حيث ترتيبها وسبكها فى عبارة سهلة سالمة من الركاكة والتعقيد) كما يقول فى مقدمة الجزء الثانى من كتابه. ويرى ذلك شرطا لازما لمن يريدون بكتابتهم خدمة المصلحة العامة. أما من يكتبون (فى شؤون خصوصية) أو (يكون مرماهم من التأليف بيان قدرتهم على الانشاء والغوص إلى المعانى العويصة والألفاظ الغريبة فهؤلاء وأمثالهم يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل ولكن فى غير الخدمة العامة).

هذا هو أسلوب جرجى أفندى زيدان وهذا هو رأيه فى الكتابة. وهو لاشك محق فى اعتبار جماعة الذين يكتبون اللغة القديمة (أصحاب فضل ولكن فى غير الخدمة العامة).

اذا اتفقنا مع جورجى أفندى زيدان على هذه النقطة وجب علينا بعد ذلك أن نتعداها. وهى التساؤل عن الأسلوب الجيد أى شىء هو؟ ها عدد من الكتاب يكتبون

باللغة العربية المصرية ويفهمهم الناس جميعا ويؤدون أفكارهم بعبارة خالية من الركاكة والتعقيد. فأيهم أجمل أسلوبا وأمتن عبارة؟

ليس من الممكن وضع قاعدة لقياس جمال الأساليب ومتانتها فلكل نوع من الأدب ولكل كاتب ذئ قيمة أسلوب خاص فى كتابته. وقوة الآسلوب وجماله يحس بهما الانسان ويعرف أسبابهما فى شيء خاص أو رجل خاص. لكنه لايستطيع أن يستنبط من تجاربه ـ على ما أعتقد ـ قاعدة معينة مطردة. فاذا قلت أنى أعتبر أحسن الاساليب الأسلوب السيال الدقيق الذى يحوى روح الكاتب ويجذب إليه القارىء ويكون بذلك واسطة لطيفة فى التعارف بينهما تعارفا يجعل الثانى يفهم الأول باشارة خفية أو يصعد معه إلى سماوات الشعر أو يرى بعينه الأشياء التى يكتب عنها ـ اذا قلت ذلك لم أكن جئت فى تعريفى بكل الأساليب.

على كل حال يرى القارىء أنى أعلق الأهمية الكبيرة على الكاتب أريد أن يظهر هو بشخصه فى كتابته. وانما يكون ذلك بأن يبدع فيها شيئا جديدا فى اللفظ أو فى المعنى يميزه عن غيره ويجتذب اليه قارئه. حينذاك يكون صاحب أسلوب متين وكاتبا مقتدرا.

هذا النوع من الكتاب قليل الوجود فى مصر. ذلك بأن أكثر كتابنا لايفكرون بل هم ينقلون أفكارا قديمة يضعون بعضها إلى جانب البعض، وينقلونها أغلب الأحيان بالكلمات التى قالها بها أصحابها فكل مالهم من الفضل فى كتابتهم هو اختيار وترتيب هذه الأفكار والألفاظ. وأما الكاتب المنطقى الذى يبدأ من مبدأ معين فى نفسه ويستمر يرتب بعد ذلك نتائج هذا المبدأ واحدة بعد الأخرى كما هى مرتبة فى رأسه ليصل أخيراً إلى ا لنتيجة المطلوبة، والشاعر الذى يستمد الخيال من المناظر والحوادث والأشياء التى حوله، والقصص الذى يرى الناس وأحوالهم وينقل منها

صحيفة تطابق الأثر الذى تركته هذه الأشياء فى نفسه ـ على العموم الكاتب الذى يريد أن يخاطب الناس بما يرى هو، يكاد يكون غير موجود فى مصر.

جورجى أفندى زيدان من الكتاب الذين يتوخون فى كتابتهم أن ينقلوا للقراء فكرتهم (بألفاظ خالية من الركاكة والتعقيد)، وتلك إحدى فضائل الكتابة عنده. غير أنه يرى التعمق فى الأفكار أو التعمق فى ا لألفاظ خروجاً على قاعدة الكتابة للمصلحة العامة. أى أنه يرى أن الكتابة للمصلحة العامة يجب أن تكون من البساطة بحيث تكون فى متناول كل ا لأفهام. وبما أن مستوى كل الأفهام هو دائماً غير راق فهو ـ إما مريداً أو بميله الطبيعى ـ يجعل كتابته دائماً قريبة من هذا المستوى.

قلنا إن لجورجى أفندى زيدران أكثر من خمسة وعشرين كتاباً فى التاريخ تقع فى أكثر من ثلاثين مجلداً، وقلنا إن الظاهر أن مراده نشر المعرفة فهو يكتب بما يعتقده أسلوب النشر. وبما أن الذين سبقوه لذلك قليلون جداً، وبما أنه يريد مخاطبة المجموع، فهو معذور إن بقى أسلوبه غير ذلك الأسلوب العذب الجذاب الذى تمتاز به اللغة السهلة مادامت فيه صفة الوضوح التى تمكن كل الناس من فهم ما يريد.

ويظهر غرضه أيضاً فى طريقة تأليفه. فهو فى الغالب يجىء بالأفكار والحوادث العامة ليخرج قارئه منه بفكرة عامة فى تاريخ الأمة التى قرأ ما كتبه جورجى أفندى زيدان عنها. وهو لا يقف عند الحوادث الصغيرة يريد أن يستفسرها عن معنى الحوادث الكبيرة، لأنه ـ على الأقل فيما يظهر من كتاباته ـ يرى ذلك غير ضرورى لعامة القراء.. فإذا أنت جئت على كتاب من كتبه لم تصل إلى العلم بدقائق ما كتب عنه ولكنك تكون قد عرفت الأفكار العامة التى تفسر الحوادث العامة التى شرحها لك.

وربما ساق جرجى أفندى غرضه أحياناً لأن يكون ناصحاً أو أخلاقياً. فتراه فى كلامه يمدح الفضائل بطريقة تحبب فيها وإن يك من طرف خفى مما يدل على

حسن اقتداره. لكن ذلك من شأنه أن يجعله أحياناً يقع فى أغلاط تاريخية كان من السهل تجنبها.

* * *

لما تكلم المؤلف عن تاريخ آداب العرب قسمها باعتبار الأزمان التى وقعت فيها. فزمن الجاهلية ثم زمن الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين الخ. وهذ التقسيم حسن يؤدى إلى الغرض الذى يرمى إليه المؤلف من تعميم معرفة هذا التاريخ أحسن من أى تقسيم آخر. ذلك لأن الذى يطلب الاطلاع على نوع معين من أنواع الأدب وكيفية تقلبه على مختلف عصور التاريخ، فى الغالب يريد أن يتعمق فى هذا الباب قدر المستطاع، وذلك كما بينا ليس هو غرض جرجى أفندى زيدان

متابعة له فى هذا التقسيم نرى أن نسير فى نظرنا إلى الكتاب متتبعين هذه العصور المختلفة من تاريخ الأمة العربية واللغة العربية.

* * *

١ ـ عصر الجاهلية

والآن نبدى نقدنا على ما يستحق النقد فى كتاب جورجى أفندى زيدان عن عصر الجاهلية، ونبدأ فننقد الصورة التى وضع بها معارفه التمهيدية. فإن الذى يقرأها يكاد يتصور أن عرب الجاهلية، على أنهم قوم بدو رحل، قد بلغوا من العظمة فى العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم فى القرن العشرين. وذلك أمر لا يسهل تصديقه، خصوصا وأن المؤلف يتقدم لتأييده بحجة قاطعة، بل بنى رأية على استنتاجات ظنية أخذها عن مقدمات يمكن تفسيرها بشكل مختلف عن تفسيره هو إياها كل الأختلاف وإلى القارىء مثلا من ذلك. قال المؤلف عن ارتقاء الجاهليين فى السياسة والعمران.

«على أنك اذا نظرت فى لغتهم تبين لك أن أصحابها من أرقى الأمم سياسيا واجتماعيا وإن عرفناهم بدوا وحالة - واللغة دليل أخلاق الأمة ومرآة آدابها وسائر أحوالها - ومن المقرر أن اللغة لا تتولد فيها كلمة الا للتعبير عن معنى حدث فى أذهان أصحابها. فإذا وجدنا فى لغة من اللغات اسما لنوع من اللباس نحكم قطعيا أن أصحابها عرفوه أو لبسوه، أو نوعا من الأطعمة عرفنا أنهم أكلوه.

«واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالألفاظ العمرانية والسياسية. إن فيها عشرات من الألفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم، وعشرات منها عن فرق الجند، وفيها للتعليم والورق عشرات من الأسماء والألقاب ولكل منها معنى خاص».

ولست أدرى كيف يفسر بذلك رقى العرب الجاهليين فى السياسة والعمران. العرب الجاهليون بطبيعة حياتهم البدوية ينقسمون إلى قبائل كبرى وصغرى، ومن شأن ذلك أن يستدعى اختلافا فى تسمية كل نوع من هذه القبائل خصوصا وأن التعداد المضبوط الذى نعرفه نحن لم يكن معروفا عندهم. كما أن إختلاف القبائل كان يجعل كل قبيلة تجىء باسم مخصوص لشىء له أسم آخر فى قبيلة أخرى، فإذا ما تقاربت استعارت كل واحدة منهما كلمة جارتها وخصصتها لمعنى. وهذه هى الأسباب أيضا فى تعدد أسماء فرق الجند، أضف إلى ذلك ما فى طبائع العرب من الغزو. كما أنى لا أظن المؤلف يقول أن ما عند العرب من أسماء فرق الجند يزيد على ما عند الأمم الراقية اليوم.

ومثل هذا الخطأ فيما يتعلق برقى العرب الجاهليين السياسى والاجتماعى وقع للمؤلف فيما يتعلق برقيهم الأخلاقى. وأضرب لذلك مثلا ما جاء فى صلب الكتاب عن مبلغهم من الأنفة والعفة. فقد ذكر المؤلف أن العفة كانت عندهم كل شىء. وضرب لذلك مثلا ما ثار من الحروب دفاعا عن المرأةوعرضها، كأنما اعتبر أن

العرب الجاهليين يتكونون فقط من رؤساء القبائل. ثم استشهد للتدليل على ذلك ولذكر الفرق العظيم بين عفة هولاء المتقدمين وتهتك المتأخرين بقول عنترة:

واغض طرفى أن بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواها

وقارنه بقول أبى نواس:

كان الشباب مطية الجهل
ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا
حتى أبيت خليفة البعل

ولست أدرى كيف يقيم المؤلف المقارنة بين عنترة وأبى نواس، أى بين شاعر حماسى غزلى وشاعر متهتك. فقد كان من السهل مقارنة عنترة بغيرة من أمثاله الحماسيين أو الغزليين. كما أن فى الجاهلية التى منها عنترة جماعة من كبار الشعراء هم مثل الفسوق فى أشعارهم. وأقرب ما يحضر لذهن أى إنسان قول امرىء القيس وهو أقدم من عنترة وأعرق فى الجاهلية:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول

والبيت الذى بعده أبلغ فى التهتك كما هو مشهور أو قوله:

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها

عليه القتام كاسف الظن والبال

أو قول المنخل البشكرى:

ولقد دخلت على الفتاة

الخدر فى اليوم المطير

فدفعتها فتدافعت

مشى القطاة إلى الغدير

أو بعض أبيات قصيدة النابغة التى فيها:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه

فتناولته وأتقتنا باليد

أو غير ذلك مما لا يحصره العد. وإنما كان الكلام عن العفة أكثر فى أيام الجاهلية لأن انقسام العرب إلى قبائل جعلهم يحتفظون بالأنساب لحفظ العصبية. ولذلك ترى مؤرخيهم يردون نسب كل من يترجمونه إلى أصل قبيلته. كما أن المفاخرة بالانتساب إلى جد معين كعدنان أو سواه جعلت العفة عندهم من أمهات الفضائل. لكن اعتبار جماعة أو أمة لشىء أنه فضيلة ليس معناه قمع الطبيعة البشرية.

كذلك أخطأ المؤلف فى تقدير عالى حكمتهم. فقوله مثلا عن أشعار زهير المعروفة:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

والأشعار التى بعده.قوله عنها (لا تقول شيئا عن أحكام ـ ولعله يريد حكم ـ أكابر الفلاسفة) فيه من المغالاه الظاهرة ما يعجب الإنسان له. وإنى مع اعجابى بهذه الاشعار لا أرى فيها ما يجعلها من نوع الفلسفة.

مثل هذا الخطأ تجده فى اعتباراته التمهيدية كما تجده فى غيرها. السبب أن المؤلف فيما يظهر شديد الاعجاب بعرب الجاهلية فهو لا يرى إلا الوجه الحسن من تاريخهم، أو هو يريد أن يجدهم كما وجدهم غيره من كتابنا «مثال الكمال البشرى». أو أنه ربما يسير فى الكلام عنهم على قاعدة «اذكروا محاسن موتاكم».

كيف يكون ذلك من رأى جورجى أفندى زيدان؟ كيف يعتبرهم آلهة لا تتطرق الشهوات الانسانية إلى نفوسهم حيث يقول فى كلامه عن نساء العرب فى الجاهلية: «فاجتماع الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن لم يبلغ اليه الناس إلا فى الأمم الراقية وفى أرقى جمعياتهم» ؟ تصور ذلك وطبقه على حال العرب البدو الرحل. كم كان هؤلاء الناس ملهمين كل الفضائل والصفات العالية! كم كانوا عليه من العفة والطهارة! أو لو كان بينهم امرؤ القيس والكثيرون من أمثاله؟ أفلا يضر ذلك شيئا. لا أظن الناس كانوا فى زمن من الأزمان من العصمة بالمكان الذى يريد أن يحملنا جماعة الكتاب على تصوره للعرب. بل كانوا جميعا ـ العرب وغير العرب ـ يسعون إلى جهات الخير والشر. وليس الرقى دائما تابعا لما نعتبره نحن فى مصر الفضيلة؛ بل أظن كثيرا من أهم فضائلنا نحن المصرين من معطلات الرقى. العرب كغيرهم، أمة عاشت فى زمن مخصوص مدفوعة كغيرها من الأمم لارضاء حاجاتها المادية وغير المادية اما بطرق حسنة أو بطرق خسيسة. وليس أهون على من يريد الوقوف على ذلك من أن يقرأ أخبارهم كما جاءت فى كتبهم. والأغانى والأمالى وغيرهما بين أيدينا مثل حى على ما كان هناك.

أما أن يحسب كاتب أن تمثيل العرب فى صورة من الكمال يحمل القراء على تحرى مثلهم؛ أى أن يكون المؤرخ فى الوقت عينه كاتبا أخلاقيا فذلك وهم فى تصوره وخطأ وتجن على التاريخ. وهو وهم لأن المرء انما يتأثر بالوسط الذى يعيش هو فيه أولا وقبل كل شيء. فإذا كان ثمت تأثير لمثل هذه الكتابة فهو ثانوى وبسيط ولا يستحق أن يغير من أجله معنى الحوادث.

المؤرخ مطالب قبل كل شيء بأن يثبت حقيقة الوقائع والأشياء التى يتكلم عنها. فإذا لم يتمكن من اثباتها كانت غير تاريخية بالمعنى العلمى. وسواء كان فى فى اثباتها اظهار لفضيلة أو بيان لرذيلة فليس ذلك ليجعل المؤرخ يغير من حقيقتها شيئا، وإلا خرج عن أن يكون مؤرخا.

التاريخ لا يكتب اليوم ليرى الناس صالح أعمال سلفهم فيتبعوه وسيئها فيتركوه كما كان يخبرنا المؤرخون القدماء. فقد أثبتت التجارب أن الناس يسيرون فى طريق مرسوم لهم بالحوادث والأشياء المحيطة بهم. وليس يكفى أن يريدوا تغيير هذا الطريق ليتغير. كما أن التجربة أيضا دلت على أن السارق لا يكفيه أن يسمع أن السرقة عار أو أنها تؤدى إلى السجن ليرجع عنها.

* * *

لماذا إذن يكتب التاريخ؟ لماذا نكتب آداب العرب أو ندون علومهم؟ لماذ نضيع أعمارنا ونهب أنفسنا للبحث عن آثارهم؟.. للسبب الذى من أجله يكتب الأفرنج آداب اليونان أو الرومان! وما هو ذلك السبب؟.. الكثيرون منا وأكثر الذين تصدوا لهذا الموضوع يقولون أنهم يكتبون أدب العرب حبا فى العلم والحقيقة وحتى يعرف أبناء العرب تاريخ أجدادهم ومجد هؤلاء الذين ملأوا الدنيا بفتوحاتهم وبأشعارهم! ثم ما دام الغربيون يكتبون آداب لغتهم وآداب لغات الأمم القديمة المدينة، بل ما دام

منهم من يتصدى لآداب اللغات الشرقية، فمن العار أن نبقى نحن الشرقيين من غير أن نتحرك بأنفسنا لهذا العمل، بل من غير أن نقضى أعمارنا فيه! من العار أن نترك غيرنا يبحث عن نفائس لغتنا من غير أن نبدى نحن أكبر الهمة فى ذلك! من العار.! هذا ما يقوله الواحد منا فى نفسه. وخوف العار هو الذى يدفع الأكثرين منا للعمل. فاذا تحركنا وبحثنا عن الحقيقة التى نريد ووجدناها ودفعنا العار بذلك عن أنفسنا لم نعرف ماذا نعمل بها وكيف نستفيد منها. وكأنا لا نعلم أن السعى وراء الحقيقة التى لا ننتفع منها بأكثر من أن نعرفها أمر لا قيمة له. وإذا كان كتّاب التاريخ إنما يكتبونه ليوقفونا على أخبار الماضين من غير نظر إلى ما بعد ذلك فما أضيع تعبهم! إنما يكتب العلماء ويبحثون وينقبون عن الحقائق الماضية من أجل نفع الحاضر والمستقبل. أى لتتبين لهم سلسلة حياة أمة من الأمم أو سلسلة حياة الإنسانية فيستطيعون أن يصفوا لها طريقها الممكن اتباعه فى الحاضر للوصول إلى أكبر قسم من السعادة لأعظم عدد من الناس وليكونوا على علم بما سيكون فى المستقبل حتى لا يكون عملهم الحاضر سببا فى سوء ينال الأجيال المقبلة.

قضى الانسان حياته شاغلا نفسه بالتفكير فى مستقبلة. وبما أن الأشياء الغامضة هى أكثر ما يلفت الذهن كانت نظرية ما بعد الموت هى الشاغل الأكبر لأهل العصور الأولى. فقدروا لحياتهم فى القبور وجعلوا نصب أعينهم مثال الجنة والنار وأشكال العذاب والثواب لكل واحد من الناس. ولا يزال ولن يزال من كبار المفكرين والفلاسفة من يشتغلون بالبحث عن مصير الإنسان. لكن الكثيرين منهم يرون فى الحياة غاية الحياة. لذلك قام منهم من يوجه أكثر نظره لحاضر الأمم ومستقبلها. وإنما يصلون لذلك بملاحظة الحاضر واثبات صورته ثم النظر فى التاريخ إلى أصوله. بذلك يمكن تقدير الطريق الذى تسير هذه الأمم فيه ـ وهذا هو الغرض من الأبحاث التاريخية.

هل يريد كتابنا ذلك حين يكتبون عن أدب العرب؟ هذا هو الذى كنا نريدهم أن يصنعوا. ولكنهم مع أكبر الأسف لم يصنعوه.

جرجى أفندى زيدان كان أحرى الناس على سعة معارفة التاريخية بأن يختط هذه الطريقة ويرمى لهذا الغرض. وأول المطلوب من المؤرخ الذى يرمى لهذا الغرض أن يتحرى فى التاريخ الذى يكتب كل دقيقة وجليلة وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط، وقد رأينا أن صاحب تاريخ آداب العرب لم يقم بذلك على الوجه الأكمل.

بل أن ما وقع فيه من الخطأ من هذا القبيل يتعدى المعارف التمهيدية إلى تاريخ أدب العرب أى إلى موضوع الكتاب ذاته. مثال ذلك أن المؤلف جعل الجاهليين أبعد الناس عن المبالغة فى تعبيراتهم وإنما هم يصفون الطبيعة على ما هى عليه. ومع أنى أقتصر على ما جاء فى صلب كتابه من الأشعار أجد كثيرا منها يرد على نظريته هذه بقوة أعتقدها لا تدفع. فإذا كان هو يعتبر رثاء جليلة لكليب زوجها حين قتله جساس أخوها «بعيدا عن أن يوهم القارىء أن السماء انطبقت على الأرض وأن الشمس كسفت الخ» فإن فى أبيات المهلهل يرثى كليبا أيضا.

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها

ان أنت خليتها فيمن يخليها

نعى النعاة كليبا لى فقلت لهم

مادت بنا الأرض أو مادت رواسيها

ليت السماء على من تحتها وقعت

وحالت الأرض فانجابت بمن فيها

فى هذه الأبيات ما يبين عن معنى أقوى من كسوف الشمس بل أقوى من انطباق السماء على الأرض مع أنها آية فى التعبير عما فى نفس الشاعر من الحزن والغضب.. وكم من المبالغة يجد القارىء فى قول عامر بن الطفيل:

وما الأرض إلا قيس عيلان كلها

لهم ساحاتها سهلها وحزونها

وقد نال آفاق السموات مجدنا

لنا الصحو من آفاقها وغيومها

وكم من المبالغة أيضا فى أشعار عنترة الحماسية وفى أوصاف امرىء القيس للخيل. بل أى شاعر عربى لم يصل إلى أسمى درجات المبالغة.

يكاد الإنسان حين يرى ذلك كله يقول أن جرجى أفندى زيدان لم يدخل إلى روح العرب لكى يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتش ويعرف دقائقها ويتمكن بذلك من الوقوف على السبب فى ترتيب الوقائع والأشعار والأخبار فى هذه الأمة بشكل مخصوص. ولكن الإنسان يتردد كيف ينكر عليه ذلك مع ما ألف فى تاريخهم ولغتهم وآدابهم وأخبارهم كل ذلك الذى ألف. غير أنا نأسف أن نجد كل هذا الذى اعتبرناه خطأ فى فهم العرب كما أنا نأسف أيضا أن نجد ألفاظا غامضة لا يستطيع الإنسان أن يفهم منها رأى المؤلف عن العرب . فمثلا قوله عن الكهانة أن الكاهن كان اذا استفسر عن رؤيا «تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب» معناه أن هولاء الكهان كانوا لا يعتقدون بحقيقة ما يقولون. مع أنا نجد مثلا عن نبؤة جماعة من العرب كورقة بن نوفل فى كتاب جرجى أفندى نفسه. كما أن أخبار الكهان الواردة فى تواريخ العرب تدل على أن هؤلاء الناس كانوا يعتقدون بصحة حرفتهم. فهلا أعطانا المؤلف الأسباب التى استنتجها من بحثة لتدل على مجرد «تظاهر» هؤلاء الناس.

ولما انتقل المؤلف من الكلام عن الإعتبارات العامة والمظاهر الأدبية للعرب الجاهليين إلى الكلام عن كل شاعر على حدة جعل يكتفى بايراد أشياء قليلة عن أخبار هؤلاء الشعراء وحياتهم، لذلك لم يكن فى كتابة متسع لنقدهم! وهو انما يخبرنا عن الصفة العامة الظاهرة فى شعر كل منهم. فواحدهم وصاف للخيل والنوق، والثانى يجمع الحكم فى أشعاره المتينة، والثالث معروف بحسن الديباجة ومتانة التركيب. وعندنا أن من الواجب تحليل الشاعر أكثر من هذا واظهار صفاته بتطويل بعض الشيء. وإلا كان الذى اطلع ولو قليلا على أشعار العرب وأخبارهم لا يستفيد من قراءة هذه التراجم شيئا مطلقا.

أطلنا الكلام عن الجاهلية ونقد كتاب جرجى أفندى زيدان فيما كتبه عنها. السبب فى ذلك أنه هو أيضا أطال القسم الذى أفرده لها. اطاله بحق لأن هذا القسم من أدب العرب هو الأساس لما بعده. والمؤلف أراد أن يوقفنا على حقيقة هذا الأساس. وقد قدمنا رأينا للقارئ ونظن الآن مناسبا أن ننتقل لعصر الراشدين.

* * *

٢ ـ عصر الراشدين

كان الجاهليون قوم بدو يسيرون حيث المرعى أو المغنم. لذلك لم يكن ببلاد العرب إلا مدن قلائل. وكانت الديانة الغالبة عند جميع العرب يومئذ هى الوثنية. والوثنية بقية دين قديم. والأديان جميعا كلما قدمت دخلها التمثيل أحيانا بالكواكب وأخرى بالحيوانات وثالثة بالأصنام إلى غير ذلك من أنواعه الكثيرة. والأمثلة على ذلك متعددة عند القدماء من المصريين واليونان والعرب وعند أمم كثيرة اليوم. وفى فرنسا بلد اسمه (لورد) يحج إليه الكاثوليكيون من كل جانب ويعتقدون فى قبر (سيدة لورد) قدرة آلهية كبيرة تشفى المريض وترد إلى المجنون صوابه.

هذا التمثيل ذهب به العرب بعيدا فانتهى إلى أن صارت أصنامهم آلهة وأن صاروا يعتقدون فيها القوة والجبروت. لكن مثل هذا التمثيل عندهم اذا جاز على العامة فإن كثيرين ممن يفكرون يرون ما فيه من العته. على ذلك كان بعض العرب ممن تقدم الاسلام كأمية بن أبى الصلت وغيره ينصرفون عن الدين العام ويفكرون لانفسهم.

لكن هؤلاء الناس كانوا يقتصرون على اختطاط طريق حياتهم هم ولا يقومون بالدعوة إلى معتقداتهم. وسبب ذلك فى الغالب شىء من عدم الاهتمام بالمجموع أو من عدم الثقة المطلقة بالعقيدة التى وصلوا إليها.

تكونت الفكرة عند العرب بفساد المعتقدات السائدة قليلا قليلا وتأثرت آدابهم بهذا التغيير. فصرت ترى فى القسم الأخير من عصر الجاهلية جماعة غير قليلين من الشعراء والخطباء يبدون ما فى نفوسهم من الشك فى عبادة الأصنام. كما أن كثيرا من العادات السائدة يومئذ كانت من الوحشية بحيث تستفز النفس. كوأد البنات مثلا، وكاخلاق شتى فشت بين العرب مع أنها تنافى الفضيلة أو تنافى طبيعة بلادهم.

وسط هذه الحال من الأخلاق والعادات العامة وبين هاته الشكوك التى أبداها جماعة المتكلمين وجوابا لانتظار الناس لمصلح يهديهم ولنبى قد حان حينه وأدرك (العرب) أوانه. بين ذلك كله، ووسط هذه الأمة السامية الأصل قام النبى صلى الله عليه وسلم داعيا لعقيدة جديدة ومصلحا كبيرا.

كان من أثر قيام النبى بالدعوة وإجابة الناس إياه أن اجتمعت كلمة القبائل ثم جعلوا يسيرون فى الأرض ينشرون الدين ويغزون ويفتحون البلاد. وكان من أثر ذلك على الأدب أن راجت سوق الخطابة وسبقت الشعر الذى كان الكل إلا قليلاً فى آداب العرب الجاهليين. والسبب فى أن سبقت الخطابة الشعر هو كما يقول جرجى

أفندى زيدان «حاجة المسلمين إليها فى الفتوح والغزوات والعرب لا يزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت فى قالب الخطابة أو فى الشعر... فكما كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب؛ لفرط حاجتهم إلى الشعر فى تقييد مآثرهم وتفخيم شأنهم والتهويل على عدوهم والتهيب من فرسانهم أصبح الخطيب فى الإسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم إلى الخطابة فى استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وإرهاب الأعداء» (ص ١٩٣ ج ١).

وهناك لذلك سبب آخر مرجعه الفرق بين الحياتين: حياة الارتجال التى كان عليها الجاهليون وحياة الغزو الذى شغل به المسلمون. فإن فى حياة البدوى السارى على ناقته تهزه بلطف فوق ظهرها ويبعث النسيم والفضاء بخيالاته إلى أقصى غايات التصور وتعرض عليه صور الأشياء وذكرى من تركهم وهو يهتز فى سكينة فوق مركبه ما يدفعه للتغنى والحداء والتوقيع، أو بكلمة أخرى ما يدفعه لقول الشعر يذكر فيه كل ما مر بخياله. فى حين أن حياة الحرب حين تقف الجموع متأهبة للقتال ويتوقع الناس الموت لحظة والنصر أخرى وتتدافع فى نفوسهم الإحساسات أو حين يكونون فى مأزق حرج يريدون الخروج منه. هذه الحياة تخلق من طبعها رئيساً يصيح فى مرؤوسيه بالأمر أحياناً وبالاستفزاز أخرى، أى أنها تخلق الخطابة.

لا شك أيضاً فى أن ورود القرآن بالنثر وقوله «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون». لا شك فى أن ذلك ليس من شأنه أن يحرض على قول الشعر والناس فى تلك الفترة الأولى من الإسلام كانوا يحرصون كل الحرص على اتباع الكتاب شأن كل أمة عند ظهور مذهب جديد. كما أن الخلفاء كانوا يصرفونهم عن قول الشعر.

هذه النقط كلها استظهرها جورجى أفندى زيدان فى كتابه واستظهرها فى بعض الأحيان بالدقة وضرب الأمثال. ثم ذكر السبب الذى من أجله لم يترجم شعراء

هذا العصر فى هذا الباب من الكتاب وذلك أنه ترجمهم (مع شعراء الجاهلية لأنهم نشأوا وتطبعوا بطباع أهلها).

لكنه لم يترجم الخطباء ولم يذكر السبب فى سكوته على ذلك. إذ كل ما ذكره لنا عن على بن أبى طالب وهو بلا شك من الأدباء الخطباء ذوى القيمة كلمة بسيطة ـ على الهامش إن صح هذا التعبير ـ حين تكلم عن الخطابة والخطباء، هى أن خطبه تعد بالمئات وأنها مجموعة فى كتاب (نهج البلاغة). لكنه لم يذكر لنا شيئًا عن الصفة المميزة للخطيب فى خطبه ولا عن الروح السارية فيها.

وأهم من ذلك سكوته المطلق عن القرآن والحديث كأنهما لا يدخلان فى تاريخ أدب اللغة العربية بينما يدخل الطب والكهانة. وأحسب أن لنا من الحق أن نسأل عن سبب هذا السكوت. لِمَ لَمْ يذكر المؤلف شيئًا عن التاريخ الأدبى للقرآن وصلته بالأدب الجاهلى والفرق بينهما؟ القرآن كتاب كريم ذو شأن عظيم. لا فى أمر الدين الإسلامى فقط بل كذلك فى أمر آداب الأمة العربية وسياستها وكل جهات حياتها. لذلك كنا نود أن يوقفنا كاتب (تاريخ آداب اللغة العربية) على الأصول الأدبية التى استمد منها هذا الكتاب وجوده.

ولقد وضعت نفسى موضع المؤلف وسألتها عن سبب هذا السكوت فلم أجد جوابًا صريحًا أقتنع به... وأخيرًا قلت لعله رأى أن فى كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما وقيمتهما الأدبية ما يمس بعض العقائد. فليس مما يتصور أن المؤلف لم يجد فى ذلك ما يستحق الكلام عنه. أم لعله اعتبر هذه الفترة القصيرة التى جاء فيها النبى والخلفاء الراشدون فترة عرضية فى حياة الأمة العربية ثم كان ما أشار إليه من رجوع العرب فى عهد الأمويين إلى الروح الجاهلية يجعل النظر إلى هذه الفترة كالنظر إلى حادثة طارئة فى حياة أمة من الأمم. وليس من الضرورى عند تدوين التاريخ التطويل فى ذكر الحوادث الطارئة؟ أم ماذا؟

أما إذا كان السبب مراعاة العقائد العامة. فإن ذكر تاريخ القرآن والحديث لا يمس هذه العقائد فى شيء. ذلك بأن كل مسلم يعلم أن القرآن جاء بلغة العرب مراعياً فى نزوله عوائد العرب وعقائدهم السابقة. فما جاء فى تحريم الخمر أو تحريم الربا أو غير ذلك من الآيات إنما جاء متعاقباً ولم ينزل مرة واحدة لكيلا يتحرج به الناس وهو دين يسر لا دين عسر. لذلك كان ما يريده المسلم المحب لدينه اليوم أن يقف على مبلغ التغيير الذى أحدثه الكتاب فى العقائد والعوائد التى كانت موجودة قبله. وبما أن المقام مقام الكلام عن الأدب فكل مسلم لا شك يريد أن يعرف الصلة الأدبية أو الفرق الأدبى بين القرآن وما قبله.

قدمنا ما ذكره جورجى أفندى زيدان عمن حرّموا على أنفسهم عبادة الأوثان وشرب الخمر ونحو ذلك قبل أن يجيء به الإسلام. ونعلم أنهم قالوا فى ذلك أشعاراً وخطباً. فهلا كان من واجب الكتّاب فى أدب اللغة أن يبينوا لنا الصلة بين هذه الأشعار وبين آيات القرآن التى نزلت فى هذه المعانى حتى نقف على حقيقة سلسلة الحياة النفسية التى هى أساس الحياة الأدبية عند العرب. كذلك كنا نريد أن نعرف الصلة بين طريقة رواية الأخبار والحوادث عند العرب وروايتها فى القرآن. وكنا نريد أن نعرف إن كانت سورة يوسف التى هى آية الإبداع فى القصص أول ما جاء من نوعها أو أنها سبقت بغيرها من صورتها. كنا نريد أن نحيط علماً بهذه الأشياء التى أهملها جرجى أفندى زيدان على أهميتها وعلى أنها من لب تاريخ الأدب وصلبه. وهى فى الوقت عينه لا تمس العقائد العامة بشيء.

أما إن كان المؤلف قد ترك هذا القسم لأنه اعتبر هذه الفترة حادثة استثنائية فى تاريخ الأمة العربية وأن العرب رجعوا مع الإسلام والأمويين إلى عاداتهم وأخلاقهم وآدابهم الأولى إلا بعض ما حرم صريحاً فإن ذلك يكون من المغالاة والمبالغة الزائدة التى يرفضها جرجى أفندى نفسه حيث يقول إن الإسلام أحدث انقلاباً سياسياً

واجتماعياً ودينياً وأنه أدخل إلى آداب العرب تغييرات بنسخ بعض ما كان واستحداث سواه على ما يوافق العوائد والعقائد والأخلاق التى جاء بها.

لا شك أن تكوين الأمم الذى يتم على الأجيال والقرون لا يمكن فى سنين معدودة قلبه رأساً على عقب. ولا شك أن الإسلام لم يغير العرب مرة واحدة عما كانوا عليه بما نسخ من المعتقدات والعوائد ولكنه بغير شك أيضاً أحدث هزة عظيمة فى أعصاب هذه الأمة كانت سبب ما تلاه من التغيير. لذلك كان من الواجب على من يريدون درس العرب أيام الأمويين والعباسيين أن يرجع إلى التغييرات التى أحدثها الإسلام ليقف على أصل مهم من أصول تاريخ هؤلاء الأمويين والعباسيين.

ولذلك نرانا منقادين بهذا التعليل البسيط لنرى النقص فى «تاريخ آداب اللغة العربية» فيما يتعلق بتاريخ الأدب فى عصر النبى والخلفاء الراشدين.

بل كنا نود أن يفرد المؤلف كلمة عن النبى وحياته من جهتها الأدبية والمصادر التى استقى منها وكيف وصل ليكون أسلوبه كما كان. ولئن كان هذا الباب قد طرق من قبل من الجهات السياسية والاجتماعية والأخلاقية بشكل ما فإن جهته الأدبية لا تزال بكراً. ولهذا كنا ننتظر من جرجى أفندى زيدان أن يضع لنا فى تاريخ آداب اللغة العربية كلمة تاريخية صحيحة عن أظهر رجل فى الحياة العربية من كل جهاتها.

هذا هو النقص المهم فى هذا الباب من أبواب الكتاب وأخشى أن يكون نقصاً جوهرياً. وحبذا لو تداركه المؤلف إذا طبع كتابه طبعة ثانية فيكون قد سد فراغاً تاريخياً ذا قيمة.

ومهما يكن غرض جرجى أفندى زيدان من كتبه نشر معرفة التاريخ لا التدقيق فى نقطة، ومهما يكن هو ينظر للأشياء دائماً من جانب الفكرة العامة فإنا نعجب كيف فاته أن يكتب هذه الكلمة التى ننبه إليها.

سوى ذلك فإنه لم يذكر لنا عن حقيقة روح هذا العصر شيئاً أكثر من أن العرب اشتغلوا بالفتوحات وأن القرآن كان دليلهم فى الفكر والكتابة مع أن الفتن الداخلية كانت يومئذ لا تحصى وكان لها قادة من الخطباء والشعراء والكتاب. وردة العرب بعد موت النبى وخروجهم على عثمان وقتله وانقسام على ومعاوية على الأمر كل ذلك يمس الأدب العربى عن قرب ويمسه فى مواضع كثيرة.

على إنّا نرجع فنقول إن الكمال محال. كما أنه ربما كانت فى نفس المؤلف فكرة لم نقف عليها يفسر بها هذا الذى نعده نقصاً فى كتابه. وإنما دعانا للتدقيق فى هذا الموضع من مواضع النقد اعتدادنا بهذا القسم من آداب العرب وتقديرنا لأهميته.

"محمد السباعى"

ذكرنا فى كلمتنا إلى القارئ أن كتاب النقد سيتناول السباعى وكنا نظن ما كتبنا عنه فى «الجريدة» قد يعنى القراء. لكنا ألفيناه لا يزيد على تقدير السباعى كمترجم لا كمؤلف. فاكتفينا بهذه الإشارة.

* * *

الكتابُ الثانى

شــئون مصريــة

آثار وادى الملوك

١

من القاهرة إلى الأقصر

دعيت الصحافة المصرية أخيراً لزيارة قبر الملك توت ـ عنخ ـ آمون. دعيت لتوقف المصريين على آثار جد من أجدادهم، باقية لا تزال، فى أرض مصر بين مقابر الملوك الفراعنة، لكنها دعيت بعدما أذاعت صحف لندرة، بل صحف العالم، التفاصيل التاريخية والفنية عن قبر هذا الملك المصرى، وبعد ما نشرت الجرائد والمجلات الأجنبية صوراً مختلفة صورت بين أطلال طيبة الأزلية الخالدة. ثم تخطت النيل وتخطت البحار قبل أن تقع عليها عين واحد من أبناء أصحاب مقابر طيبة.

وفيما بين افتتاح باب قبر الملك المصرى، ودعوة رجال الصحافة المصرية ـ فى هذه الفترة التى تجاوبت فيها صحف العالم بخبر هذا الاكتشاف وكتبت عنه الفصول الطوال، لم تعن الحكومة المصرية ولم تعن جهات حفظ الآثار المصرية،

باطلاع الأمة المصرية على أية معلومات عن هذا الأثر المصرى تدلهم على قيمته وتكشف لهم عن شيء من حقيقته. فلما وصلت الجرائد من انكلترا مترعة بالأخبار عنه تكرمت وزارة الأشغال المصرية فأصدرت بلاغاً تافهاً مبهماً لا تقف منه على شيء ولا تعرف له معنى محدداً.

* * *

دعيت الصحافة المصرية أخيراً لزيارة قبر الملك توت ـ عنخ ـ آمون. فأذكرتني هذه الدعوة، لذلك الأثر المصرى، تلك الآثار العزيزة العظيمة انتقلت على ظهور البحار إلى إنكلترا وغير إنكلترا من مختلف بلاد العالم وكان أحرى بها أن تبقى على ثرى الوطن. وأذكرتنى الرحلات الطويلة كنت أمضى فيها بياض النهار وقطعاً من الليل وجل مقصدى أن أشهد تلك الموميات الناطقة فى صمت الموت بجلال القدم وتلك التماثيل المهيبة بضخامتها وعظمها وتلك النقوش الممتلئة برموز الحياة قبل الموت والحياة بعده. وأذكرتني! نعم أذكرتنى بتمثال إيزيس الصغير قائماً فى بلورة بين التماثيل الضخمة فى الصالة المصرية من صالات المتحف البريطانى محدثاً ما حوله من التماثيل الضخمة بحكمهم على الكون والكون فى أحلام خلقه، متسخطاً على الذين كشفوا عن الموميات ليجعلوها موضع لهوهم وكأنما الأموات متاع العيون... أذكرتنى هذا وأذكرتنى سواه فنسيت ما نحن منهمكين فيه من أعمال الحياة وما نحن مرتطمين فيه من الشهوات السياسية فآثرت أن أسافر بنفسى إلى مقابر الملوك والملكات من أجدادنا الأقدمين.

* * *

شقة السفر من مصر إلى الأقصر طويلة. ومهما تعزيت بمشهد الوادى عن جانبيك يشقه القطار فتتابع صوره أمام نظرك كأنها صور متحركة فإن هذه الصور

بالغة آخر الأمر من التشابه ما لا ترى بعده منها محلا لاستزادة. لكنك واجد فى اختلاف ساعات النهار وصنوف الجو ما يبعد عنك السآمة. فإذا أنت رأيت السحب تجاور الشمس قبيل المغيب فأبشر بمغرب شمس قد يبلغ بك من الإعجاب حد العبادة، فيذهلك عن الوادى وصوره المتحركة، والزمن وساعاته المتتابعة، ونفسك وما قد بدأت تشعر به من ملال وتعب، ويمسك خيالك محدقًا بالمغرب البديع الذى أمسى يذرك رويداً رويداً فتعلقت به نفسك وانجذب إليه قلبك ووقف عنده كل وجودك حتى تراه قد غاب واختفى وأنت لا تدرى متى غاب ولا متى اختفى.

كان ذلك شأنى بين طهطا وسوهاج. تدركت الشمس إلى المغيب وقد ارتكز عندها مثلث من السحب ملأ الغرب وتشرذمت حوافيه، وكنت تحسبه أدكن اللون قاتماً فلا تكاد ترى مخرجاً للودق من خلاله. فلما تدلت الشمس طوقت حوافيه القريبة منها بسوار من ذهب. ثم ولت إلى مغيبها فلم تك إلا دقائق بعد ذلك حتى سكبت فى السماء وراءها لهباً دامياً ودما ملتهباً، وصرت ترى الذى كان قتاماً قد استحال إلى لهب اشتعلت به السماء فغطت النيران مثلث السحاب الذى ملأ الجو. وتشهد فحمة القتام بعد اشتعالها وكأنك نيرون يشهد روما فى احتراقها. لكن نيرون كان يشهد جريمته فيوقع على القيثارة أنغاماً يسلى بها نفسه عن وخز ضميره. أما من شهد ذلك المنظر الفذ من صنع يد القدر فكان لا يستشعر سعير اللهب المحرق، بل كان يحس فيما يرى ببرد وسلام يهبط على البسيطة. يشعر فى حنايا فؤاده بترداد حنين الإعجاب والشكر على أن شاركت روحه الصغيرة فى كل تلك المعانى التى لا تؤديها هينمة ولا ترنم وإنما تؤديها نغمة سماوية من نغم موسيقى الموصلى أو بتهوفن.

وخبا اللهب وتبينت قطعة السحاب التى حجبت المغرب وقد امتدت خلالها من الشمال إلى الجنوب تعاريج متوازية من الأحمر القانى متتابعة من فوق جبال ليبيا إلى

منتصف السماء حيث يمتد من أثر الشمس المولية مسرعة ظل ضاف متورد كأنه بقايا قبلة وداعها لهذا العالم الذى ظلت تشهده أعيننا من ساعة إضاءته فى شروقها وها تشتمله كسف الليل بعد إذ تركته مدبرة. وظلت هذه التعاريج المتوازية البديعة النظام تغالب الليل ويغلبها وتفنى فيه رويداً رويداً حتى كلّ بصرى وصرت لا أرى منها شيئاً ولا أرى إلا الليل قد كسا الوجود ولا أدرى متى كسا أمواج النار والذهب.

وانطلق القطار فى طريقه إلى الأقصر وأنا مأخوذ بهذا المنظر الذى لم يبرح خيالى ولن يبرحه. وكلما عدت إلى نفسى جاهدت أريد أن أستعيد ذكرى مغارب الشمس البديعة التى تضارع ما شهدت من سويعة مضت لأقارنها به فيغلب هذا المشهد جهادى وأعاود التحديق فى مخيلتى بالقرص النازل وبأطواق الذهب تحف بأطراف السحب، وبالنار الملتهبة تشعل الفضاء، وبنيرون يشهد روما جللها اللهب وبهذه التعاريج البديعة من خالص العسجد.

وبلغت الأقصر وكان الليل قد انتصف أو كاد. فآويت إلى الفندق وقد هجد الناس جميعاً فيه فلا تسمع لهم هسيساً. آويت إليه وقد زال أكثر ما بى من النصب لأنى كنت مشغولاً عن التفكير فيه.

واستيقظت حوالى الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة فأخذت أهبتى لمشاهدة بيبان الملوك وما حولها من آثار طيبة الخالدة.

آثار وادى الملوك

٢

فى بيبان الملوك

تقوم الأقصر ـ أو القصور ـ اليوم على شاطئ النيل الأيمن فى المكان الذى كانت قائمة فيه من قبل طيبة الأحياء. وبين مبانيها المتفاوتة فى الفخامة الفخيمة والحقارة الفقيرة ترتفع تلك البرابى الدارسة التى بقيت برغم بلاها عظيمة ضخمة مهيبة تتضاءل إلى جانبها أكبر القصور وأفخمها وأضخمها ـ برابى الأقصر وخونسو وآمون وما إليها. هذه البرابى أو المعابد أو القصور الضخمة الفخيمة هى التى أتاحت للمدينة الحاضرة أن تسمى باسم الأقصر أو القصور.

بلغ بى القطار الأقصر حوالى منتصف الليل فآويت إلى فندق ونتر بالاس. فلما كان الصباح أخذت أهبتى قاصداً وادى الملوك لزيارة القبر الجديد، قبر توت ـ عنخ ـ آمون. وإذ كان القارب يعبر بنا النيل إلى شاطئه الأيسر، حيث تقوم المقابر بين الجبال عند آخر الوادى، مر بنا زورق بخارى يقل عظمة «السلطانة ملك» وحاشيتها وكن

قاصدات مثلنا زيارة كنوز القبر الجديد، وكن منتقلات مثلنا من طيبة الأحياء حيث ضجة الحياة وجلبتها إلى طيبة الأموات حيث سكينة الخلد ومستقر السلام، وكن قد رضين مثل ما رضينا أن ينسين هذه الفترة القصيرة التى نسميها الحاضر ونجعل منها موضع كل عناية وكل اهتمام لتصل النفوس ما بين الماضى البعيد الذاهب فى أعماق القدم إلى حدود الأزل، وبين هذا الحاضر الذى يجرى غير وان يريد أن يشق أمام عيوننا غيابات المستقبل، ثم ينتهى بنا من هذه الغيابات إلى ما انتهى عنده رمسيس وآمنحوتب وتوت عنخ آمون وغيرهم ممن ذل لهم الدهر يوماً فملكوا ناصيته ثم ألفوا أيديهم خلاء وأيقنوا أن ليس للدهر ناصية تملك.

وتخطينا النهر وركبنا عربة عريضة العجلات يسمونها «السنكار» فاجتازت بنا المزارع تظللها أشجار لا يزال ورقها الأخضر يانعاً لم تعد عليه عاديات الخريف ولا عصفت به ريح الشتاء الفتاكة بورق الشجر. وهل تعرف الأقصر ريح الشتاء؟ ألم يكونوا يعبدون الشمس فى طيبة لأن الشمس فى طيبة إله محسن. واليوم وقد عبد الناس ربهم فإنهم لا يجدون من آيات خلقه آية تبلغ فى العظم والكرم والإحسان ما تبلغه الشمس فى طيبة.

وسارت بنا العربة بعد ذلك فى طريق قُد بين صخور عابسة محددة الوجه تظللها سماء دائمة الزرقة لا تمر بها سحابة ولا يغشى صفاءها غشاء. وجاوزنا فى مسيرنا بربة القرنة وتابعنا مسيرنا حتى قاربنا وادى الملوك.

الجبال قائمة عن يمينك وعن شمالك. جبال جرداء لم يسقها غيث فلم يعرف النبت إليها سبيلا. والسماء من فوقها زرقاء صافية والسكون مخيم شامل فلا تسمع همسيساً. وأنت بين ذلك ذرة من ذرات الوجود متنقلة فى الحيز تنقلها على الزمن ثائرة بين الكائنات العظيمة المطمئنة منتظرة يوماً تخمد فيه ثورتها فترجع لتطمئن فى أحضان الوجود.

مثل هذه الأفكار كانت تدور بنفسى وأنا فوق السنكار تتسرب بى فى طريق الجبل وقد خلفت ورائى الزرع الناضر الخاضع لقوانين الموت والحياة، المتجدد على الزمن كلما تجدد الزمن، وحشرت بين الجبال العابسة وقد علت فوق قوانين الموت والحياة فتتالت عليها عصر الزمن وهى على الزمن باقية خالدة.

ثم وصلنا بيبان الملوك فإذا حُمر وعربات وسناكير قد سبقت إليها. وإذا زوار متفرجون قد جاءوا يرون الكنوز التى اكتشفها كارنارفون، وهى فى خيال بعضهم كنوز الذهب والجوهر يستبدلها من شاء بما شاء من صنوف المتاع، وفى خيال الأقلين كنوز تاريخية أثرية يرتكب من يستبدلها بالذهب والجوهر جريمة لا يغتفرها العقل ولا يغفرها التاريخ.

يقع مدخل بيبان الملوك فى منتهى ذلك الطريق الذى قُد بين صخور الجبل. فإذا جزته انفرج أمام نظرك وادى الملوك. أو بالأحرى ظهرت أمامك مقابر الملوك. فليس ذلك الوادى إلا منبطحاً صخرياً وسط سلسلة ليبيا تقوم الجبال حوله من كل جانب ولا تعمره أية صورة من صور الحياة والتجدد التى تراها فى الوديان. وإنما تعمره موميات ذوى الملك والسلطان الذين حكموا على التاريخ والتاريخ حدث قاصر لم يبلغ بعد رشاده، فكان حكمهم أبهى وأنضر وأبقى أثراً وأخلد ذكراً من حكم المدنية الأثيمة التى يئن العالم تحت سلطانها من سنين. تعمر تلك الموميات هذا الوادى فى قصور شقت تحت الجبل ونقشت جدران غرفها بطلاسم الهيروغليفية وبمختلف صور آلهة ذلك العصر وبطقوس عبادة آبائنا الأقدمين. شقت تلك القصور ونقشت جدرانها من أربعة آلاف سنة فإذا رأيتها اليوم أدهشتك منها ألوان زاهية حية لا تجد فيما تعرف من الألوان اليوم لها نظيراً. فإذا سألت عن هاته الطلاسم وأولئك الآلهة وتلك الطقوس ما شأنها على الجدران وما هذه الصحائف الكثيرة من كتاب الأموات لا يخلو منها جدار؟ لفت العليم نظرك إلى ما تراه على جدران معابدنا من

آى الكتب المقدسة، وزادك أن أولئك القدماء كانوا يؤمنون بأن الروح لا تفارق الجسد فراقاً أخيراً ما لم يتم بلى الجسد وما لم تنحل ذراته فتتبعثر بين غيرها من الذر وينعدم كيانها. أما ما بقى الجسد حافظاً كيانه فإن الروح تعود إليه إذا هو عولج عند الدفن بصورة خاصة من الطقوس، فمر فوق القارب المقدس بالبحيرة المقدسة عند آخر معابد إله الشمس آمون ثم انتقل بين هياكل الآلهة ومن حوله تراتيل كتاب الأموات حتى يبلغ مقره الأخير. وفى هذا المقر الأخير تسجل على الحجر الصلد تلك الطقوس التى وجب أداؤها حتى إذا عادت الروح للجسد عادت مطمئنة ثم زادت طمأنينة إذا هى ألفت حوله كل مظاهر الملك ومجالى الأبهة التى كانت له فى حياته، ووجدت عرشه وعربته ولباسه وطعامه وما إلى ذلك مما كان له قبل الموت من صور المتاع.

وهذا هو السر فى أنهم كانوا يحنطون الجسد حتى لا ينحل ويتم بلاؤه، وفى أنهم كانوا يملأون الجدران بنقوش كتاب الأموات وبطقوس العبادة وبمختلف صور الآلهة تقدم لهم فروض الطاعة وأنواع القرابين، وبصورة القارب المقدس على البحيرة المقدسة عند معبد آمون إله الشمس حتى تطمئن الروح إلى أن الجسد مر إلى مقره برضا الآلهة وفى طمأنينة منهم إليه. وهو السر فى أنهم كانوا يضعون فى الغرف المجاورة للملك عنجريه وكراسيه وعرباته ومأكولاته وكل أنواع المتاع التى كانت فى الحياة له. إنهم كانوا يريدون له الخلد ملكاً عزيزاً كريماً حتى إذا بعث يوم النشور بعث ملكاً عزيزاً كريماً.

أرأيت الآن معنى عناية ملوك مصر الأقدمين بأن يكون لهم بعد الحياة قصور تضارع القصور التى كانت لهم فى الحياة أو تزيد عليها عظمة وقداسة. إنهم كانوا يطمعون أن يبقوا خالدين ملوكاً وأن يبعثوا ملوكاً. وهانحن أولاء نرى نصف مطمعهم تحقق أو كاد. لقد خلدوا إلى اليوم ملوكاً تخشع أمامهم قلوبنا وتنحنى أمامهم رؤوسنا ولم يزد الموت ملك رمسيس الحبيس بين زجاج صناديق المتحف إلا

جلالاً. ولو أنا معشر الأحياء قد بلغنا من العلم أن نفهم المعانى المرتسمة على صفحات وجوه مومياء الملوك الأموات لعلمنا أن رمسيس يعيد اليوم ما كان يقوله من قبل يدفع به المصريين الأحياء ليستعيدوا لمصر من المجد والعظمة ما كان لها أيام ملكه. ولكنهم لا يسمعون.

هذه العناية هى التى أوحت إلى توت ـ غنخ ـ آمون أن ينقر فى الجبل قبره، وأن يحضر فى غرفة صور متاعه؛ حتى إذا أتى عليه الموت كان قد أعد لنفسه وسائل الخلد وحياة لا تبلى.

والكنوز التى شهدنا فى أول غرفة من غرف قبر توت ـ عنخ ـ آمون هى بعض صور ذلك المتاع الملكى وضعت إلى جانب تماثيله الحارسين لمومياثه من أن تعبث بطمأنينتها يد الزمن. وقريباً ستعبث بتلك الطمأنينة يد أبناء هذا الزمن.

آثار وادى الملوك

٣

قبر توت.عنخ.آمون

جاوزنا مدخل بيبان الملوك فتجلى أمامنا الوادى الصامت القفر من كل مظاهر الحياة، العامر بكل معانى المجد والعظمة، وبكل آثار الموت والخلود. وقامت أمام النظر أبواب قصور موميات الفراعنة نقروها.فى جوف الجبل ملجأ من الفناء، وحصناً من البلى، ومستقراً يعبرون فيه فوق ظهر الزمن إلى الدار الآخرة ملوكاً أعزة وفراعنة حاكمين. وهم قد ظلوا فى هذا الوادى القفر ملوكاً على سائر ساكنى وديان طيبة الأموات من أربعين قرناً خلت. وكانوا قبل ذلك ملوكاً لسكان طيبة الأحياء إذ قضى كل منهم فى ملكه سنين لا تتجاوز العشر أو العشرات.

جاوزنا مدخل بيبان الملوك وكان باب رمسيس التاسع عن شمالنا وباب رمسيس السادس عن يميننا. وبين البابين فجوة تؤدى إلى باب القصر الجديد أو القبر الجديد.

القبر الذى نقر من ثلاثة آلاف سنة. قبر توت ـ عنخ ـ آمون. فهبطنا إلى بابه حتى كنا عند الغرفة التى كشفت عنها يد المنقبين. فإذا نور الكهرباء يضىء ظلمة ذلك الرمس العريق فى القدم. وهنا وقعت العين على ما يبهرها: غرفة ملأى بآثار فرعون. بعروش الملك ومتكآته وسرره وعصيه وعرباته، فجعلت تنتقل من واحد إلى الآخر ولا تكاد تستقر عنده. ولا تكاد تجتمع فيها صورة منه. ووقفت النفس حيرى ذاهلة أمام هذه المشاهد العجيبة. لبثت هذه الآثار فى هذا الرمس ثلاثين قرناً أو يزيد... واهتز القلب بذكرى أولئك الجدود الذين كانوا زينة الدهر موضع فخر بنى مصر ـ الذين لا يزالون على الدهر موضع إعجاب بنى الدهر. وجاهد الذهن يريد أن يقف مما رأت العين وتأثرت به النفس واهتز له القلب عند فكرة فكان أكثر منها جميعاً بهراً وحيرة واهتزازاً.

* * *

رأينا الأشياء التى حشرت مع الملك ليبعث بينها. رأينا تماثيل الملك وعروشه وكرسيه وعرباته وباقات الورد استبقاها الحنوط حية على القرون. رأينا هذه الآثار ووقفنا أمامها زمناً سمح للناظر أن يرى وللنفس أن تستجم وللقلب أن يطمئن وللذهن أن يستقر. لكنها جميعاً اتجهت بكل ما فيها من قوة الإبصار والحس والشعور والاستجمام إلى هذا التراث المجيد من آثار مصر القديمة. ثم غادرناها وقد ارتكزت صورها فى غور وجودنا فأصبحت قسماً منا نحس ونشعر ونفكر وله على حسنا وشعورنا وتفكيرنا أثر لن يزول.

غادرنا هذه الآثار إلى الدير البحرى. ثم عدنا أدراجنا إلى الأقصر. وبلغنا الفندق وقد نال منا التعب وهدنا ما أنفقنا من جهد. لكن هذه الآثار الباقية ما بقينا والباقية بعدنا إلى أجيال وأجيال مقبلة لم تغادر تصورنا ولم ينلها فى تخيلنا أى جهد أو كلال. بل ازدادت وضوحاً وازدادت قوة وازدادت استئثاراً بنا فصرت لا تسمع بين

أهل الفندق ممن زاروها إلا تحدثا عنها وممن لم يزرها إلا تساؤلا ودهشة ورغبة فى مشاهدتها.

استأثرت آثار باب توت ـ عنخ ـ آمون بخيالنا وبتصورنا، فلما خلا كل إلى نفسه وسعد بالوحدة الحلوة الطيبة وتأهب للراحة وللنوم عاودته بكل قوتها وبكل حياتها وارتسمت أمامه ناطقة متكلمة.

* * *

تلك آثار أجدادنا نحن المصريين. تلك آثار الفراعنة. وهى كانت مخبوءة فى جوف الصحراء، فى ذلك الصخر القاسى اتخذه صاحبها درعاً من الفناء. فكشف عنها رجل ليس له بالفراعنة صلة. رجل جاء فى أرض الفراعنة مستشفياً ثم أوحى له القدر أن يعمل لكشفها. فكشف عنها بعد لأى ونصب ولغوب، وعاونه رجل مثله ليس بينه وبين الفراعنة إلا صلة الإعجاب بهم والتنقيب عنهم، وقام بالعمل أبناء الأقصر وما حولها من شبان ورجال تداولوا العمل بارشاده وبإشرافه وعلى نفقته. لكنها آثار أجدادنا نحن، فنحن وحدنا أصحابها وله الفضل عن كشفها وله منا الشكر والمنة. وله على التاريخ الاسم الباقى ما بقى اسم الفراعنة. وما بقى اسم توت ـ عنخ ـ آمون.

تلك آثار أجدادنا الفراعنة الذين عاشوا من أربعين قرناً مضت. أليس عجيباً أن تضاهى تماثيل الملك المصرى تماثيل الإغريق وتماثيل روما وتتفوق عليها. يعجب الناس من كل الأقطار بتمثال الزهرة آلهة الجمال ويعدونه مثلاً نادر المثال. ويعجب الناس بصور ميكلانج وبنقوشه. ويذهب بهم الإعجاب إلى حد البهر وإلى حد الهيام، ذلك أنهم لم يروا تماثيل توت ـ عنخ ـ آمون، وبأنهم لم يروا تماثيل السباع والبقر والخرتيت فى عروشه. ويعجبون بنقوش الرومان والقوط، ذلك أنهم لم يروا نقوش

صناديق الملك المصرى أو عرباته. ولو رأوها لتضاءل إعجابهم بتلك التماثيل والنقوش ولأخذ بأبصارهم وبقلوبهم وبعقولهم ملك الأسرة الثامنة عشرة المصرية.

أجل. لو رأوها لقالوا عن أجدادنا أنهم أجداد الفن وعن مصر أنها مهد المدنية. ولو رأوا حنوط الورد واللحم وما تنبت الأرض من بقلها لتضاءلت مدنيتهم أمام ما يرون. لو رأوا خلود هذا الزهر الرقيق السريع إلى الذبول وبقاء تلك الحنطة الدقيقة المتآكلة وقرنوا إليها حديدهم الصلب يفنى ويتآكل رغم عنايتهم، وحجارته القاسية تنهار وإن شادوها، إذن لأيقنوا أن هؤلاء المصريين القدماء وصلوا من المدنية إلى قمة نفخ بعدها فى الصور فاضطرب الوجود وتداعت قوائمه ثم بعث من بعدهم خلق جديد وسار يتطور فى سبيل التقدم، وهو لم يبلغ بعد مدنيتهم، وهو لن يبلغها إلا أن تكون مصر على رأس العالم، وإلا أن تكون أم المدنية، وإلا أن تبلغ هى الغاية التى تطمح إليها الإنسانية. والإنسانية لم تصلها. وهى لن تصلها حتى تمسك مصر زمام القيادة. فتتولى السير بالعالم فى سبيل الرقى والسعادة.

كلا! لم تكن مصر القديمة مهد المدنية، بل كانت قمتها وغايتها. وهذا التاريخ الذى يروونه وهذه الأساطير التى يتناقلونها ليست إلا أثراً من آثار كبرياء الشباب الفارغة. أما آثار العقل الناضج، آثار المدنية الصحيحة، آثار الرقى الإنسانى الصاعد بالروح إلى ملكوت الملائكة بله الآلهة. فذلك ما لم تبلغه الإنسانية، وما لن تبلغه، حتى تكون مصر فى الطليعة، وحتى يدين الناس لها بالسبق والقيادة إلى غاية الكمال.

وليس ما يطالعنا به توت ـ عنخ ـ آمون من صور الحضارة دليلاً على أن هؤلاء الأجداد العظام كانوا يحضرون للمدنية المادية السخيفة التى يرزح العالم اليوم تحت أرزائها، وإنما هو دليل على أن الإنسانية بلغت فى عصره كل القوة والعزة والمنعة والشباب، ووصلت إلى غاية ما ترجوه الإنسانية. ثم اضمحلت من بعده وتدركت إلى

الهرم وإلى الفناء. ثم بعثت فاضطربت فى حمأة الطفولة وتلوثت فى أدرانها، وهى قد خرجت منها من زمن، وهى اليوم تعانى آلام شهوات الشباب المبتدئ. وليس من يدرى متى تطمئن إلى شيء من الحكمة. ومتى تعاودها نعمة العقل.

هذا ما تنطق به آثار باب توت ـ عنخ ـ آمون البالغة فى الإبداع حد الإعجاز. وهذا ما تنادى به معها آثار طيبة الأموات مما وقعت عليه عين الإنسانية. وهذا ما تشهد به الآثار المصرية القديمة ما بقى منها فى مصر وما عبر منها البحار إلى الدول الأخرى. فإن كان لا يزال فى نفسك من ذلك ريب فاقصد معى إلى الكرنك وإلى بربة الأقصر واقرن ما ترى هناك إلى مثله من آثار روما، تر أمامك واضحاً هيبة القدم وجلال العظم عند المصريين بالغين حداً تتضاءل معه الآثار الرومانية والآثار الإغريقية حتى لتكاد تنسى. وهل جلال أعظم من جلال الكرنك. وهل أثر باق للحضارة الكاملة غير آثار المصريين القدماء.

فى حضرة الفراعنة

طيبة الأحياء

بين جبال ليبيا، وعلى نحو فرسخين من شاطىء النيل الأيسر، تقع طيبة الأموات، وفيها معابد الدار الآخرة. وفيها لحود الرعية وأجداث الأمراء، ومقابر الملوك.

وعلى الشاطىء الأيمن تقوم الأقصر حيث تقوم طيبة الأحياء. وفيها بربة الأقصر. وفيها الأطلال الدوارس التى تتحدث إلى الأجيال المتعاقبة لمستقبل بعيد عن أجيال نائية فى ماض سحيق ـ فيها معابد الكرنك الكبرى.

* * *

معابد الكرنك: هياكل النيل التى ظلت آلاف السنين تتعانق ومياه النيل. معابد خونسو. وأوزوريس. وآمون. وسيتوس. وطريق اباء الهول. والبحيرة المقدسة. أطلال [illegible]ة الآزلية الباقية. قدس أقداس مصر القديمة. عظمة الماضى ومجد التاريخ. المدنية البائدة الخالدة. الانسانية فى كمالها الأسمى. آثار أجدادنا العظام. آثار المصريين الذين حكموا وسادوا. حكموا بالعقل والعلم، وسادوا بالمحبة والحلم. تلك هى الآثار

الدارسة القديمة المبعثرة فوق ثرى الوادى على مقربة من الأقصر إلى الجانب الأيمن من النيل. تلك هى الأحجار الناطقة فى صمتها بمعانى العظمة، المحدّثة بلادها عن ألوف السنين التى مرت بها من يوم شادها أجدادنا هياكل لعبادتهم، ومستقرا لعلم آلهتهم وذكرا لأشخاصهم التى سبقت التاريخ من غير أن يدور فى وهمها أن سيبقى ذكرها زينة التاريخ ما بقى التاريخ...!

معذرة!.. لقد كنت أريد أن أصف معابد الكرنك. وأن أذكر طرفا من تاريخها. وأن أتحدث عن بنائها، وعن ضخامتها وعن رفعتها. وكنت أريد أن أقرنها إلى ما رأيت من آثار الرومان فى روما. وفى مدن فرنسا فى نيم. وأرل. وافنيون. ورويا. فلم تكد أسماء معابد الكرنك تمر أمام خيالى، حتى امتلأ بعظمتها وبقداستها خيالى، وحتى تضاءل ما رأيت من اثار اليونان والرومان. وحتى أصبحت الفورم، والكابتول، بعض تلك الآثار الصغيرة. التى لا تحصى والتى تقابلك حيث ذهبت من ديار الاثار فى مصر. وهل ترى فى الوجود أثرا لايصغر ويتضاءل ويفنى إذا ذكرت عظمة معابد الكرنك، وبينها معبد آمون.

قرون جاءت على آثار روما، وعلى آثار أثينا. وللقدم هيبته. ولجراح الماضى فى تلك الآثار قداستها. وللفن عظمته. وللابداع الفنى فى تلك الآثار احترامه. وأنت ابن اليوم لن تستطيع مهما فاخرت بعلم عصرك وفنه ودقته إلا أن تقف أمام تلك الآثار التى جاءت عليها القرون معجبا خاضعا.. فإذا وقفت بين أطلال الكرنك لم يكفك الاعجاب، ولا الخضوع، ولا التقديس. لأنك ترى اثارا تفوق آثار مدنيتك الحاضرة عظمة وقوة وابداعا ودقة.

لست أغلو. ولكنى لا أستطيع أن آتى على الوصف الذى يبعث إلى نفسك الاجلال والبهر اللذين ملأا نفسى حينما كنت بين هذه الاثار. واللذين تركا فى نفسى أثرا سيبقى إلى أن تزول من بين الأحياء نفسى، ولو لم يتح لى القدر أن أعود إلى طيبة المقدسة مرة أخرى.

كلا. لست أستطيع أن أصف لك هذا المشهد. لأنه ليس مكونا من أحجار ولا من صور وتماثيل. ولكنه مكون من ماض عريق فى القدم والعظمة، عريق فى الجلال والهيبة، عريق فى الإبداع والدقة، عريق فى كل ما تريد الانسانية اليوم أن تصل إليه من قوة وعزة وجاه وسعادة. وفيما تنفق فى سبيله الجهود الكبار. ثم هى تراه أمامها سرابا قد لايتحقق على القرون.

* * *

معابد الكرنك. هياكل آمون وسيتوس وتتموزس وفتاح. وفى مقدمتها طريق آباء الهول. وعلى أبوابها درجات الطول والعرض لتعرف أين أنت من كرة الأرض، وبينها معابد آلهة الخير والشر تطالعها الشمس ظهيرة كل يوم لتطلعها على آثام الناس وحسناتهم. ومن خلالها تماثيل رمسيس وتحتمس وآل فرعون. وفى غايتها البحيرة المقدسة.

ألست ترى هذا الجمع من كهنة آمون قادمين على شاطىء النيل آله الخير والخصب وهم ينظرون إلى مياهه الهادئة فى موجها نظرة اعتراف بالجميل وتقديس واجلال؟ ألا تراهم يريدون أن يسلكوا سبيلهم إلى معبد آله الشمس آمون ليرتلوا لمبعث النور والدفء آيات الثناء والحمد. هاهم أولاء انعطفوا فى طريق آباء الهول بين تماثيل السباع ركبت عليها رؤوس كباش الغنم وازدان صدرها بتمثال أمون فجمعت بين القوة والعظمة والحنان والرقة والقداسة والهيبة. وتتالت كثيرة متتابعة تزيد الجمع بكثرتها خشوعا وبنظام تتابعها رهبة ومهابة. وقام أمام الجمع مدخل المعبد الضخم الرفيع لاتدرك شرفته نظرة الخاشع السائر فى هذا المشهد الرهيب. ها هم أولاء تخطوا المدخل فأحاطت بهم نصب الآلهة وتماثيل الملوك ومن حولها العمد الرفيعة الشاهقة. فلما نادى رئيس الكهنة باسم آمون خروا جميعا سجدا.

كان هذا الجمع يتخطى هذه المشاهد بملابسه الكهنوتية وقلبه ممتلىء قداسة واجلالا واكبارا. أما أنت فتمر فى طريق اباء الهول وترى مدخل معبد آمون وتتخطى إلى داخله فترى هامات الكباش طائرة عن أجساد السباع. وترى تمايل آمون القائمة على صدورها أبلاها مر القرون، وترى معبد آمون تحطمت نصبه وتداعت تماثيله وتطايرت رؤوس عمده. ثم لا يكون قلبك الذى امتلأ بالقداسة والاجلال والأكبار أقل خشوعا من قلوب هذا الجمع بملابسه الكهنوتية.

وتتخطى بين هذه الاثار مسلات رفيعة وعمدا لا تمل العين التحديق بها، ونصبا فوقها تماثيل بالغة فى الإحكام، وجدرانا ترى الطير والوحش قد زينت سطحها، وذلك كله وما هو حوله من مثله ومما هو أعظم منه وأبدع فوق متسع من الفلاة لايجىء عليه الناظر فى مدى نظرته ولايتخطى واحدة إلى ما بعده من غير أسف على تخطيه.

كيف كانت تنحت تلك التماثيل العظيمة؟ وكيف كانت ترفع فوق تلك النصب؟ وكيف كانت تقام تلك العمد؟ وكيف كانت تصل إلى قممها شرفاتها البديعة النقش؟ وكيف كانت تحمل فوق تلك الشرفات الأحجار الضخمة التى تصل العمد بعضها ببعض؟! أى فن أى علم؟ وأى مقدرة كانت تقوم بذلك كله؟ وأين من هذا الفن والعلم والمقدرة فننا وعلمنا ومقدرتنا؟ وهل لنا أن نباهى أهل تلك العصور البائدة؟!

* * *

معابد خونسو. وفتاح. وآمون. آيات المجد والعظمة. آثار الكرنك الخالدة. كلا. لن يحيط بك وصف الواصف إلا إذا وقف عليك من حياته سنين طوالا.

أما أنا فيكفينى ما شهدت. هو يكفينى فخرا بالماضى. ولوعة للحاضر. وأملا للمستقبل.

أبيس

مهداة لسر أناتول فرانس

ذهبت مع أصحاب إلى المتحف المصرى أشهد للمرة العاشرة نفائس قبر توت عنخ آمون، واثقا من الكشف فيها عن دقائق جديدة من اثار الفن القديم. وفيما نحن متأهبون للخروج لقينا صديق مغرم بتاريخ أسلافه الأولين، فلا يكاد ينقضى أسبوع دون ذهابه إلى المتحف: يتحدث فيما يقول، إلى أجيال وأجيال حشرت بعد بعثها فى هذا القبر غير اللائق بها. ويأمل أن يطهرها هذا العذاب من إثم قد يكون لصق بها حين حياتها، ويرجو أن لايطول أمد تفكيرها، وأن تنقل إلى أقداس تليق بجلالها.. فاستوقفنا برهة ثم دعانا لنصحبه فى تحية أوجب على نفسه أداءها، كلما حضر، إلى معبود ابائه العجل أبيس. فلما كنا فى حضرة التمثال المقدس وقف برهة صامتا ودلت حركة شفاهه على أنه كان يتلو بعض صلوات لاشك فرعونية. فأثارت حركته دهشة شاب كان معنا فتح عينيه واسعتين وحملق بتمثال العجل وبنجيه ثم أدار نظره فينا فألفانا فى شغل بما حول العجل من تماثيل. ولاحظ المصلى دهشة الشاب فالتفت نحونا بعد ما أتم صلواته وقال:

ـ لعلكم تعجبون لما أصنع. أما أنا فلا أرى محلا لعجب. لقد كان أبيس رمز الخير والبركة. فكانت عبادة آبائنا له دليلا على أنهم يقدسون من الحياة خيرها وبركتها. ومن أجدر بالتقديس والعبادة ممن يدر الخيروالبركة على الناس؟

«وما أخالكم تذكرون قصة ابيس وعبادته عند آبائنا. فقد كانوا يجعلون لهذا الحيوان المخصب خير صفات الآلهة..

وهنا اتجه إلى صاحبنا الشاب ومضى فى حديثه:

ـ ولا تحسب يا صديقى أنهم يعبدون كل عجل رأوه أو أن كل عجل كان عندهم ابيسا. ولو أنهم فعلوا هذا لطعن فى علمهم الجم ومدينتهم الفاضلة. فالعبادة لاتجوز إلا للكامل حيث تجتمع صفات الفضل طرا. وكل عجل معرض لأكثر من واحدة من نقائص الناس. والرجل الكامل جدير باعجاب الناس به. والعجل الكامل جدير بأن يكون رمز هذا المعنى الذى تجب عبادته: معنى خير الحياة وبركتها. لذلك كان للعجل الاله عند آبائنا ما يميزه على العجول جميعا، فهو لم يكن يولد كما يولد كل عجل من كل بقرة اقترب منها ثور. بل كان أجل من ذلك نسبا وأقدس أصلا. كانت نار سماوية تهبط فتنفخ فى بقرة عذراء من روح القدس فتذر الاله فى حنايا ضلوعها حتى اذا ولدته وجب أن لا تلد بعده أبدا... وليطمئن آباؤنا إلى أن روح القدس وحدها هى التى لامست البقرة العذراء وجب أن تكون لابنها صفات كل أبيس سبقة. وأبيس يجب أن يشتمله السواد، عدا غرة مثلثة فى جبينه وأخرى فى صورة الهلال على جنبه الأيمن. ويجب أن تكون تحت لسانه عقدة كالجعران شكلا، وأن يكون شعر ذنبه ذا لونين؛ وأن تجتمع له اجمالا وتفصيلا ما فرضه العباد على آلهتهم من صفات.

.. فإذا نحى الموت أبيسا عند قدس زريبته وأذن مؤذن بميلاد أبيس جديد ذهب رهط من كبار رجال الدين فاستوثقوا من كمال صفات الاله الوليد، ثم أقاموا حيث

ولد زريبة تطالع مشرق الشمس ليمضى فيها مدة رضاعه أربعة أشهر. ومتى انقضى هذا الزمن وكان هلال جديد وضع العجل فى مقصورة مذهبة فوق قارب كبير ونقل إلى مدينة «نيلوبوليس» حيث يستقر أربعين يوما. ولايقترب من الإله فى فترة هذا المقام غير النساء. يجئن إليه من كل الأنحاء راجيات خصب أرحامهن، فيتجردن فى حضرته على صور وأوضاع يأباها عرفنا وعرفهن فى الحياء. وبعد هذه الأيام الأربعين يقفل معبد العجل دونهن وينقل ابيس إلى مقره الأخير بمنفيس فى مقام بالغ غاية الفخامة، وتبقى أمه معه فى زريبة متصلة بقدسه يخلع عليها بعض شرفه الدينى. ولا تقربه من البقر الا واحدة مرة فى كل عام لتكون لربوبيته متاعا ولذة، ويقضى على هذه البقرة السعيدة فى يوم سعدها، أن ليس يليق بالاله أن يكون له نسل كنسل الثيران جميعا.

عند هذا الموضع من حديث صاحبنا جاء قوم وقفوا إلى جانبنا أمام تمثال العجل المقدس. فآثرنا الخروج من المتحف وألقينا نظرة على ما حولنا من تماثيل وألواح من الحجر والصخر، ورفعنا أبصارنا إلى الطابق الأعلى لتتصل نفوسنا بموميات آبائنا الخالدين. ثم خرجنا وكانت الشمس المنحدرة إلى المغرب ترسل أشعتها الرفيقة على الفضاء المنبطح أمام المتحف فتبعث إليه من حياة الحاضر ما يوقظ النفس بعد ساعات نسيت فيها الحاضر بين الماضى وغياباته. وتخطينا الباب الحديدى الكبير وسرنا ميممين فندق سميراميس وأتم صاحبنا حديثه فقال:

ـ وكانت غاية حياة أبيس القدسية خمسة وعشرين سنة. فإذا لم ينفق بالموت قبل انتهائها أغرقه رجال الدين فى بئر لايعرفها سواهم أعدت لاغراق كل ابيس يخالف التقاليد ويتشبث بالحياة. ثم أذاعوا فى الناس أن الاله قضى على نفسه منتحرا. فاما إن هو لم يتخط التقاليد ومات قبل الخامسة والعشرين فقد حق له أن يدفن بما يجب لإله مثله من مظاهر العظمة والألم. فيحلق المصريون جميعا رءوسهم ويلبسون ثياب

الحزن ويشيعون جثمانه المقدس إلى «سيرابيس» ويظلون مرتدين سوادهم حتى يجيء أبيس جديد يخلفه فى قدسه.

كذلك قال صاحبنا، وكانت لهجته تشهد بتبجيله للعجل المقدس وبمشاركته آباءه الأقدمين فى احاطتهم معبودهم بمجالى الربوبية. وهنا أبدى الشاب من الضجر ما دل على تحفزه للقول. ثم قال:

ــ ليس من ينكر على مصر الفراعنة براعتها فى العلم والفن. وكل كشف جديد عن اثار هذه المدنية الخالية يزيد العالم ايمانا بعظمتها وقوتها، ويدل على مبلغ ما كان لأسلافنا من نشاط تصغر أمامه كل مظاهر النشاط فى مدينة اليوم. وهذا الذى رأيت اليوم لأول مرة من آثار توت عنخ آمون يفوق فى بهائه ودقته كل ما ذكر عنه، وينهض حجة على أن الحقيقة فى بساطتها قد تبلغ من الجمال حدا تصبح معه المبالغة فى وصفها هراء وسخفا.

... ولقد أذكر يوما اجتزت فيه الصحراء من ناحية البدرشين مع صحب يشبهونكم فى الظرف والرقة قاصدين صقارة؛ فقطعنا على ظهر الدواب فراسخ وأميالاً تحيط بنا المزارع والرمال وتظللنا سماء صفو منذ القدم، لم تخضع لحكم الضرورة الذى تخضع له العوالم كلها، وتقابلنا أحجار وتماثيل طبع الزمن على صحائفها آثارا من البلى تزيدها حياة وتجعل من صمتها حديث العصور الخالية. وقد استوقفنا من هذه التماثيل كثير يحدث عن ذوق القوم للفن وعبادتهم للجمال. وإنى أشهد ما تأثرت لمنظر تأثرى حين بلغنا من طريقنا موضعا رأينا فيه تمثال رمسيس الكبير ملقى على جانب الطريق وقد جل عن أن يختلط بتراب الأرض فنام فوق مخادع من الحجر ووضع تاجه إلى جانبه. عند هذا التمثال وقفت طويلا وسمعت فى أعماق نفسى صوتا يخاطب صورة الملك العظيم بهذه العبارة:

«ترى فى أى ميدان من ميادين منف الخالدة الأثر كنت تقوم أيها التمثال الفخيم؟ وعلى أية مدنية فرعونية كانت تطل عيناك الحجريتان؟ وكيف كان الناس من أهل تلك العصور ينظرون إليك وإلى تاجك الملقى الآن عن هامتك الملوكية؟ وكان يومئذ فوقها عزيزا. أكانوا ينظرون بعين الطلعة التى ننظر بها نحن؟ أم كانت عيون أعجاب واجلال وخضوع وعبادة، وصاحبك الخالد رمسيس؟ صاحبك الذى لن يعدو الدهر على ذكراه كما عدا عليك، فدك عرشك وحطم سيقانك وطرحك على ظهرك وألقى بتاجك فى الأرض؛ صاحبك صاحب الروح الكبيرة؛ صاحبك ابن الشمس ومحبوب آمون وعطارد والآلهة؛ صاحبك المظفر الراكب عربة الحرب يطارد بها عدوه الهزيم؛ صاحبك مليك مصر العزيزة بأمر الآلهة وعيونهم؛ أين روحه الآن لترفرف على مصرنا فتنفخ فيها روح قوة ومجد وعزة؟».

.. وهذا الخطاب لتمثال رمسيس، واعجابى الخالص بآثار طيبة، يظهرانكم على ما أشعر به نحو آبائنا الفراعنة أصحاب المجد الخالد. لكنى أعجب حتى لا أكاد أصدق أن شعبا ذلك مبلغه من العظمة والرقى يؤمن بأوهام كالتى تروى عن أبيس وعن غير أبيس من الآلهة ويسلك فى عبادته طقوسا يراها أكثر الناس اليوم سذاجة بالغة فى السخف حد الهوس.

أتم الشاب حديثه فأجابه صاحبنا:

ـ أنت مخطىء يا صديقى الشاب. وأنت مجدف أيضا. فإن أبيسا لم يكن عجلا كالعجول. بل كان كما ذكرت نفحة من روح القدس. وكانت له معجزات تنفى كل شك فى ربوبيته أيام كانوا يعبدونه. فقد حفظ التاريخ أن آباءنا كانوا يقيمون فى كل عام عيدا لميلاده بمنفيس يجمعون فيه كل لذائذ الحياة سبعة أيام تباعا. وكانوا يبدأون عيدهم بأن يقذفوا فى مكان معين من النيل وعاء من ذهب أو من فضة. فكانت التماسيح تمسك مدى هذه الأيام السبعة عن أن تؤذى أحدا. فإذا كان اليوم

الثامن عادت إلى افتراسها. فهل ترى هذه الحيوانات المائية الضخمة كانت تغير طبعها لولا سلطان العجل. ولا تقل أن إمساكها ربما كان سببه فرضها الصوم على نفسها أياما خاصة من السنة. فقد كان عيد الميلاد يتغير كلما تغير العجل. أى كل خمس وعشرين سنة أو أقل من ذلك.

ــ ومعجزات أبيس كثيرة. فقد ذهب العالم الفلكى «أيدوكس» لزيارته يوما فاقترب العجل منه ولحس أسفل ردائه. وفسر رجال الدين هذاالمظهر بأن أيدوكس سيكون ذا مجد قصير الأجل. وكذلك كان. ورفض أبيس أن يتناول الطعام من يد جرمانيكوس فدل بذلك على خاتمة هذا الأمير السيئة. وكذلك كان.

.. فهل ترى من حقك بعد ذلك يا صديقى أن تجدف فى حق اله ذلك سلطانه وتلك مقدرته؟

فعلت ثغر الشاب ابتسامة وهز أكتافه وقال:

ــ عجل يعبد! ثم يقال أن انكار عبادته على أنها سخف وهوس تجديف غير لائق بالآلهة! أليس ذلك مضحكا يا سيدى؟

تولى الجواب عن صاحبنا أخ لنا لا يزيد علينا فى السن، لكن شيبا انتشر فى رأسه يذكر هو أن الخوف سببه جعل مظهره أكثر هيبة ووقارا. قال:

ــ ألم يقل لك صاحبنا أن أبيس لم يكن عجلا كالعجول أن حملت أمه من طريق قدسى! وأى سخف فى أن يحاط جلال عجل بالأوهام الطيبة لكى يتصل ما بينه وبين إيمان السواد. أليست الأوهام التى نحتقرها فى الجماعات القوة الكمينة الخالدة التى توجه نشاطها ــ متى كانت طيبة ــ إلى الصالح المفيد. وهل كان أباؤنا يعبدون فى أبيس العجل الأسود الأغر المثنى لون شعر ذنبه لتكون عبادتهم له سخفا وهوسا. كلا. بل كانوا يعبدون فيه رمز النيل مدّر الخير والبركة. كما أنه كان لباس

أوزوريس وصورته الحية وأوزوريس كما تعلمون إله الخير والفضل والسلام. وهذه كلها معان جديرة بالتقديس والعبادة.

قال الشاب:

ـ هب يا صاح هذه المعانى جديرة بكل تقديس لأنها أكثر المعانى اتفاقا مع عبادتنا للحياة وفطرة الاحتفاظ بها، فما صلتها بأوزوريس وأبيس؟ ولم لا تخلع عليها القداسة فى جمال تجردها من غير أن يلبسها عجل أو غير عجل من سائر الحيوان؟

فأجاب الأشيب:

ـ وهل العبادة والتقديس الا الاعجاب يملك النفس ويبهرها ويأخذ عليها كل مسالك الشعور والحس؟ أتراك إذا ذهبت إلى حيث يتولد من الكهرباء ما قوته مليون حصان ورأيت إلى جانب هذا النبع من القوة ما يديره من العدد والماكينات وما تنتجه هذه العدد من ثمرات، أتراك بعد ذلك إلا مأخوذا عن نفسك ذاهلا لعظم ما ترى؟ فإذا قصصت ذلك على غيرك وكانوا يعيشون منْ ثمر هذه القوة فهل تراهم الا يقدسونها ويسبّحون بحمد من أجراها. كذلك كان شأن السواد من آبائنا فيما قصة عليهم ذوو الرأى منهم من قصص أوزوريس وايزيس وأبيس وسائر الآلهة.

قال صاحب أبيس:

ـ ما أحسبك قد بعدت عن الحق كثيرا يا أخى. وقد قصصت عليكم من أمر أبيس شيئا وهاكم حديث أوزوريس لتروا وليرى أخونا الشاب أن عبادة أبائنا لم تكن سخفا وهوسا:

«ولد أوزوريس من الاله جب (الأرض) والآلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الآلهين الهرم فعجزا عن قمع وحشية الناس وشرهم. ولما كبر تزوج من أخته ايزيس وجلس على عرش المصريين وصار ملكا على الآلهة والناس جميعا. وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردهم إلى السلم وأن

يعلمهم صناعاته. فعرفوا الزرع وطعموا من جوع واتخذوا من المعادن أسلحة يفلحون بها الأرض ويتقون بها عادية الحيوانات المفترسة. وبمعونة الاله نوت علمهم الأسماء كلها والفنون وفائدتها. ثم ترك لايزيس حكم مصر وسار على رأس جيش لهداية أهل الأرض جميعا. لكنه لم يكن بكبير حاجة إلى هذا الجيش. فقد سحر الناس بعبارة الاله وكلماته وبهرهم الرقص واستولت على ألبابهم الموسيقى. وكذلك تم للخير والفضل حكم العالم.

وكان «ست» إله الشر أخا لأوزوريس. ولما رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقا فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه. فدخل إليه الأضياف واحدا بعد الآخر حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه ـ وكان قد صنع على حجمه ـ أسرع شركاء اله الشر فأقفلوا الصندوق وألقوا به فى النيل، فدفعه التيار إلى البحر وقذفته الأمواج إلى شاطىء الشام وبقى عنده إلى جانب شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين إلى أن جاءت به ايزيس إلى مصر بعد حزن وبحث. لكن «ست» عثر به ثانية فى احدى جولاته جوف الليل فمزق جسد أخيه أربعة عشر جزءا ألقى بكل منها فى مكان. فعادت إيزيس إلى بحثها واستعادت أجزاء الجسم واستعانت بأختها وبابنها الاله هورس وبطقوس الدين فردوا اليه حياة شابة خالدة لايحياها على الأرض بل فى السماء. وكذلك بعث الاله الملك ووعد بالبعث كل من يفعل الخير حين حياته.

... وهذه قصة المعركة بين الآلهة وأوزوريس اله الخير قد وجد من العجل أبيس ممثلا له ولباسا. أو قل انهما صورتا روح واحد ورمز لمعنى الخير. فما السخف فى أن يعبد الناس هذا الرمز ويقدسوه.

بلغنا من سيرنا ثكنات قصر النيل. فملنا إلى يميننا فى طريق الجسر، وهبت علينا نسمات الأصيل المنعشة فى هذه الأيام الصحو الجميلة التى تفصل الخريف من

الشتاء. ولحق بنا أثناء الطريق شيخ من ظرفاء أصدقائنا قال أنه يقصد أن يعبر النيل على جسر اسماعيل لرياضة نفسه فى حدائق الجزيرة ولملاقاة أصحاب على موعد معه بجوار الكوبرى الأعمى. وكان قد أنصت إلى طرف من الحديث لم يشغل عنه الا بمنظر شبان من جنود الإنجليز يلعبون كرة القدم فى فناء الثكنات، وقد كشف رداء اللعب عن أذرعهم وسيقانهم وبدت على بعضهم مظاهر جمال القوة والنعمة. ولما ملأ أعينه من هذا المنظر كان أخونا الأشيب قد أتم حديثه. فقال الشيخ:

ـ ما لكم تدهشون أن عبد قدماء المصريين عجلا وقد عبد العرب الأصنام وآمنوا بالهبل الأكبر وبمن دونه حتى بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وهل أرسل نبى الا لقوم أولعوا بالحياة حبا فجعلوا من كل مظهر فيها قدسا وزين لهم الشيطان عملهم فصدهم عن عبادة الله فقام النبى بينهم ليهديهم السبيل فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ولقد كان فراعنة مصر أشد الناس الحاحا فى الكفر. جاءهم موسى بالهدى والبينات وخر سحرتهم أمامه سجدا فأبى فرعون واستكبر وهمّ بقتل الرسول، فخرج موسى وقومه من ديارهم وأنجاهم الله بآية منه أن أمر موسى فضرب بعصاه البحر فانفتح أمامه فى البحر سرب، وتبعه فرعون وجيشه فابتلعه اليم فكان من المغرقين.

.. وهل تظنون أن هؤلاء السكسونيين ـ وألقى من جديد نظرة على اللاعبين ـ لم يكن يعبد آباؤهم أصناما شر من أبيس ومن الهبل الأكبر. تلك سنة خلت حين كان العالم فى جهله وعمايته.

قال صديقنا الأشيب مبتسما:

ـ وهل أتاك يا سيدنا الشيخ نبأ السكسونيين؟ لقد كانوا أيام ربوبية أبيس فى الكهوف بين الوحوش. وأيام أبيس كان الكهنة ورجال الدين فى مصر يؤمنون بوحدانية الله. فأما آلهة الخير والشر والحرب والسلم فكانوا رموزا لمعان سامية لايدركها

السواد ما لم يكن لها جسم وكيان. وأظنك ترى مصر الحديثة كمصر القديمة. يوحد رجال الدين ويقدس السواد رموزا لأمانيهم كالعجل القديم.

لكن الشيخ كان قد بلغ جسر اسماعيل وآن له أن يعبره إلى الكبرى الأعمى فألقى علينا السلام مودعا. ورددنا تحيته بأحسن منها.

وكان الذى دعانا إلى الشاى قد لزم الصمت إلى هذه اللحظة. فقال له صديقنا الشاب وكان بآرائه مغرما:

ـ مالك لاتتحفنا برأيك.

قال الذى دعانا إلى الشاى.

ـ علمنا أساتذتنا أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. فالحكم على أبيس وعبادته وطقوس تلك العبادة يجب له أن نحيط بكيفية إدراك المصريين لهذا العجل احاطة تامة. وما أحسب واحدا منا هنا يدعى هذه الإحاطة، بل ما أحسب علماء العاديات المصرية أنفسهم، مع كثرة ما بحثوا ونقبوا، على ثقة من أنهم عثروا من النصوص والاثاز على ما يكفى ليرسم أمامهم فى صورة ناطقة حياة هذه الجمعية التى يعترف الكل اليوم لها بأعظم حظ من الرقى فى درجات الحضارة. ولقد قال هؤلاء العلماء أنفسهم بعد الكشف عن قبر توت عنخ ـ آمون، أن واجبا تحوير ما كتب حتى اليوم عن العاديات المصرية تحويرا جوهريا وتصحيحه ليقرب من مطابقة الواقع. هذا ولما يعرف كل ما فى قبر الملك الشاب من أسرار. ولايمكن لأحد بعد أن يقطع بأن هذا القبر آخر ما يمكن الكشف عنه من آثار المدنية القديمة العظيمة.

... ولو أنا أتانا اليقين بكشف العلم عن جميع العاديات والاثار المصرية القديمة وبوقوف العلماء على جميع مخطوطات تلك العصور لما قطع ذلك بأنهم بلغوا غور النفس المصرية من ستة آلاف سنة ففتحت لهم أبوابها وساغ لهم تتبع دبيب

احساساتها ومشاعرهاوتقدير أثر الظواهر العالمية على تلك الاحساسات والمشاعر. فإنما يترجم العلماء نصوصا مصرية من اللغة الهيروغيلفية القديمة إلى اللغات الحديثة ويقربون بينها ويستنبطون منها. والمترجم من لغة إلى لغة لايعكس صورة الأصل، وإنما يعكس صورته هو من خلال هذا الأصل، كما تحيل المرآة اللون إلى الصفرة أو الحمرة على قدر صفاء مائها، وكما تطيل الشخص وتقصره وتعظم بطنه وتعرج سيقانه على قدر استواء سطحها أو تعرجه. هذا لو كان المكتوب الذى ينقله المترجم معاصرا له. ثم هو بعد تمام الترجمة غير مطمئن إلى أنه أبرز كل ما فهمه فى الأصل من معان وصور ومشاعر. ذلك بأن لكل لغة سرا وروحا. فالكلمة الواحدة تصقلها البيئة والعصر فتبعث فيها حياة ذات صور وحدود قد تختلف جد الاختلاف عن مقابلتها فى اللغة الأخرى. وقد تختلف جد الاختلاف عن حياتها نفسها فى بيئة أخرى أو فى عصر آخر. ما بالك والنقل من لغة بائدة من آلاف السنين، والعلماء الناقلون غير واثقين بكم حياة كل لفظ ينقلونه ولا بكيف هذه الحياة. وأهل هذه العصور البائدة يتصورون العوالم والأفلاك غير تصورنا نحن اياها... وإذا كان المسيحيون قد اختلفوا فى تفسير كتب المسيحية فنتج من خلافهم الكثلكلة والأرثوذكسية والبروتستانتية وسائر المذاهب؛ وإذا كان المسلمون قد انقسموا فرقا من سنية وشيعة ودروز ومتاولة وغيرهم؛ وإذا كان الفلاسفة الذين يزعمون الأخذ بالواقع تحت الحس والملاحظة قد تشعبت فرقهم، وإذا كان هذا الخلاف كله حاصلا وليس ثمة نقل من لغة إلى لغة، فكيف تستطيع أن تطمئن إلى ما يقال لك أنه طقوس عبادة أبيس وغيره من الهة المصريين. وكيف تسلم بأن ربوبية آلهة تلك العصور كانت تزيد على إيمان سواد المسيحيين بالقديسين والقديسات وسواد المسلمين بالأولياء والصالحين.

وفيم كان صاحب الدعوة إلى الشاى يتم حديثه كانت الشمس قد بدأت تهبط الى مغيبها. فأقتعد القرص هام أشجار الجزيرة، وألقى على لجة النهر نظرة خطت فيه

سطرا من لجين معسجد. وألهب نوافذ المنازل المقابلة بنور انقلب مع انحدار الشمس نارا تشب فى مثل هذا الموعد من كل مغرب لتخبو ساعة المغيب.، وسرت فى الجو طلائع المساء ونذر الليل المخوف الظريف. وسار من سار إلى جانبنا أكثر سكونا ومهابة.

ثم مر أحد باعة اللبن يقود أمامه بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ويتبعها عجل أسود تبدو عليه امارات الحضارة التى يعانيها فى أنحاء العاصمة الكبيرة كل يوم لأخذه بالنظام فى سيره تجنبا للعجلات المتباينة الأنواع. فلما رآه صديقنا الأشيب استوقف بائع اللبن وسأله عن عمر العجل، فإذا هو خمسة أشهر؛ واستدنى البائع العجل من أمه ليدر ضرعها، وأخذنا العجب لفعلة صديقنا. فنادانا لنحيط بالعجل وأمه ثم قال:

ـ لم يولد هذا العجل من ستة آلاف سنة، وهو لذلك يجوب طرقات القاهرة التى لم تشهد الفراعنة ولم تنل شرف حكمهم.وأشهد لو أنه ولد من ستة آلاف سنة لكان أبيسا مقدسا. فهذه غرته وهذا الهلال فى جنبه الأيمن وهذا ذنبه ذو لونين، وله كل مظاهر الجلال؛ فما كان لاحد من رجال الدين أن ينكر قداسته. ولو أنه أوتى من الحظ أن يولد فى ذلك العصر القديم أو أن مصربقيت إلى اليوم فى سلطان حضارة الفراعنة وايمانهم لكان له شأن غير شأنه الذى نرى، ولكان اليوم فى مدينة نيلوبوليس لاتقع نظراته الساذجة المملوءة حكمة وحذرا على غير العذارى والنسوة المتجردات، ثم لكان له من احتـ ـهن وعبادتهن غير تلك النظرات الشزر التى تناله من مفتونات اليوم فتيات وعجائز وليدن له فى صور وأوضاع تكفل لهن الخصب الذى يرجين، ولتنافسن فى ذلك خاضعات لطبعهن البشرى فأبدت كل من محاسنها ما يأخذ بنظر الإله الشباب وينال رعايته، واتجهت إليه نظرات معسولة وشفاه شهية تنم عن لؤلؤ رطب يتألق نوره بين حمرتها الملتهبة. ومالت أعناق عالية تبدو من خلال الشعر الأسود المرسل على الأكتاف كما تبدو تباشير الفجر من خلال ظلمة الليل، وامتدت

أذرع ناعمة تشتبك أطرافها داعية مستجيبة. وبدت نهود وماست قدود وتثنت خصور وارتجت أرادف وتحرقت للحركة سيقان وماج هذا الجمال الثائر فى طلب الحياة يحملها على أضلعه. ثم لوقف العجل بذلك فى معرض حى لأكمل ما أبدع مصور المرأة مجلواً فى أجمل مظهر وأسناه. وما بالك بمعرض متجردات خلعن عذار الحياء وتبارين فى أوضاع الخصب الذى تتباهى به الأمم يوم القيامة.

... لكن هذا العجل العزيز لم يؤت حظ القداسة، فلم يولد من ستة آلاف سنة ولم تبق ربوبية أجداده آية إيمان لهذا الجيل الذى نعيش فيه. وهو بذلك ليس أسوأ من أى مخلوق حظا، فقد يكون من بيننا من آباؤه ملوك ومن لو رأى الحياة من بضع مئات من السنين لكان ملكا. على أن عجلنا أسعد من غيره من العجول. فهو قد حرم القداسة ومعرض المتجردات الحى، لكنه لم يحرم حضارة المدنية وما فيها من لهو أليم وشقاء مستطاب. ثم لعله فى شأنه الحاضر أنعم بالا. فهو ينعم بمعاشرة الناس والدواب نهاره، ويتمتع بالوحدة وبمناجاة الطبيعة ليله، وله من حرية الجرى والرتع ما لم يكن لجده الأعلى؛ وربما كان له من ذلك ما يعوضه عن مقام أبيس فى قصر زريبته، وعن طعامه الفاخر من نظيف البرسيم ونقى التبن والفول، وعن الاحترامات القدسية التى تقيده ولاتفيده. بل لو أن عجلنا هذا كان عجلا فلاحا لما أعوزنا المنطق عن أن نجد له من المزايا على أبيس ما ينفى حقارته إلى جانبه، وما يصدق معه أن كل فرد من المخلوقات أسعد ما يكون ما وجد فى نفسه سعادته، وهو أشقى ما يكون ما فاضل بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين النعماء والبأساء..

فيم كان صديقنا الأشيب يتحدث كان صاحبنا نجى أبيس يمسح العجل ويملقه والسرور يلمع فى عينيه. فلما فاض عنه سروره قطع حديث الأشيب وقال لبائع اللبن:

ـ بكم تبيعنى عجلك هذا؟

وتمت الصفقة ودفع العربون، وكفل بواب سميراميس بائع اللبن الذى رأى الاحتفاظ بالعجل أياما حتى يحل محله «بو» يدر لبن أمه.

قال المشترى وقد التفت نحونا:

ـ لأجعلن لهذا العجل عندى قدسا كقدس أجداداه. ولأمتعنه من نعيم الحياة ومن احترام الناس بما تمتعوا به.

قال الأشيب:

ـ حذار أن تنسى حقه فى المتاع ببقرة فى كل عام؛ وإياك أن تتخذ من هذه الأبقار ونسلها تجارة فيكون ذلك منك تجديفا قد ينالك أوزوريس بعده بضر.

قال صاحب أبيس:

ـ أوزوريس اله الخير! فهل تنال آلهة الخير الناس بضر؟! على أنى لن أجدف ولن أجعل من صاحبات أبيس تجارة. بل سأنحرها يوم متاعه وسأجعل لحمها وقفا على أحباب أبيس.

سميراميس

تخطينا باب سميراميس إلى البهو الكبير فقابلتنا أضواؤه وبسطه ومناضدة منثورة في نظام جمع إلى البهاء الجلال. وتقدمنا الذى دعانا إلى الشاى يتخير لنا مكانا. ووقفت وبجانبى صديقنا الشاب. أما نجى أبيس فتبع الأشيب بضع خطوات كان فى خلالها يقلب فى الحاضرين نظره. ثم انتظمتنا جميعا مائدة ما كدنا نجلس اليها حتى أقبل علينا صديق حيانا وجلس إلى مائدة تجاورنا مع جماعة من أصدقائه الأوربيين سيدات وسادة. وجاء الغلام يتلقى أوامرنا. ففيم كان الذى دعانا إلى الشاى يحدثه مال إلى نجى أبيس وسألنى:

ـ لم دعوا هذا الفندق سميراميس وكان لهم فى أسماء آلهة مصر القديمة وملوكها ما يغنيهم عن هذا الأسم الأجنبى؟

فقلت:

ـ لعلهم يوم أطلقوا عليه هذا الأسم كانوا يحسبون سميراميس اسما مصريا. فله من الرنين ما لأبيس وايزيس وأوزوريس وسيرابيس وما إلى أولاء جميعا من الإيس الذى لا نهاية له فى الهيروغليفية. وليس يطلب إلى أصحاب الفنادق أن يكونوا نحارير فى

العلم بأسماء الآلهة الأقدمين، وبحسبهم أن يجمعوا المتشابه فى رنته وأن يضيفوه بعضه إلى بعض على أنه مصرى ما داموا فى مصر. وكأنى بك لو وجهت سؤالك إلى مدير هذا الفندق لرأيته مجيبا إياك فى لهجة اليقين بأن سميراميس آلهة مصرية أو اله مصرى. وربما أطلعك على بعض ما عنده من آثار تؤيد ذلك وتنطق به. وله عذر عن يقينه. فنحن جميعا نميز اللغات بعضها عن بعض بما لكل من رنين كما نميز الأمم بعضها عن بعض بالألوان والملامح.

فرغ الذى دعانا إلى الشاى من إصدار أوامره. وكان أصحابنا قد أنصتوا لهذا الحديث. فلما أتممت عبارتى قال الأشيب:

ـ لو أن أصحاب النزل تحروا يوما أن تكون أسماء نزلهم مصرية لوجب عليهم أن يبحثوا تاريخ بلادنا ولما كان لهم من وراء بحثهم مغنم. هم أنما يطلقون على فنادقهم أسماء اختصت بها الفنادق فى مدن العلالم جميعا كى يثير الأسم فى نفس قاصدها صورة معينة تحببه إليه وتطمئنه إليها. وهم فى ذلك يسيرون سيرة الناس جميعا فى التسمية. فكما أن للذكران من الناس أسماء وللاناث أخرى، وكما أن للقطط أسماء وللكلاب أخرى، كذلك للنزل والفنادق أسماء. على أن أسماء النزل لها من المزية أنها عالمية غير قومية ما اختصت بالسائحين الذين يجوبون أقطار الأرض. فبحسب أصحاب هذا الفندق من الشجاعة أنهم خرجوا على الناس فى اسماء الفنادق وأطلقوا عليه اسم سميراميس.

قلت: ولم لا يكون لاسم سميراميس أثر باق على أرض مصر وقد كانت مصر فى ملكها؟

وكان صاحبنا الجالس إلى أصدقائه الأوربيين سيدات وسادة قد ألقى بسمعه الينا. وكانت قد بدت عليه علائم الدهشة لهذا الحديث، ولم يخف دهشه عن جلسائه فاستأذنهم كى يسألنا قال:

ـ أو ليست سميراميس ملكة مصرية أو آلهة مصرية كايزيس؟

فتبسم الأشيب ضاحكا من قوله وأجابه:

ـ لعل أصدقاءنا لا يأبون أن أحدثك بشيء عنها. فهي لم تكن مصرية. لكنها ملكة إلهة معا. وكان لها من الأثر في الحضارة القديمة ما كان لاكبر الملوك الآلهة المصريين، بل ربما كانت أقوى منهم سلطانا. فقد كانت آلهة الجمال عند الآشوريين. ولعلك لا تنكر يا صديقي ما للجمال على الناس من سلطان، وكانت ثمرة غرام لم يعقده الشرع. فقد عبثت أمها «درسيتو» إلهة البحر بالزهرة إلهة الجمال. فنقمت الزهرة منها عبثها وسلطت عليها شابا أغواها وأولدها طفلة بارعة. فركب «درسيتو» من الهم ماركبها ودفعها غضبها إلى أن قتلت الشاب وتركت الطفلة في الصحارى وألقت بنفسها في اليم بين الأسماك. ثم حنا على الطفلة جماعة من اليمام أطعمنها إلى أن عثر بها قوم من الرعاة التقطوها ودعوها سميراميس أي اليمامة. فشبت فقيرة جميلة حتى تزوجت من «نينوس» كبير ضباط الجيش. وكانت ذات همة دفعت زوجها إلى فتح المدائن والدول. لكن جمال سميراميس سما بها إلى مضجع صاحب عرش آشوريا فخلعت نينوس عن العرش وصارت للملك زوجا.

هنا بدت على أجمل صديقات جارنا الأوربيات آيات الانصات والالتفات. فقد كانت إلى هذا الموضع من الحديث تداعب صاحبها بنظرات معسولة تتجه إليه حينا لتلقى بها بعد ذلك على ذراعيها العاريتين وقد جعلت رسغيها على المائدة واعتمدت بخدها على ظاهر يمناها المشتبكة بالأصابع مع اليد اليسرى. ثم تعيد النظرة إلى صاحبها وكأنما تريد أن ترى في عينيه كيف كان سحره بهذه الأذرع البديعة.

واستمر الأشيب في حديثه:

ـ على أن سميراميس لم تلبث مع الملك الا قليلا حتى استكبر الجمال على الملك فدست على زوجها من قتله وانفردت بالعرش بعده. فلما استتب لها الأمر شيدت على شاطىء الفرات «بابل» أبهى مدائن العالم فى عصرها وأحاطتها بأسوار وحصون ذات قوة ومنعة، وأنشأت فى المدينة أجمل القصور وغرست فيها الحدائق المعلقة. ثم اتجهت همتها من بعد ذلك للغزو والفتح فأعادت إلى ملكها بلاد ميديا والعرب وارمينيا والعجم، وكانت كلها قد خلعت النير الذى أخضعها له نينوس، ثم ضمت مصر وليبيا من افريقيا وواصلت الغزو فى آسيا إلى نهر السند حيث أفل نجمها ولحقتها الهزيمة. وقد خضعت هذه الشعوب جميعا لحكمها مدى اثنتين وأربعين سنة كانت كلها سنى نعمة وحضارة. وعلى رأس هذه السنين نازعها ابنها الملك فنزلت له عنه مختارة ثم ارتفعت إلى السماء حيث تقيم حتى اليوم بين آلهة الجمال.

.. ذلك عهدها. أو ليس من حقها وقد سعدت مصر بحكمها أن يكون لاسمها فى مصر أثر.

فرغ الأشيب من حديثه وانقضت فترة شغل صاحب السادة والسيدات الأوربيات خلالها بعبادة ذراعى صاحبته، وتناول كل منا قطعة من فطير أو حلوى وشرب فنجانه من الشاى. ثم قال نجى أبيس:

ـ ألا ترون عجبا أن تكون فترات حكم النساء الأم زاهرة أبدا تينع فيها الحضارة وتتجلى فيها أبهى ثمرات الفكر والفن. هذه أيام هاتاسو وكليوباطرة وشجرة الدر كانت فى مصر أيام مجد ونعمة. ثم هذا صديقنا قد قص علينا من تاريخ سميراميس ما يجب أن يحفظه التاريخ لسلطان النساء فخر الأبد. ولو أن انكلترا فاخرت يوما بعهد من عهودها لكان عهد الملكة فكتوريا أبهى عصر مر بها، ثم لو جدت فيمن سبقنها من الملكات أمثال اليصابات من كن للسكسون فخرا وعزا. فكيف ترى يستتب الأمر لها تيك الملكات وكيف يخضع الرجال لحكمهن؟

قال الذى دعانا إلى الشاى:

ـ ولكن لا تنسى أن حكم النساء كان ينتهى أبدا بالاضطراب والانحلال إلى أن كان نظام الحكم النيابى الذى جعل الملك الصالح كالملكة الصالحة بعيدا عن التدخل فى شئون الدولة.

قال الأشيب:

ـ وأى عجب فى هذا كله. إن النساء لا يستوين على عرش أمة إلا بعد أن تبلغ من الحضارة والسؤدد أكبر مبلغ، وبعد أن يهيىء الرجال فيها من أسباب النظام والقوة ما تبعث إليه الملكة التى تخلفهم من عذب روحها وسحر جمالها ما يثير قوى النفس والفكر التى كانت كمينة فى النفوس السامية تحت سلطان القسوة. ولعل أشد ما يدعو الرجال للرضا بحكم النساء أنه حكم الجمال. فقل أن كان بين الملكات من لم تكن ذات دل وسحر. وللجمال على الرجال أكبر الأثر. وهذه سميراميس الفتنة الساحرة كانت يوما فى غرفة زينتها اذ بلغ سمعها هياج أهل عاصمتها وقصدهم قصرها يحاصرونه ويهاجمونه. فلم تفعل أكثر من أن خرجت إلى شرفة القصر نصف عارية وقد انتشر شعرها الفاحم حول جسمها الناعم. فلما رآها الثائرون أكبروها وشدت إليها أعينهم وخفتت أصواتهم وأخذهم البهر من كل مكان ونسوا ما ثاروا له وانصرفوا وهم أشد أهل الأرض لملكتهم حبا وبها تعلقا.. وظلت صورة إلهة الجمال فى شرفة القصر مرتسمة فى نفوسهم. ثم فاض عنهم هيامهم فأقاموا لسميراميس العارية يسترها شعرها تمثالا فى بابل يحجون إليه ويجدون فيه ذكر ساعة من أحب ساعات حياتهم إليهم. وهذا الذى صنعوا ينبىء عن عظمة هذا الشعب ورفعة حضارته. فالرجال للجمال أعلى قدرا وأكثر خضوعا كلما كانوا أسمى نفسا وأدق حسا. أولئك يطلبون فى الجمال كمال الإنسان مصورا فى أحد أفراده. أما الذين تتحرك نفوسهم إلى الأنثى يدفعها بقاء النوع وحده فأولئك إلى البهائم أقرب. وأدق

الحس وسمو النفس يجعل من أولئك الممتازين أعوانا صادقين للملكة التى تحكمهم. لكن توحش السواد لا يسموا به لدرك هذه المعانى السامية. لذلك يعمل الدساسون لاثارة شهوات هذا السواد. وكلما انتطح فى الإنسانية كمال الإنسان وحيوانيته كانت الغلبة الأولى للحيوان. ثم يستكن الإنسان الكامل مؤمنا بأن له الغلبة آخر الآمر. وهذا هو سر عدم تعاقب النساء على الحكم برغم ما تمتاز به عصورهن من حضارة بالغة أدواتها من العلم والفن غاية ما يرجو الإنسان من كمال.

كذلك قال الأشيب. وملأ قوله أجمل صديقات جارنا عجبا وتيها، فاعتدل رأسها وانصقلت صفحة جبينها وأضاء وجهها نور زاد جمالها سحرا واشتملت نظراتها البهو ومن فيه كأنما هم لسلطان جمالها تبع. على أن عيونها أخذت صديقنا الأشيب بعطف مدل شعر به جليسها فأطرق إلى الأرض وكأنما بدأت الغيرة يدب إلى نفسه دبيبها. ولم تفت الأشيب هذه البوادر حين التفت بنظراته إلى الجميلة فنمت عيناه عن جيش من المعانى قام بنفسه. لكن صديقنا الشاب لم يمهله فى متاعه بهذه العواطف العذبة السائغة بل اعترضه بقوله:

ـ أعجب للرجال كيف يستذلهن النساء. والغريب فى أمرهم أنهم يزعمون أن جمال النساء سبب سلطانهن. ولست أذكر فى أى كتاب قرأت أن الجمال للرجال ولا نصيب للنساء منه. فذكور الحيوان والطير أجمل من إناثها. أليس الحصان أجمل من الفرس والثور أجمل من البقرة والأسد أجمل من اللبؤة والطاووس الذكر أجمل من الأنثى. وأين لانثى البلبل صوت البلبل الرخيم. فكيف تبدلت فى الناس سنة الطبيعة فكان الجمال من حظ المرأة ولم لا يكون جمال المرأة فى نظر الرجل ضربا من السخف وضعف العقل أملت به على الرجال شهواتهم ثم تعهد النساء بقاء هذا السخف فى الرجال باستفزازهن شهواتهم فى كل آن.

حولت الجميلة إلى صديقنا الشاب نظرة اشفاق وازدراء. وكان الأشيب مسحورا لا يزال. وقد أراد الذى دعانا إلى الشاى أن يتولى الحديث مع الشاب. لكن الأشيب

شعر بما يجب عليه من حماية الجميلة التى عطفت عليه وكل جميلة مثلها، فجمع قواه ووجه إلى الشاب فى هدوء وسكينه هذا الحديث.

ـ حذار يا صاح لا تندفع. فمن أنبأك أن كل ذكر أجمل من كل أنثى؟ أليس هو نظرك وأنت وثقت به! وهو نظرك كذلك الذى أنبأك بأن الجمال للمرأة لا للرجل فيجب أن تثق به: ولعل الكتاب الذى استخلصت منه حجتك هو بعض كتب شوبنهور، ذلك الفيلسوف الألمانى المتطير بالمرأة وبالحياة جميعا. وإنما أملى عليه رأيه فى المرأة فرط حبه لصاحبة له وامعانها فى الصد عنه وفى تعذيبه. ولو أنها مدت له حبل الآمل ولم تحرمه نائلا منها لكان بالمرأة أكثر رفقا وللحياة أشد حبا، ثم لعرف النعيم والسعادة ولجعل للزهرة ولسميراميس فى قلبه تمثالا يجله ويعبده على غير ما كان يعبد تمثال بوذا البطين الأبله. ولو أن رأى الفيلسوف فى جمال الذكران من الحيوان كان صحيحا لما جنى ذلك على جمال المرأة ولا حط منه. فقد أهمل الرجل ما جملت به الطبيعة الحيوان من تناسق مظاهر القوة فيه وعنى بتحميل خير ما حبته به الطبيعة اياه من هبة الكلام. فهو بالكلام يشعر ويتغنى ويرجو ويزجر. وهو بالكلام بلبل وطاووس وفهد وأسد. والكلام عنده صورة الحقيقة والخيال جميعا. وجمال المرأة حقيقة وخيال معا. هو شعر وهو موسيقى وهو حس ملموس فيه نعمة الحياة بل الحياة كلها مجتمعة. والرجل بالكلام يتغزل فى هذا الجمال المشتملة أحشاؤه كمال الإنسان. أما الحيوان فلا يعرف ما الكمال وليس له به عهد. ولذلك كان الرجال للجمال أعلى قدرا وأكثر خضوعا كلما كانوا أسمى نفسا وأدق حسا.

فرغ الأشيب من حديثه بعد مازاد الجميلة عليه عطفا. ثم تناول الذى دعا إلى الشاى الحديث من بعده فقال:

«عد بنا يا صديقى إلى حديث سميراميس آلهة الجمال عند الآشوريين. فقد ذكرت أنها هجرت نينوس لتكون زوجا للملك. وأنها دست على الملك من قتله

لتنفرد بالملك بعده. وأنها برزت للشعب عارية لتبهره. وأن ابنها الذى لا يعرف أحد أباه نازعها الملك آخر أيامها. وليس فى كل هذا ما يشهد بعفة الملكة الآلهة. والمستخفات بالعفة من الإهات الجمال لسن أول من عرفت الانسانية حين أقرت عبادة المرأة. بل سبقهن أبدا من كن ذوات عفة وأمانة ولم تنحدر الزهرة عند الأغريق إلى تعشق آلهة ورجال عدة اتخذوا من جمالها وجسمها لملذاتهم وشهواتهم متاعا إلا بعد عصر كانت فيه مثال الوفاء. فهل كان للأشوريين قبل سميراميس الآهة قرنت إلى الجمال الوفاء.

قال الأشيب:

ـ لا تصدقو مضيفنا الكريم أن الوفاء على ما يفهمه الناس كان يوما بعض فضائل آلهات الجمال. ولئن كانت الأساطير لم تشر إلى صلات زهرة الأغريق بالآلهة والناس قبل خيانتها زوجها هفستوس فهى قد أشارت إلى ولع سيد الآلهة جوبيتير بالزهرة ودلها عليه وانتقامه منها بتزويجها من الاله القبيح الذى لم يكن لها من خيانته بد. وكيف تريد بآلهة الجمال أن تضن بجمالها وفى سجية كل اله أن يهب الناس من مزاياه ما يعينهم على الحياة. وكأنى بالآشوريين كانوا أكثر حكمة فلم يقتضوا الإهتهم ما تأباه سجيتها بل جعلوها ثمرة الهوى ليكون الهوى أول ما تتجمل به من الفضائل.

ازدادت الجميلة انصاتا للحديث ونمت نظراتها عن الرضا عنه والعطف على قائله. وكأنما دفع ذلك إلى نفس صاحبها ملالا وقلقا زادها ما كان من انصرافها عنه. فلم يجد لإرضاء غيرته سبيلا إلا أن دعا جلساءه لنزهة على ظهر الماء. وكان الجو رفيقا والنيل أمام الفندق يسيل هادئا مطمئنا. وكان من عدا الجميلة لا يظهر عليهم أنهم يفهمون حديثنا. فأسرعوا إلى تلبية الدعوة ولم تر الجميلة وجها لرفضها. فتركوا مجلسهم بجوارنا بعد ما صافحونا مودعين وبعد ما زودت الجميلة صديقنا

الأشيب بنظرة فيهـا معنى الأسف الذى لم يلبث أن تطاير قبل باب الفندق. فقد سمعناها تضحك طربة لنكتة قالها أحد السادة الذين كانوا معها. ولعل هذه النكتة كانت انتقاما منا واستخفافا بأمرنا.

وكان صديقنا الشاب لا يظهر اقتناعا بشيء من حديث الأشيب، وكأنما ذاق من تحكم الجمـال فيـه، مما لم يزل سرا مطويا علينا، ما نقض إيمانه بالمرأة وسلطانهـا. وكان بالرغم من هذا أطولنا تحديقا بالجميلة إلى حين قيامها. ثم اتبعها بنظراته حتى خرجت. فلمـا غـابت عنه زفر زفـرة معناها: ويل لكن، هل إلى خلاص من حكم جمالكن سبيل! ومضت فترة، كنا فيها جميعا صموتا، استعاد الشاب خلالها حكم نفسه ثم قال:

ـ ذكرتم أن الآباء من قدماء المصريين اتخذوا من أبيس للخير والبركة رمزا فجعلوا العجل آلها. فلم لم يتخذ الناس للجمال رمزا من حيوان أو طير يؤلهونه. ولم كانت افروديت والزهرة وسميراميس وسائر الاهات الجمال نسوة. تالله ما كن ليرقين إلى موضع القداسة لو نظر الرجال اليهن بعين العقل وأخضعوهن لسلطانه.

قال الأشيب:

ـ كانت الآلهة جميعا رموزا لمعان هى قوام الحياة. لكن الأقلين منهم كانوا من الطير أو الوحش. أما أكثرهم فكانت لهم أجسام الإنسان ورؤوس الحيوان. وكثيرون كانوا أناسى رؤوسا وأجساما. وقد كان سكان الأولمب فى اليونان القديمة رجالا ارتقوا إلى مراتب الألوهية ثم ارتفعوا آخر حياتهم إلى الجبل المقدس وأحاطت الأساطير من بعد ذلك مولدهم ومنتهاهم بأبهى الخرافات. على أنك إن استطعت أن تجد للقوة فى جسم الأسد رمزا تضع عليه رأس الإنسان لتجمع الحكمة إلى القوة فانك لن تجد فى غير جسم المرأة ورأسها رمزا لأسمى معانى الجمال عند الإنسان.

وهذه الجميلة التى غادرتنا من لحظة والتى نالت من كرم الطبيعة ما لم تحلم سميراميس بأكثر منه لا رمز لها إلا هى. أم ترى أن الذى يقرنه الشعراء إلى جمال المرأة فى الظبى أو بقر الوحش أو هذين من الحيوان يمكن أن يكون لجمال المرأة رمزا. تعالت المرأة وجمالها عما يصفون. وهاتيك الآلاهات اللاتئ عبدن فى الماضى واللاتى نزلن من سمائهن فى عصرنا هذا الذى أنزل العلم والفن فيه أقدس الأشياء لتكون معنا كن، ولن يزلن، الرمز الا سمى والتمثال الخالد يحتفظ به الرجل فى قلبه ويجد فيه ما يجبب إليه الحياة وخلد الحياة.

ابتسم أصدقاؤنا جميعا لحماسة الأشيب الذى عرفناه أكثرنا هدوءا وسكينة. لكن نظرات الجميلة كانت قد فعلت به فعلها فسحرته عن نفسه وجعلت منه عابدا متعصبا فى عبادته، وقال له نجى أبيس:

ـ لكنك يا صديقى لن ترى بين الاهات قدماء المصريين من استخفت بالوفاء وجعلت من جمالها متاعا للآلهة كافة. ولقد حدثتكم بحديث ايزيس فرأيتم مبلغ وفائها لأخيّها وزوجها أوزوريس. قتله أخوه آله الشر تيفون فاستقلت البحر باحثة عن جثتة. فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تفريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ثم حبست نفسها لتعيد إلى آله الخير حياة الخلد. وعملها هذا آية فى الوفاء من امرأة، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة.

* * *

وبدأ الحديث يدور بعد ذلك حول ايزيس. فقال صديقنا الشاب:

ألا ترون أن نصنع ما صنعه جيراننا فنمتطى الماء زمنا نروح فيه عن أنفسنا ونناجى أثناءه الاهة الوفاء والجمال.

ونادى الذى دعانا إلى الشاى غلام الفندق فنقده حسابه. وقمنا إلى نزهتنا فأقلنا قارب وسعنا جميعا. ودار حديثنا حول عبادة ايزيس فى مصر وروما واليونان.

خالد

أو سبيل اليقين

.. ولم يكن فى الواحة الا خالد وأهله، لجأ اليها بعد أن سلخ من عمره سبعين عاما قضى شطرا منها فى أعمال الحكومة وشطرا فى المتاجر. أما سنو شبابه فقضاها فى القصف والغزل. وكان عيشه فى هذه الواحة مثال التقشف والزهد، وكان المحيطون به دائمى الإحساس بشىء من الملال. ولولا كتبه ومكتبته لوقع هو الآخر فيما وقعوا فيه، لكنه اعتزلهم إلا عند الحاجة وعكف على مكتب له من الخشب الأبيض قديم يغطيه مشمع أخضر عليه بقع شتى من الحبر فلا يتركه إلا ليسير تحت أشجار النخيل المنتشرة فى الواحة يقرأ آونة ويحدق بالسماء الصافية أخرى.

وكان همه الأكبر من قراءته أن يصل إلى عزاء عن الحياة بعد اذ قضى الحياة ضاحكا من الحياة وما فيها، هازئا بالسرور والألم، ساخرا من الأمل واليأس، معظما للرجل محتقرا للجماعة. طالما ناوأته الهموم كأنما تريده على التفكير عن ذنب فرط منه لا يعرف ما هو.. ثم تراجعه نفسه القديمة القوية الشابة، فيضحك من نفسه

العجوز الخائفة من الموت، المحبة للحياة، الطامعة فى العيش المهتمة له وقد كانت تعتبره سخرية وهزوا.

فاذا انقضى النهار ولم يدرك غرضه. ولم يتعز عن الحياة تسخط واستشاط ودخل إلى قومه وكله الغيظ. فإذا دنا منه إحد علا غضبه وتطاير فى كل صوب شرره، وأسمع الفضاء المحيط به أنات ألم تقض مضجع من حوله.

وكثيرا ما كان يقول لهم: «غدا أموت ولم أكسب من حياتى شيئا، وتدفنوننى وكلكم جذل أن سيرجع إلى حريته فيترك وحدة الصحراء إلى بهجة المدن، وأبقى أنا هنا وحيدا تحيط بروحى المنفردة أرواح المساء الصامتة، فأكون بينها أشد صمتا ووجلا. وتذهبون أنتم إلى القاهرة وإلى الإسكندرية ترقصون وتطربون، وإذا جن الليل تهيمون. ألا ما أضيع حياتى وما أشد كفرانكم».. فتسكن ثائرته عائشة ابنته ببعض كلمات رقاق ترسل بها كأنها نغمات الكمنجا تسلى العجوز عن بعض همه، فيلمس بيده الناشفة على يد ابنته الشابة اللينة ويستزيدها ولا هم له إلا أن يسمع رنين صوتها على موجات الهواء. فإذا تخدرت أعصابه بهذه النغمات نادى: «ياباترا» فجاءت الخادم وهى أرشق ما تكون قواما وأحلى ما تكون نظرة فوقفت أمامه وبقى هو يحدق بها يدنيها منه.. ثم يأخذه بعد ذلك دوار وذهول يستيقظ منه جزعا مناديا ربه، مستغفرا عما سلف، مستعيذا بالآلهة، مستمدا عونهم. ثم يقوم إلى ظل نخلة كبيرة حيث يبقى فى شبه الذهول ساعة أو ساعتين.

وكانت عائشة نعم السلوان له فى منفاه. وإن الإنسان ليدرك عظيم تضحيتها لأبيها حين ترى إشراق جسمها الطفل الجميل بنور نظراتها المملؤة شبابا وعطفا، وحين ينم قميصها الأبيض الرقيق عن جسمها الخصب وقوامها الممشوق. ويزداد شعورا بعظيم التضحية إذا جلس اليها فسحره حديثها عن نفسه ولعب بفؤاده وعقله. وكم تركت وراءها من ذائب حسرة حلو يوم أعلنت عزمها على اتباع أبيها وهجر

المدن ومن فيها. بل لقد تبعها بعض عبادها حتى صدتهم عنها بأن صارحتهم أنها ذاهبة إلى غير عودة،، مما بعث إلى نفوسهم اليقين أنهم لن يصلوا إلى يدها. فلما نزلت الواحة ورتبت دارهم فيها اتخذت لباسا للواحة الناسكة أقمصتها البيضاء، فبدت فيها ملكا أرسلته السماء ليبعث الحياة الناضرة إلى جدب الصحراء.

أما «باترا» فكانت فتاة رومية الأصل نشأت فى بيت خالد وماتت أمها فى خدمته فدخل إلى قلبها من حب خالد ومن حب عائشة ما هون على نفسها الانقطاع عن الناس لهما. وكانت فى الحادية والعشرين من عمرها لدنة القد، بارزة النهد، عالية العنق، يونانية الأنف، تنم عيناها الزرقاوان عن رقة وحنان يسبيان. وكان يعينها ويساعد عائشة خادم قديم يبلغ الخمسين. ولقد تبعهم لأنه كان موقنا أن لن يجد أسيادا أقل منهم كلفة، كما أنه كان من العجز والكسل على أعظم جانب.

وهؤلاء هم سكان الواحة. ولقد كانوا يحسون فيها بمضاضة العزلة لولا تشبث خالد بالبقاء بها حتى يموت. ولو أنهم كانوا أكثر عددا لتوزع الهم عليهم فخف حمله. لكنهم خضعوا أخيرا للقضاء وخلقوا لأنفسهم عزاء من لا عزاء، وألهمهم حب الحياة جمال الصحراء، أما خالد فظل دائبا على التفكير يريد قبل الموت أن يطمئن إلى ما هو مصيب بعده.

ولم يكن يفاتح فى أمره هذا أحدا إلا ما كانت تتبينه عائشة خلال حدثة من شديد لهفه بالإيمان وشوقه إليه. إذ ذاك كانت تجاهد للتخفيف من لوعته ولتقوية ضعفه. لكن مركز الشك عسير يحفه أغلب الأمر الخوف والهلع. والفتاة لاتفهم هذا ولاتستطيع أن تخاف موتا تعجز صورته عن أن تتسرب إلى خيالها الشاب. وما دام خيال الموت بعيدا فالناس لا يرتاعون لما بعد الموت ولا ينصرفون لشىء انصرافهم لكسب الحاضر وما فيه. وربما أثارت خطوب الحوادث فى نفوسهم بعض الضعف أحيانا ثم سرعان ما ينسون ضعفهم وسرعان ما تزول آثاره.

وكان من أكبرَ همّ عائشة يومئذ أن تصل لمعرفة دخيلة قلب أبيها. وكم جاهدت تريد أن تقف على الكتب التى كانت تراه دائبا على قراءتها فيحول دون ذلك احتفاظه بها ووضعه اياها فى أحرز موضع. وكانت تظن أنها إن وقفت عليها عرفت مسرح أفكاره وأسباب ألمه فاستطاعت أن تخفف منها وأن تهون على نفسه أمرها.

وأخذها العجب أى سر تحوى هذه الكتب يستطيع أن يفعل هذا الفعل فى نفس العجوز الذى كان دائما صديق السرور نصير الفرح. أى سم انطبع على صحفها يطير إلى قلبه ويهزه هذا الهز الشنيع. لابد أن يكون فيها من دواعى القلق شىء جسيم يكدر صفو راحته إلى الحد الذى ترى!..

ودفعها عجبها للبحث عنها والحرص على معرفة ما فيها. فرأت أن تستعين فى ذلك بباترا التى كانت تلزم خالد أكثر أوقات يقظته وتجد من عطفه ما يسمح لها بالتدلل عليه وطلب كل ما تريد من غير أن تخشى رفضا. وعجيب أن هذا المعذب النفسى، التائه اللب، الباحث بكل قواه عما وراء الموت، بقى متعلقا بأشياء من اللهو الذى كان فيه من قبل، وبقى لذلك تعلوه القشعريرة حين تلامس يد باترا الناعمة يده الناشفة ويحتل وجهه الطرب حين يلمس على شعرها الذهبى الأملس. وكأنما كان فى الوقت ذاته عظيم الخوف من الموت وما بعده، دائم الحيرة فيما بعد الموت. فهو يريد أن يؤمن حتى يكسب ما بعد الحياة، ويريد أن لا يفوته شىء مما فى الحياة مخافة أن تكون الحياة آخر متاعه.

ولم تكن باترا تضن على العجوز بعطفها حين تراه فى حاجة إليه، كما كانت تزيد فى الدل والتمنع كلما رأت الشباب راجعه وملكه. وبين دل باترا وجمالها الفنان وتحت أثر حديث عائشة العذب الساحر من ناحية، وبين ما فى كتبه الداعية إلى الزهد المنادية بدناوة الدنيا وباطل زخرفها من الناحية الأخرى، كان الرجل فى أعظم الحيرة والوجل.

استعانت عائشة بباترا فأجابت هذه طلبتها وذهبت إلى خالد فألفته جالسا إلى ظل نخلة يحيط بها الرمل، قد أرسل إليه ريح المساء رطوبة تزيد لذة الجلوس فوقه، مقفلا كتابه محدقا بالفضاء الهائل أمامه، ويطبق جفونة أحيانا كأنما هو فى حلم بعيد عميق. فوقفت إلى جانبه من غير أن تبدى حركة تنبهه بها. وظلت محدقة به وظل محدقا بالفضاء زمنا، ثم حانت منه التفاته فرآها فطوقت ثغرة ابتسامة خفيفة وقال:

ـ هأنتذى من جديد يا باترا. هأنتذى يا ملكة الأرض. أين كنت كل هذا الزمن يا عزيزتى. لم تركتنى هكذا منفرد ا أتطلب ملكا فى الفضاء، فيخيل إلى أنه مملوء بالأرواح والشياطين؟ أنت وحدك الملك وأنت أله هذا المكان.

وفيما كان يتكلم جاهد حتى قام بأسرع ماتمكنه قواه الذاهبة ووقف يلمس بيده على شعرها المرسل يتلاعب به الهواء. أما هى فوقفت فى قميصها الأبيض لا تبدى حركة ولا تشير بطرف كأنها تمثال مصمت بعثت به السماء ليزين قطوب الواحة الحزينة. فلما رآها كذلك غيرمن حديثه وجعل يلاطفها ويسألها عما أصابها:

ـ مالك يا باترا؟ ماذا يحزنك؟.. لم لا تجيبين؟.. ما لك يا عزيزتى؟.. خبرينى.

لم تجب باترا ولم تتحرك ولم يبد عليها من التغير الا احمرار وجنتها ودمعتان جالتا بعينيها ورعشة سريعة نمت عن تأثرها لحال خالد. فلما أعيته الحيلة صاح:

ـ حدثينى والا فاهجرينى.

قال هذا وخرّ إلى الأرض صعقا كأنه بنيان تداعى فقطعت هى صمتها بالبكاء. ثم انهدت إلى الأرض ووضعت رأسها على ركبتها وجعلت تعول كأنها الطفل. فرجع هو يناجيها ويتودد إليها.. وبعد لأى أجابت:

ـ إنما أتيت اليك طمعا فى أن أنال منك الإذن بمغادرتك. لم يبق فى قوس صبرى منزع. ان ما أراك عليه من كثرة الفكر وسوء الحال يجعلنى أشعر فى أعماق

قلبى بألم لا أطيق احتماله. وإذ لم يكن فى عملى هذا ما يجب علىّ من الاعتراف بجميلك فقد أبديت لك عذرى عنه فسامحنى.

كاد الرجل يجن لما سمع. وفى مآقيه الفانية ترقرت دمعة انحدرت على خده ونم كل وجهه عن ألم عميق.

ـ وكذلك تهجريننى يا باترا بعد اذا ربيتك وأحببتك حب الأب لابنته؟.. ما أتعسنى! هل هذا أجرى عما سلف؟! كنت أمام عينى ملكة الوجود وملكة حياتى، وكنت أبدا أحبك وأعزك. أفيكون هذا جزائى منك؟. ان كنت قد صممت على الرحيل فأرجوك الانتظار يوما أو يومين على أقضى نحبى أسى وأرفع عنك وزر الكفر بالنعمة.

قالت الفتاة:

ـ ما انكارا لجميلك يا سيدى أريد أن أهجرك. لكن نفسى تتألم لأقل ما يصيبك. وقد رأيتك دائم الحزن، مكبا عليه، مسلما نفسك له، أضعاف ما أسملتها من قبل للمسرة. فكأنك تريد أن تجمع فى أقصر وقت أكبر حزن لتكون خالى الدين من هموم العالم وملذاته. وحزن كهذا لا طاقة لفتاة مثلى باحتمال مرآه.

قال خالد:

ـ وهل أتيت هذه الساعة لغير شيء إلا أن تخبرينى أنك مفارقتنا؟ أحسب أن ثمت سببا آخر.

ـ نعم. وذلك أنى أريد أن تكون سعيدا لأقيم معك سعيدة. وأى نفس لا تحب السعادة؟ وأحسب أن فى هذه الكتب التى عندك وتخفيها عنا سرا مكنونا هو السم الذى أندس إلى حياتك فأفسدها عليك وعلينا. لهذا أريد أن أصل اليها لأطلع سيدتى عائشة عليها.

ـ ما أبلغ خطأكم. هذه كتب لا تنفعكم ولا تضرنى. هى ككل الكتب نقرأ ما فيها قطعا للوقت واستعانة على الملال. ولو علمت أنكم تجدون فيها لذة لأعطيتكم اياها. لكنها تزيدكم ملالا وضجرا. وتجعلكم لحياتنا الحاضرة أشد بغضا.

هنا دخلت عائشة وقد سمعت طرف الحديث وعرفت أن باترا قد وصلت للب ما اتفقتا عليه، فرأت أن تشاركها وتتعاون واياها على انتزاع هذا السلاح الخطر من يد أبيها المسكين. وما كادت تدخل حتى ارتمت إلى أقدامه قائلة:

ـ رحمة بنا يا أبت وأسلمنا هذه الكتب! وما دمت تراها لا تفعنا ولا تضرك فذرنا نشترك معك فيها علنا نجد منها أيضا بعض العزاء عن الوقت وطوله. ورب فتاتين مثل باترا ومثلى تستطيعان بعد ذلك ايصال المسرة إلى نفسك. فاسمح ولك منا أجزل الشكر.

ـ إذا كنتما تلحان إلى هذا الحد فإنى مطلعكما عليها جميعا. غير أنى لا أرى ما دخل هذه الكتب فى سعادتى وفى شقائى. ستجدانها جميعا كتبا قديمة جادت بها خيالات المتكلمين وأبحاث المفكرين فى الحياة المستقبلة.

كان الوقت قد أمسى وهبطت كسف الليل تغطى الصحراء وتشتمل الواحة الصغيرة فى رداء الظلمة. ففضل خالد أن يقوموا إلى داخل الدار اتقاء طقس الليل وسوء أثره على صحته.

وساروا يتوسط العجوز الفتاتين وهما فى اللباس الابيض ملكان يسريان يحملان على أجنحة من الخيال والوهم هذ االخالد الفانى يريدان نقله من سعير الشك إلى جنة اليقين والشباب.. ووجد هو فى جوارهما ذكرا حلوا وسرى إليه من أجسامهما الشابة تيار أنساه شعوره البيضاء وتجاعيد جبينه، وأنساه الكتب والمتكلمين واللاهوت والناسوت.. وبعد لحظة صامته قضاها ذاهبا فى أحلامه قال فى بطء وسكون:

ـ ما أحلى هواء هذه الساعة. أنه ليبعث للنفس السرور ويشرح الصدر الحزين. انه شفاء لكل دواعي الشجن. اقتربي مني يا باترا وضعي يدك في يدي. وأنت كذلك ياعائشة. إدنيا مني وحدثاني، ابعثا بنغمات أصواتكما العذبة على أوتار هذا الهواء الرقيق ما يرسل إلى قلبي العجوز بعض ذكرى الشباب الذاهب. ألا تريان في هذا السكون الصامت المحيط بنا وفي هذه الرمال الفسيحة الممتدة حولنا، وفي عزلتنا الهادئة المنقطعة ما يؤسي قلبي الكليم أدماه الناس بلؤمهم ونفاقهم. ألا ما أحوجني للوحدة والسكون وللطمأنينة والراحة. تكلما يا فتاتيّ.

وساد بعد كلام خالد صمت ظل زمنا، ثم قالت عائشة:

ـ أتذكر يا أبت موت أمي. ما كان أرقها وأحناها.

ـ نعم عائشة أذكره.. ولعله بعض السبب في هجرتي المدن والناس. ألا إن نعمة النسيان لأعظم نعمة. لو بقي قلبي فيما كان فيه من همّ يوم فارقتني ومد لي مع ذلك في الحياة إلى اليوم لما رأيتما لعيني دمعة ترقأ، ولظل قلبي دائم الخفقان حتى يصيبه الوقوف الأخير. لكن سير الوقت يأسو الألم وتقادم العهد يبرد اللوعة. هما مرهم الجرح وطبه. هما دواء وشفاء يقذفان بنا إلى المستقبل ويحجبان عن عيوننا الماضي. وفي هذه اللحظة الذاهبة الباقية التي نسميها الحاضر يتركان لنا الذكرى عزاء وتعلة. نعم أذكر موتها يا عائشة. وموتها هو الذي أخرجني من نعمتي وسعادتي وجعلني أهيم بما بعد الموت. ولو أنها صبرت لنموت معا لبقيت فيما كنت فيه من قبل من سعادة وعماية.. ولكنها ماتت وتركتني فريسة للشك واليأس. وهأنذا اليوم أتقلب على أشواكهما وكلي الأمل في أن يأتيني اليقين. ولعلي أجد فيه ما يردها إلى بعد موتي لنستعيد من جديد ذاهب سعادتنا.

بلغوا الدار ودخل العجوز إلى مخدعه وجلس على سريره. وكأن هواء المساء وجهد الحديث قد أشعراه بالحاجة إلى الراحة والسكون، أو هي ذكرى زوجته في العالم

الآخر قد أشعرته الحاجة إلى الوحدة. فأهدى الفتاتين التحية وطلب إليهما أن يتركاه، ونادى ـ كعادته ـ بالخادم حمزة ليكون على مقربة منه الليل كله. فلما كان الصباح ذهب حمزة فأيقظ سيدته عائشة وقال لها:

ـ لقد قضى سيدى ليلة مملوءة بالأحلام. وكثيرا ما سمعته فى أحلامه يذكر اسم سيدتى المرحومة أمك. ولما تبدت نجمة الصبح من خلال النافذة انقطعت أحلامه وبقى ساعة مستغرقا فى نوم عميق. ثم هزت جسمه رعشة فتح معها عينيه ونادى باسمك. وبعد فترة كرر النداء. فرأيت أن أدعوك اليه.

قامت عائشة من مضجعها وبها أثر الكرى وليس عليها سوى قميص النوم فذهبت إلى غرفة أبيها فإذا به فى مرقده وعيناه مطبقتان. فلما كانت إلى جانبه أمسكت بيده ففتح عينيه وحدق بها ثم بالنافذة ثم قال:

ـ عمى صباحا يا عائشة.

ـ نعمت يا أبت وسعدت. كيف قضيت ليلتك؟

ـ قضيتها على ما أحب. قضيتها مع الخيالات الذاهبة وكأنها تنادينى إليها. وكم مرّ بى طيف أمك، وكلما أردت أن أمسك بها انفلتت من يدى ووقفت بعيدا ثم قالت: «تعال الينا فدارنا أحق من داركم» . ولكأننى أحس فى نفسى شوقا للحاق بها فى عالم لم يبق عندى بعد هذه الليلة خيال شك فى وجوده.. وأين باترا؟

ـ إنها لا تزال نائمة مهدودة بعد إذا أضناها بالأمس همك.

ـ ألا تفتحين هذه النافذة لعل نسيم الصباح يبعث لنا ما ينعش الروح ويجدد القوة الذاهبة.

ـ أخشى أن يكون النسيم باردا فلا يكون أثره عليك على ما تحب..

ـ ذرينى من أثره ومما أحب وما لا أحب. لى بقية ضئيلة فى هذه الحياة. أفلا أمتع نفسى منها ولو بنسيم الصباح. افتحى افتحى.

فتحت عائشة النافذة ووقفت لحظة تحدق فى الخارج بالنخيل وبالعشب وبرمال الصحراء بعدهما. وتموج النسيم هادئا يدخل الغرفة وينعش جسمها ويبعث إلى وجناتها وردها. وأرسل قرص الشمس وهو لا يزال عند الأفق أشعته على قميصها ألصقة النسيم بها فأظهر خطوط جسمها. وأنعش النور والنسيم خالدا فجلس وحدق بابنته معجبا بتمثال الشباب أمامه. ولفظ اسمها بصوت خافت فتلفتت متمهلة ونظرت إليه بعيونها الواسعة الدعجاء. فلما ملأ العجوز منها عينه التى لا تشبع من النظر لكل جميل قال:

ـ ألا لا حياة بعد ذهاب الشباب.

ـ وكيف تجد النسيم يا والدى؟

لم يجب العجوز، فذهبت ابنته إليه وجلست إلى جانبه وجعلت تحاذبه الحديث. وفيما هما كذلك دخلت باترا وعليها قميص لونه لون السماء وعيونها الزرقاء الطفلة وثغرها الباسم عن لؤلؤ أسنانها وخدودها المتوردة وجبينها الوضاح وكل وجودها ينادى: لنرقص جذلا بمطلع النهار والنور.

وجلس الشيخ والفتاتان زمنا كان فيه مطمئن النفس هادئا. لكنه كان مع ذلك مثقل الرأس لا يبرح النوم يساوره كأنما قضى ليلة فى نصب ولغوب. فلما رأت عائشة ذلك منه استأذنته وانسحبت وتبعتها باترا وعاد خالد إلى مضجعة وما لبث أن أطبق الكرى أجفانه من جديد.

وذهبت الفتاتان إلى بعض أزهار غرسها حمزة فجمعتا منها باقة نسقتاها. فلما انقضى ضحى النهار رجعتا إلى الدار جذلتين ثم دلفتا إلى مخدع الشيخ فإذا هو قد

استوى على سريره واتخذ من وسادته متكأ وتلقاهما بابتسامة مطمئنة. فلما قدمتا له باقة الزهر قال:

ـ أعجز عن شكر كما على ما صنعتما. لقد أبدعتما طبا لشيخ أجهده الزمان. والآن أبسم معكما ومع هذا النرجس الضاحك والورد البهيج. ألا ما أحلى الزهر يبعث النسيم شذاه فيعطر ما حوله من الأرجاء. وإن طيب الزهر ليضاعف فى النفس الحياة ويهز بالسرور القلب والفؤاد.

قالت عائشة:

ـ لعل ما نلته من سنة قد عوض عليك أرق ليلك يا أبى.

قال خالد: ما أرقت يا ابنتى طول ليلى. وهل يأرق من يصحبه أحبة أهل شبابه. على أنى كنت بهذه السنة أسعد حظا. والآن فاليك مفتاح صندوق الكتب. اصنعى بها ماشئت. لم يبق لى بها من حاجة. مثل الذين يبتغون الايمان طى الكتب كالذين يبتغون السعادة عند الناس. ايماننا كسعادتنا فى أنفسنا. هما فى هذا الماضى الذى يزعمون أنه لن يعود وهو عائد لامحالة. ان الذين يموتون قبلنا ينتظروننا. ولقد جلست طوال هذه السنة إلى أمك والى أم باترا. ما أحلاهما فى ثياب الآخرة. خلع عليهما شباب ذلك العالم المنير جمالا ليس يعدله جمال. وهل فى الآخرة غير الشباب وجماله؟ وهل يفنى الشباب على هذه الأرض الا ليتجدد هناك. هذا ما رأيته معهما رأى العين. فأما هذه الكتب ومافيها فأوهام من لايعرف من الحقيقة شيئا.

قال العجوز هذا القول ثم أضاء وجهه نور لألاء بهر الفتاتين. ذلك هو الايمان الذى دخل إلى قلبه. ومن يومئذ برىء من الاضطراب ومن نوباته، وانتشر فى أرجاء نفسه سرور راض مطمئن، وظل ينتظر اليوم الذى يعود فيه إلى شباب الآخرة بعد أن ودع شباب الدنيا موقنا أن قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر.

وعكف على العبادة وتوجه بكل قلبه لله ذى الجلال. وفيما هو يوما فى صلاته دخلت عليه عائشة فألفته خاشعا تجود عيناه بالدمع. فلما سلم واستغفر التفت اليها فرآها دهشة فقال :

– لا عليك يا ابنتى. انها دموع التوبة والمغفرة. وهى أشهى لذائذ الحياة. هى طهر الضمير ولين النفس القاسية. وهى ترياق آثامنا جميعا. معها تسيل الذنوب التى كانت عالقة بنا تؤلمنا وتعذبنا، وتنجاب الظلمات التى كانت تغشى على بصائرنا فتحجب عنا نور الله وحياته، فافرحى يا فتاة لهذه الدموع ولا تحزنى.

وسكت الرجل هنيهة وهو فى مجلسه على مصلاًه. ثم أشرق جبينه واستنار ماحوله ورأت عائشة كأن ملائكة الرحمة ترفرف عليه بأجنحة من ضياء. ولم تك الا

لحظة حتى مال إلى جنبه الأيمن. فأسرعت ابنته إليه وأعانته حتى استوى على ظهره. وبصرت به فاذا هو قد رفع سبابته اليمنى وهمست شفاهه بكلمة التوحيد وأغمض عينيه.

* * *

وبكت عائشة وباترا ثم أعانهم حمزة على غسله وتكفينه ودفنه. وهو لا يزال إلى اليوم في واحته يزوره الصالحون. فأما الفتاتان فعادتا بعد ذلك إلى القاهرة وإلى الاسكندرية تضحكان وتطربان واذا جن الليل تهيمان. وطلقتا الكتب على أمل أن تلهما الايمان ساعة الموت فيضيء النور وجههما وتموتان قديستين.

انتقام من الجمود

انعقدت المحكمة لجلسة الجنايات ونظرت فى عدة قضايا صغيرة حكمت فى بعضها وأجلت البعض الآخر لاستيفاء التحقيق. ثم جاء دور آخر قضية فى الجلسة.

ظهرت اذ ذاك فى صندوق المتهمين فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تظهر من فوق برقعها عيون نجل قد قوست فوقها حواجب بديعة، وتجتلى العين من خلال هذا الحجاب الشفاف أنفا حادا وشفاها رقاقا. وانسدلت من رأسها على ذراعيها حبرتها اللامعة – جاءت بخطوات ثابتة فدخلت وراء الحديد وجلست فحولت نظرها إلى جهة غرفة المداولة حتى تتقى بذلك أنظار الناس التى اتجهت إليها.

سألها القاضى عن اسمها وسنها وعما لو كانت ارتكبت الجريمة المنسوبة إليها من قتل عبدالعزيز حسنين. فأجابت عن ذلك ايجابا. وحينئذ أخذت النيابة تسرد الوقائع والأقوال. واستنادا إلى ذلك وإلى اعتراف المتهمة طلبت من المحكمة أن تطبق على الست عائشة أحمد مادة القتل مع سبق الاصرار.

قام المدافع عن عائشة بعد ذلك فجعل يشرح موقفها والظروف التى أحاطت بها وطلب من المحكمة أن تبرئ موكلته وأن تراعى كل هذه الظروف المخففة وأضاف «والرحمة فوق العدل».

فى كل هاته الأثناء كانت الفتاة وراء الحديد ثابتة النظرات لايظهر عليها جزع ولا تهزها الأقوال ولا يأخذها التأثر. ومن حين إلى حين كان يبين عليها أنها غائبة عن كل ما يدور فى الجلسة فتحدق بالسقف وتستسلم لشىء يهجس فى نفسها.. وأخيرا سألها القاضى السؤال الذى يلقيه على كل متهم ليستكمل رسميات الدعوى: إن كان عندها أقوال تدافع بها عن نفسها.

وقفت عائشة فألقت فوق أكتافها حبرتها وحسرت عن وجهها برقعها وقالت :

– اننى ياسيدى القاضى أريد أن أدافع عن نفسى لاحبا فى الحياة والبقاء، فاننى ارتكبت جريمتى التى اعترفت وأعترف بها لأجعلها مقدمة لموتى أنا الأخرى بعد اذ سئمت العيش واستولى على التقزز من الناس.

... من سنة مضت عرفت عبدالعزيز حسنين لأننا كنا نسكن فى بيت واحد وكان يصادفنى كثيرا خارجة من البيت أو داخلة إليه فيفسح لى الطريق ويبسم لى أحيانا. وبعد أن تعود كل واحد منا رؤية صاحبه كنت أرد له التحيات التى يقدمها لى. ثم جعلنا اذا سرنا فى طريق نسير جنبا لجنب ونتحادث كما يتحادث صديقان حقيقة، فاذا ما افترقنا تهادينا التحية وذهب كل منا إلى حيث يريد.

أعجبتنى منه يومئذ صراحته فى القول مع شديد أدبه واحترامه لمخاطبه. وأدخل إلى نفسى الثقة به أنه كان يصرح لى أحيانا بما يحصل له وما يدور فى نفسه. وصرت أنا الأخرى أسر إليه ما لا أطلع عليه أهلى الأقربين.

اتفق مرة أن سافر أبواى إلى الريف وخرج اخوتى فى صبيحة الجمعة على أن لايعودوا الا فى المساء وبقى البيت لا يؤنسنى فيه الا الخادمة المشتغلة بتدبير أمرنا. فقلت أخرج أنا الأخرى لعلى أجد فى الشوارع وفى زجاج الدكاكين ما أصرف فيه قسما من وقتى. ونزلت فاذا عبدالعزيز عند الباب واقفا وعليه أثر الحيرة. فلما تهادينا تحيات الصباح وسألته عن أمره أخبرنى أنه يريد أن يخرج ولكن لايعرف إلى أين.

وماكاد يعلم أني في الموقف عينه حتى سألني اذا كنت لا أجد غضاضة في أن يصحبني إلى حديقة الجزيرة.

كنا اذ ذاك في أوائل الربيع والأشجار يملأ عطر أزهارها كل الأماكن الخلوية. فأجبته إلى ماطلب ونفسي ملأى بالسرور. كما أن حلاوة حديثه وجمال نفسه جعلاني أصحبه وكلي ابتهاج وبشر.

دخلنا الحديقة وجعلنا نطوف في طرقاتها. وباحساس لم أفهمه وأحسبه هو الآخر لم يفهمه جعلنا نقصد الأطراف الخالية من جوانبها حتى وصلنا في ركن بعيد إلى شجرة كبيرة امتد ظلها على الحشيش تحتها. ومن خلال سور الحديقة جعلنا نرقب العربات القليلة التي تمر في الشارع ونحد بصرنا أحيانا فيقع على زجاج النوافذ القائمة على الضفة المقابلة من النهر وقد ألهبه شعاع الشمس نورا.

وندير رأسنا فتتقابل نظراتنا فأحس كأن في عينيه معنى لم أكن أعرفه من قبل أو كأنهما تكنّان سحرا نفذ به إلى قلبي – وكأنه أحس هو الأخر بمثل ما أحسست فلم نتبادل كلمة بل قمنا ساعة رأينا الشمس تنحدر وراء الأشجار فرجعنا إلى دارنا وافترقنا عند بابها اذ ذهب هو لبعض أمره.

من ذلك اليوم تغيرت معرفتنا الأولى، ومن ذلك اليوم جاهدت أن لا أراه وجعل هو الآخر يتجنب ما استطاع مقابلتي.

مر بعد ذلك زمن ولم نتقابل فيه الامرة واحدة على السلم ولم نتبادل تحية ولا كلمة.

ثم رأيت أمي تحوم في كلامها معي حول موضوع زواجي بشخص لا أرى ضرورة لتسميته الآن، وكل ما أقوله عنه اني لم أعرفه ولم أره من قبل ولكن تبين لي من الحاح أمي أن لأبي مصلحة في هذا الزواج. فعملت جهدي حتى تعرفت بعض

أمره فاذا هو شخص أرى عارا أن ينتسب أبنائي له. وصرت كلما ألحت أمي ازددت منه اشمئزازا. فلما رأيت أن قد كاد يقرر أبي أمر زواجي به نهائيا بلغ بي اليأس أقصى حدوده.

حينذاك أخذت بنفسي رغبة شديدة متحكمة أن أرى عبدالعزيز بعد ثلاثة أشهر من زمن التهاجر بين شخصينا وان لم يغب عن بالي يوما ذكره.

كنت أعلم أنه ساعة الظهر يتناول طعام الغداء في الدار وحده. فصممت على أن أنزل إليه في تلك الساعة أندب له حظي عَلِّي أجد في كلمة منه عزاء. وزادني تمسكا بعزمي اني ساعة خرجت من باب مسكننا رأيت خادمه نازلا ليشتري لاشك بعض الشيء مما يخص البيت. لكنني شعرت بقشعريرة لبستني ساعة وقفت على بابهم ولم أستطع حراكا. فلما عاودني سكوني ترددت في أن أدخل أو أرجع أدراجي. ففيما أنا في ترددي انفتح الباب وظهر أمامي عبدالعزيز.

عرتني رعشة من جديد وتولاني خجل شديد. لكني لم أستطع أن أمنع نفسي عن أن ألقي بكلي بين يديه باكية منتحبة.

فأقفل الباب وأخذني إلى غرفته وأجلسني إلى جانبه وجعل يلاطفني حتى هدأ روعي فرفعت رأسي أنظر إليه فاذا عيناه هو الآخر مغرورقتان بالدموع وأردت أن أقوم فاذا هو ممسك بيدي مسكة لا أنسى أثرها ساعة أحسست بها حتى أموت.

قصصت عليه قصتي فجعل يهدىء من نفسي ويقول لي أن ذلك الشخص الذي يريده أبواي متى تزوج صار شخصا عاقلا. لكني لم أقتنع ورأيت من عينيه أنه يقول غير ما في قلبه.

تعددت مقابلاتنا بعد ذلك وكل مرة أبث له ويبث لي من كامن مافي نفسينا حتى جاءت الساعة التي صار زواجي فيها بهذا الشخص أمرا محتوما. هنالك

انهدمت صروح نفسي ورحت لعبد العزيز أكرر له الشكوى وأبكي بكاء الطفل فضمني إلى صدره وقال :

– هل تقبلين يا عائشة أن تكوني زوجا لي؟

وما كاد ينطق بكلمته حتى تركت نفسي بين يديه ولا أدرى بأى لسان أشكره. وتركت له من تلك الساعة تصريف عناني.

وكنت أعتقد أن الزواج الرسمي بالمأذون والشهود كل قيمته أنه يذيع أمر الصلة بين شخصين صلة صمما علي اذاعتها فيما بعد. لذلك عددت نفسي من تلك الساعة زوجا لعبد العزيز وأضفت إلى حبي الأول حبا جديدا وأسلمته حياتي وحريتي وشرفي كما اعتقدت انى أخذت منه مقدار ما أعطيته من نفسي. وجاهدت بعد ذلك حتى أنزلت أبواى عن رأيهما وطلبت إليه أن نعلن صلتنا للناس فنقيم عقد الزواج.

سافر فأخبر أبويه بما يريد. وأراد أن يقنعهما فوقفا فى وجهه وأبيا عليه غرضه. فلما رجع إليّ وبلغنى ذلك قلت له اننى ياعبدالعزيز راضية أن أكون معك فى أى عيش ترضاه. أنا زوجك وأنت زوجى فاذا لم يقبل أبواك ذلك فإما أن نعلنه بالرغم من كل شيء أو نبقيه حتى يرضيا. ثم تركته بعد ذلك يفكر فى أمره.

لكن ماهدده به أبواه من اجتنابه والانفصال عنه أخافه وراعه ورأيته ابتدأ يتردد فى أن نتم هذا العقد. وكلما تعاقبت الأيام ظهر عليه أثر التصميم على ذلك وان بان لى من نحوله وتعبه أنه يجاهد نفسه. وفى اليوم الذى تيقنت فيه انى حامل جاءتنى منه ورقة يخبرنى فيها أنه مع شديد الأسف مضطر لقطع كل علائقه معي.

هنا ضاع رشدى وفقدت صوابى. تلفّت حولى فاذا الجمعية بقوانينها تركتنى أنوء تحت أحمال العار والألم فى حين يتمتع شريكى بحريته وشرفه. وهذا الموجود الحى الذى أحمله فى أحشائى سيخرج يوما على الأرض فلا يعرف الناس له أبا وحيث سرت يرمقنى أمثاله بعين الاحتقار والامتهان.

لم اجرم فى كل ماعملت ولم آت ذنبا. ومع براءتى سبب لى عبدالعزيز كل هذه المصائب.

حينذاك انقلب كل حب فى نفسى له بغضا وصممت على الانتقام بعزيمة صممت بها من قبل على أن أعيش معه. وبعد هذا التصميم بأسبوع قتلته. وانما انتقمت فى شخصه من جمود الآباء.

ها ماعندى قلته وخففت بذلك عن نفسى أثقالا أحملها. وفى يديكم ياسيدى القاضى حياتى فاحكموا فيها..

ثم خلت المحكمة للمداولة وأجلت النطق بالحكم أسبوعا.

تذكارات الطفولة

١

فى الكتاب

ما أنس لا أنس يوم العلقة المليحة. أذكرها اليوم وقد مضت عليها سنون فتعرونى هزة الخوف. كنا اذ ذاك يوم السوق وكان من عادتى أن أحضر لسيدنا نصف بريزة من أبى كل سوق. فلما أصبحنا ذلك اليوم وأردت مقابلة والدى علمت أنه نائم. فألححت وبكيت وصحت وصرخت حتى استيقظ من شدة ما أحدثت من الجلبة. فخرج يسأل عن الأمر فلما علمه غضب منى وأمسك بأذنى وضربنى كفا وطردنى ولم يعطنى حتى ولا قرش السوق. فذهبت إلى الكتاب بعد اذ كفكفت أمى دمعى وأعطتنى قطعة من السكر لتسكتنى. ولما وصلت نظر سيدنا إلى نظرة الأمل. ولكنما خيب كل ظنونه أنى لم أضع يدى فى جيبى. فتعلل وسأل عن سبب تأخرى. ولما أخبرته استشاط غضبا لأنه كان ناويا كما علمت فيما بعد أن يشترى بردعة لحمارته

من السوق. وأنذرنى ان لم أحفظ لوحى قبل الافطار أورانى شغلى. وفعلا لم أحفظ لضيق الوقت. فنادى بعلج من أولاد المكتب فدنا إلى وقرص بيديه رجلى فوق كتفه وإمسك سيدنا بعصا من جريد وقام على أطراف أظافره ونزل ضربا.

– آه!... أنا فى عرضك ياسيدنا. أنا فى طولك ياسيدنا. وحياة أبوك ياسيدنا... لكن ذلك كله لاينفع. لقد أضعت عليه أمله ولم يعد قادرا على أن يشترى البردعة. وهذا العلج العنيف ممسك بكل قوته. والأولاد من حولى كلهم ينظرون إلى ولا تدمع لهم عين رحمة بى. ورأسى مطروح على الأرض أقلبه من شدة الألم فينال التراب وجهى. وبقيت كذلك حتى مر رجل بالباب فدخل وشفع فّى وقبل سيدنا الشفاعة عن ذنبى.

ذهبت إلى الدار باكيا وسألنى أبى عن سبب بكاى فأخبرته. فلما رجعنا بعد الافطار رأيت عيون سيدنا لا تزال حمراء من الغيظ ورأيت الأولاد ينظرون إلى باسمين ابتسامة الشماتة. ما أقسى قلب الانسان وما أشده سوادا. وجارى العزيز الذى يخرج معى كل يوم لصيد السمك يقول لى: «أكلت المليحة ياعم. علشان ماتبقاش تخطف الزق». سبب جديد جعلنى أستحق فى نظره هذا العقاب. ولابد أن يكون هناك سبب مثله عند كل واحد من الآخرين.

ومضى زمن ونحن جلوس (نحفظ) الماضى. ثم اذا أبى جاء وعليه مظهر الغضب فخفت أن يكون ذلك لعقاب سيحل بى. لكنه ما كاد يقف حتى قال لسيدنا كلمات جعلته يرتجف. وزاد أبى فى القول. فلما رأيت ذلك علمت أنه قد حل بى هوان كبير وعزت على نفسى فبكيت. ثم اذا جارى بكى.

وخرج أبى فسمعت هزة فى المكتب معناها انتصار الجماعة على الفرد. ونظر الكل إلى الفقيه نظرة حقد وكراهية وكأنما تذكر كل منهم يوما كان له مثل يومى أو أشد. وأصبحت أنا وقد اعتقدوا انتصارى موضع الاحترام منهم جميعا.

ولما خرجنا ساعة الظهر للغذاء التفوا حولى وجعلوا يظهرون من عطفهم على وحنقهم على سيدنا ما أنسانى لؤمهم ونظراتهم المملوءة ازدراء وتحقيرا.

هذه روح الجماعات. يعبدون من غلب مادام فوزه باقيا. فاذا ساء طالعه وفاز عليه غيره التفوا حول الفائز الجديد وقدسوه. وهكذا يبقون مادام فائزا.

ورجعنا اليوم التالى ورجع سيدنا. وكان معى رغيفان مخبوزان لاتزال رائحتهما من أزكى ماينعش الأنف. فنادانى اليه وعاتبنى بلطف، وبلطف تناول منى رغيفا. ولما تركته التف حولى الأولاد يملقوننى، وتلهى عنهم الفقيه بتناول الرغيف. ومضى الوقت ولم أحفظ لوحى فجعل هو يقرؤه أمامى على سبيل تذكيرى، وأخيرا قرر انى حافظ كأحسن مايريد. وقمت منتصرا.

وأنسانى لطفه اليوم ماكان منه بالامس وتوسلت لأبى يوم السوق الذى جاء بعد ذلك فدفع لى نصف البريزة دفعتها لسيدنا.

تذكارات الطفولة

٢

زيارة المفتش

كنت أيامها تلميذا فى السنة الأولى الابتدائية فى مدرسة... وكان... مفتشا فى نظارة المعارف. وكان درجى موضوعا على مقربة من الحائط. وفى الحائط منور مرتفع يطل على حارة وراء المدرسة. وكنا فى الحصة الأخيرة وعندنا الشيخ... معلم القرآن.

البعيد عن العين بعيد عن الخاطر. لهذا كثيرا مانفعنى بعد درجى عن كرسى المعلم لأنه أبعدنى بذلك بعض الشىء عن عصاه، وخصوصا عن عصا الشيخ... معلم القرآن والخط والمطالعة. فكم كان يدور على الذين عنده وكم كانت تنال رقابهم وأيديهم عصاه الرفيعة الشنيعة. بل كم نالتنى أنا أيضا وكم استثارت منى أنات وآهات صامتة يكظمها فى صدرى الخوف من المزيد.

كنا فى الحصة الأخيرة وعندنا الشيخ معلم القرآن. وبينما نحن نعد اللحظات الباقية على فكاكنا من أسر الدرس والمدرسة اذا المفتش دخل يتبعه الناظر وهو يسير وراءه مطأطىء الرأس، فقمنا جميعا ورفعنا أيدينا إلى جباهنا علامة الاحترام والخضوع، وبقينا كذلك وقد ثبتت عيوننا إلى جهة الخواجه المفتش والى جهة الناظر.

ولما رأينا ماهو عليه من سوء الحال اضطربت مفاصلنا وارتعشت أرجلنا وارتعدت فرائصنا. ونظرت إلى المعلم فاذا لونه قد غاض ودمه قد هرب ولايكاد يمسك نفسه واقفا الا رغما. وأجال المفتش فى الغرفة نظرات مملوءة سطوة وشدة. ثم أمرنا بالجلوس فقعدنا وصففنا أيدينا على صدورنا، ولما كانت يداى ملونتين بالحبر جاهدت لأسترهما حتى لايبين شىء منهما.

وبعد برهة سار المفتش بخطى واسعة حتى وصل إلى درجى ثم صعد فوقه ووضع يده على أرضية المنور واستردها فاذا عليها تراب. هناك وضع أصابعه الملوثة على مقربة من عين الناظر ورمقه بشىء من الاستهانة والاحتقار. وتأهب للخروج فقمنا من جديد وأخذنا التعظيم اللازم. وتبعه الناظر مطأطئا رأسه صغيرا. ورجع الفراش مبشرا المعلم بأن المفتش خرج مباشرة وركب فى العربة التى جاءت به وسار. فجاء الشيخ عندى وتخيل المفتش الواقف وما جاء به من التراب وخيل له انى أنا المسئول عن ذلك فابتدأ يشتمنى. وأخيرا طلب إلى أن أريه يدى. فلما راهما ملوثتين هرول إلى درجه واستخرج منه العصا التى كان خبأها حال وجود المفتش ونزل علّى بها ضربا ينال أكتافى وظهرى ورأسى من غير حساب. فلما بلغ بى الألم أشده صحت باكيا منتحبا. وصادف ذلك مرورالناظر فدخل على الصياح وأخذته الشفقة حين رآنى والتلاميذ من حولى فى هرج خفى يتغامزون.

ولما وقف الشيخ حين دخول الناظر حّركه الضرب، ووقف التلاميذ احتراما ورفعوا أيديهم إلى جباههم، رفعت أنا الآخر يدى إلى جبينى وأديت كل الرسوم اللازمة

بالرغم من دموعى. فجاء إلى الناظر وبحركة لطيفة أخرجنى من أمام درجى وملس على أكتافى وكفكف عبرتى وطلب إلى أن أكف عن البكاء. ولا أنسى نظرات اللوم والتأنيب التى توجه بها إلى الشيخ. وكأنه أحس معى بمرارة الاهانة على النفس سواء كان صاحبها طفلا أو رجلا فعز عليه أن أهان.

وسارت الأيام بعد ذلك والمفتشون يتعاقب مجيئهم للمدرسة ولكن لايعبأون بالصعود فوق درجى. لهذا لم يبق من سبب جدى يحمل الشيخ معلم القرآن على ضربى. وكأنه حين نظر إليه الناظر معنفا شعر بفظاعة جرمه الأول وربما أراد أن يكفر عنه بالخروج على طبيعته الفظة ومعاملة الأولاد باللطف والحسنى.

فى هذه السنة حيث كثرت زيارات المفتشين أذكر أن النتيجة العامة للمدرسة كانت أقل جمالا منها فى السنين التى قبلها واتخذت النظارة هذا سببا لنقل الناظر إلى وظيفة مدرس بمدرسة أخرى مدعية عليه الاهمال، وان كان هو بعينه الذى شكرته قبل ذلك مرات على حسن النتيجة.

ساعة وحدة

مع جثة محبوب ذاهب

توفيت حسناء فى الثامنة عشرة تحت يد الطبيب حينما كان يقاسى معها آلام استخراج الجنين من الرحم. توفيت ولم يعرف المرض اليها سبيلا الا سويعات من زمان. وقد كانت غريبة عن الديار ليس معها فى منزلها الا أمها وخادم صغيرة فى السن وزوج نصف. وتوفيت مقتبل الليل فلم يعرف أحد من أهل المنازل المجاورة شيئا من أمرها ساعة الوفاة. وكل ما استطاعه الزوج أن يجيء بقارئة تقرأ القرأن لتشيع بآيه الطاهرة تلك الروح الشابة فى هجرتها إلى السماء.

وقد لزمتها أمها من شهرين تنتظر معها أن يحبوها القدر حفيدا أو حفيدة تمد من أملها فى الحياة وتحقق لها ماتطمع فيه من خلود. وهى كل تلك المدة تعد الأيام والساعات التى تقرب منها هذا الأمل وترتب فى خيالها القبلات التى تلقى بها المولود المحبوب ساعة تنسمه طيب الحياة. وما كانت تحسب الزمان من الغدر والقدر من القسوة ليقضيا على كل أطماعها ويخيبا كل أملها ثم ليقتطفا من بين أحضانها زهرتها اليانعة وملاك حياتها : ابنتها المحبوبة.

ولكنهما كانا أقسى مما تظن. فقد بقيت حسناء ممتعة بكل صحتها إلى يوم حسبت أمها أن أملها قد تحقق. وفي ذلك اليوم فقط - في تلك الساعة الرهيبة الرغيبة - انتفض الزمن في وجهها كاشرا عن نابه، فتلوت فتاتها أمامها ترسل صيحات الرعب والألم. وبادر الطبيب الفتاة فطمأنها فسكتت واستسلمت له ووقفت أمها إلى جانبه تنظر إلى فتاتها والى الحفيد المرغوب نظرات خوف ورجاء وتشجع بألفاظ مضطربة تلك الزهرة المشرفة على الذبول. لكن هذا الاحساس الانسانى بما سيكون جعل الابنة كلما أرادت أمها تركها لمساعدة الطبيب تمسك بها منادية نداء الطفل المروع: لا تتركينى يا أماه!

ونزل الطبيب كاسف الظن يتعثر فى أذياله تاركا الفتاة ووليدها وقد كان يود لهما الحياة فأبى القدر الا ايرادهما موارد الحتف. وأسلمت الفتاة الروح قبل أن تدب روح الحياة فى جسم الوليد. هنالك شقت الأم جيبها وصاحت : وابنتاه!! ثم خرت إلى الأرض منهدة وقد جمدت الدمعة فى عينها. وجاءت قارئة القرآن وبقيت مع الأم ترتل لها آى الذكر ساعة وتجاهد لعزائها ساعة أخرى. فلما أذن نذير الصباح نزلت القارئة وتركت الأم وحيدة مع جثة ابنتها الهامدة.

فى سكون الليل. فى ذلك الصمت المطلق المهوب، وفى هذه الوحدة المخوفة المرعبة، بقيت الأم وحيدة فى غرفة الموت وأمامها جثة ابنتها هامدة باردة وقد ملك عليها اليأس السبيل. وكلما أخرجها الحزن عن طوقها نادت: يا حسناء، وكررت النداء. فيموت صوتها مختنقا فى هواء الغرفة المملوء بآى الموت وأعلامه. ثم اذا خانها الصوت رفعت الغطاء عن وجه ابنتها وانحنت فوقه تملأ جوانبه قبلا. ويغلبها الهم بعد ذلك فتخر إلى جانب الجثة وتضمها إليها كأنما تريد أن ترسل فيها من حياتها مايعيدها إلى الحياة.

أذن مؤذن الفجر مناديا : الله أكبر. ولطالما حنّت الأم المفجوعة إلى سماع هذا النداء يحيى من قلبها المملوء بالايمان والتقوى ماينطق لسانها. الله أعظم. الله أعظم.

لكنها فى هذه المرة وجمت لسماعه واعتراها أمام صيحات المؤذن ذهول ورعشة... الله أكبر... هو هذا الاله الكبير العظيم الذى اختطف ابنتى فى أول شبابها وريعان قوتها وما جنت ذنبا ولا أتت اثما.. الله أكبر... أكذلك ينقل بنو آدم من الحياة الى الموت غدرا وغيلة!. أكذلك تختطف البنت من حضن أمها فى ساعة كانت تود البنت أن تكون أما هى الآخرى! أين أنت ياعدالة السماء؟ أين أنت ياعدالة الرحمن؟ أين أنت ياحسناء؟ أين أنت يا ابنتى ياحبيبتى؟! ماقيمة الحياة والموت متربص يخطف الناس خطفا.

وفى كل هذه الساعات المؤلمة المفجعة لم تنزل من عيون الأم دمعة تهدىء بعض الشئ من حزنها ولوعتها. وكلما خرج بها الحزن عن طوقها أمسكت بيدها يد المائتة وانحنت فقبلت جبينها وصدغها وثغرها.

وأخيرا، بعد زمن طويل، سويعة مستبشر ودهر محزون، بهت زجاج النافذة وابتدأت أشعة النهار تنسل إلى الغرفة الصامتة فخفت نور المصباح وانتشرت فى جو المكان خيوط الضوء، خيوط اليأس والأمل. وتبينت السماء. فلما وقع عليها نظر الام ردته إلى ابنتها ثم ردته إلى السماء وهمست: ما أقسى الموت! ان هذا حرام ثم ارتمت إلى الأرض مهدودة وأسبلت عينها تود لو تختلط روحها بروح ابنتها الذاهبة.

لكنها مالبثت أن حدقت بنظرها من جديد إلى الوجه الشاحب أذبله الموت وقد كان من ساعات يتلألا بنور الحياة. حدقت به حتى لاتترك لحظة من اللحظات الباقية على الفراق الأخير من غير أن تكون مع ابنتها ولإبنتها. حدقت بعيون ثابتة جامدة كأنما امتلأت موتا هى الأخرى. وفى كل هذه الساعات الطويلة لم تنزل من عينها دمعة واحدة.

وأخيرا فتح الباب ودخلت احدى قريباتها صارخة نادبة، ثم لم تكن الا لحظة حتى امتلأ المكان وحتى فرجّت الدموع شيئا من كربة الأم المصابة.

وإلى اليوم لاتزال الأم المملوءة القلب بالايمان والتقوى جامدة العين ذابلة اللب مشردة الخاطر تشتملها سحابة من حزن أليم لاتسعده دمعة ولا ينجع فيها عزاء، وكلما أراد أهلها وأصحابها أن يجيئوا لها بمن يرد دينها الذى خرجت منه حين شقت جيبها تتداولها التقوى والذكرى فتنهزم الأولى أمام الأخرى وترفض الحزينة مايريدون.

هل لمثل هذه الأم فى الحياة عزاء؟!...

حديث شباب

كانت الساعة العاشرة صباحا حين فتحت عائشة عينيها بعد نومها الطويل. فرفعت جفنها بالقدر الذى يسمح لها أن ترى النور من خلال ستار النافذة. ثم أمالت رأسها وفتحت ذراعيها متمطية متثائبة حين تميزت خيطا من شعاع الشمس ينعكس فى المرآة وعلى سريرها. وقامت بعد ذلك متكئة على المخدة تنظر بعيون وسنى لكل ما أمامها. وظلت كذلك حتى نبهتها الخادمة بدخولها. فلما علمت أن ستها قد استيقظت بادرت فناولتها رسالة وقالت :

— سيدى أعطانى الجواب ده علشان ستى.

فأخذته عائشة بيد فاترة وأمرتها أن تفتح أبعد ستار عنها. ثم فضت الرسالة فاذا هى ممضاة من صديقتها نفيسة واذا فيها :

عزيزتى عائشة

من يوم سافرت من مصر ودخلت البيت هنا لم أخرج الا مرة واحدة رغما عما كنت أؤمل من أن أجد حرية أوسع تسمح لى أن أمرح فى الهواء والفضاء. ولهذا قد بدأت أمل الريف وسكنى الريف مع ما أجد من وداعة الناس الذين أعيش بينهم

والفلاحات اللاتى يترددن علّى من وقت لآخر. فكل ما رضى به عمى أن أصحبه مرة إلى جرن قريب منا وأن نبقى فيه معا حتى منتصف الليل. وهى هاته المرة التى تجعلنى أتردد فى التصميم على الرجوع لمصر ثانيا أو أن أبقى هنا أسبوعا آخر علّ المصادفة تحقق أملى وأخرج مرة أخرى ولو إلى هذا الجرن القريب.

ولقد كانت أكبر آمالى فى هذه المرة الأولى التى خرجت فيها أن أجدك إلى جانبى لنتمتع معا بما كنت أشاهد. وأما الذى أود أن يكون معى فى المرة الثانية فهو شخص لا أعرفه ولكنى أتمثله أمامى فى كل ساعة من ساعات وحدتى وخلوتى.

اننى أريد أن أشركك معى فى السرور الذى نالنى من وراء هذه الفسحة الصغيرة. غير انى آسف لعدم استطاعتى أن أصل مهما جاهدت الا إلى قليل لايكاد يذكر مما رأيت. وعلى كل حال فاحسب من واجبى أن أقول لك كل شىء كما اتفقنا ليلة سفرى.

خرجنا بعد العشاء فاذا السماء منثورة فيها النجوم ولابدر بينها. تلبس الجو رداء من الليل والظلمة وتدعنا نجد صعوبة فى تلمس الطريق، خصوصا أنا التى لم أعتد هذه الأماكن ولامشت قدماى فى هاته السكك من زمان طويل مضى. ولكن عمى لم يجد وقتا أنسب من هذا لنخرج فيه خيفة أن يرانا أحد أو تقع علينا عين انسان. واتخذ بنا جانبا من الطريق يدل مافيه من التراب على أنه غير الجانب الذى يمشى الناس منه ويدقونه بأقدامهم. وسرنا وكأن على رؤوسنا الطير لا ننبس بكلمة ولا نحدث صوتا حتى خرجنا من بين جدران البلد الواطئة التى تزيد بسوادها سواد الليل ولا تنم عن شىء مما فى جوفها. ولقد هالنى الصمت المطلق الذى بقى محيطا بنا حتى كنا على مقربة من غايتنا. وأحيى الصرصار بصفيره السكون الأخرس.

برغم الظلمة المحيطة بنا تبينت على مقربة شيئا أشد من الليل سوادا وهو قائم كأنه ينتظرنا. فعرتنى لمرآة قشعريرة الخوف ولم أتمالك أن قطعت سكوتنا بسؤال عمى عنه.

فأجابنى أننا صرنا عند الجرن وأن هذا الأسود عرمة من تبن القمح لم يذر بعد. ثم رجع السكون والسكوت إلى ما كانا عليه وجعلنا نسمع فى صمتنا صفير الصرصار ونقيق الضفدع.

ولما وصلنا وجدنا نوارج الدراس مفرقة فى نواح مختلفة قد تركها العمال بعد أن انتهى عملهم. فاتخذناها مقاعد وجلس عمى وابن عمى على أحدها وجلست وفتاة ريفية على آخر وتفرق الباقون حيث أرادوا. فلما أحسست بها إلى جانبى ووجدتها ساكتة لاتتكلم أردت أن أفاتحها الحديث. ولكن ابن عمى لم يمهلنى أن أتى فوقف إلى جانبنا وسألنى ان كنت أريد شيئا فالحديقة قريبة. فاذا كنت أفضلها ذهبنا إليها. فأجبته انى راضية بمكانى مسرورة بجارتى. هنالك شعرت بالفتاة تضم نفسها إلى كأنها لم تجد ماتشكرنى به الا هذا. ووجدنى ابن عمى قد سكت فلم يجد جديدا يقوله وتركنا وانصرف.

رأيت السماء تبهت وحدقت إلى جهة القرية فاذا الشرق يلمع بشى من النور واذا القمر من فوق أبنيتها يحبو مبطئا وكأنه منهوك متعب. واجتليته فاذا نحوله قد قضى على بعضه. ولكنه مع ذلك أرسل على هذه الأكمات من التبن إلى جانبنا نورا انجلت فيه لمعتها وملأ الجو من شعاعه بلجة تركته وكله أحلام هادئة. والنسيم العذب يبعث فى النفوس من لذته مايتركها نشوى خادرة.

اعتلى القمر وثبت بين النجوم وكلما حددت النظر نحوه رنا إلى بعين ساهية وخيل لى من شدة نحوله أنه سيقع بين أحضانى. ولا أدرى لعلى فتحت ذراعّى أريد أن أستقبله. فقد أحسست مرة واحدة بالفتاة تطوقنى بذراعيها وتجذبنى نحوها ثم ابن عمى يجرى نحوى ويمسكنى بين يديه كأنما خافا أن أقع من مكانى... وهل أقدر أن أخبرك عن السرور الذى شعرت به لهذه الضجة بعد أن وصلت إلى أعماق فؤادى نظرات القمر؟... وتركونى أحدق لمحبوبى فى السماء حتى ظن عمى أن السكة انقطعت من عليها الرجل. حينذاك دخلنا.

ولكنى من يومها مشتتة البال أريد بدل محبوب السماء محبوبا على الأرض. محبوبا من بين بنى آدم. انسانا أحبه ويحبنى.

من أجل ذلك أخبرتك انى أود أن يكون معى فى المرة الثانية شخص لم أعرفه بعد ولكننى أتمثله أمامى... أود أن يكون ذلك المحبوب إلى جانبى فينظر الينا القمر نظرة مهنىء أو حاسد لانظرة مشفق ولا متألم.

هذا ما قدرت أن أكتبه اليك ولعلى أكون وفيت بالوعد. إلى الملتقى وأهديك ألف قبلة.

نفيسة

قرأت عائشة الرسالة فلما جاءت على اخرها وضعتها جانبا وألقت ذراعيها الناعمين فوق لحافها ورجعت إلى عالم خيالها الذى كانت فيه بالأمس ساعة نومها والذى مدت نفيسة برسالتها فى أطرافه. وبقيت حتى دخلت الخادمة من جديد لتخبرها أن والدها قد حضر ويريد أن يراها. فقامت ولبست ثياب البيت وذهبت إليه فأخذها إلى جانبه بعد أن تبادلا تحية الصباح. ثم ملس على شعرها الأسود البديع المرسل على أكتافها وسألها :

– من عند نفيسة الجواب اللى أخذتيه النهارده. مش كده – أنا عرفت خطها. خطها كويس. وازيها.

فأخبرته عائشة أنها مسرورة وأنها تسلم عليهم ثم استأذنته أن تذهب لترد على خطابها. ولما أنفردت بنفسها أخذت قرطاسا وكتبت:

عزيزتى نفيسة

بلغتنى رسالتك وبلغتنى رسالة القمر فهاجت من نفسى كامنا كنت أود أن يبقى فى كنهٍ حتى أهبه نفسى وان لم أقدر بقيت حتى يذهب معى إلى قبرى. أما اليوم وقد ظللت أعالج من أثر الفكر ما أضنانى وما أحسبه سيبقى حتى يزيدنى ضنى

ولوعة فما أحوجنى لهذا الشخص الذى لا أعرف والذى أتخيله أنا الأخرى أمامى. وانى أسأل نفسى اليوم ان كان ذلك الشخص هو الذى سيقدمه لى أبى يوما ما أو هو شخص آخر فأشعر كأن صوتا يرن فى صدرى وتسمعه آذانى يقول لى أنه لن يكون محبوبى الذى آمل، بل هو الانسان الذى يسلبنى حريتى وحياتى طوعا أو كرها فيوقعنى هذا الشعور فى ألم ما أكبره. وليس فى وسعى أن أكتب لك اليوم طويلا فاذا سمحت أن تعجلى بالرجوع إلى وجدت كل منا فى صاحبتها عزاء. وفى انتظار مجيئك القريب أهديك ألف قبلة وألف سلام.

عائشة

وبعد كتابته ذهبت إلى مكتب أبيها فأخذت منه طابعا ألصقته على الغلاف وأعطته إلى خادمتها لتضعه فى صندوق البريد.

الكتاب الثالث

خواطـــر

فى التـاريـخ والأدب

الأدب واللغة

القديم والحديث

١
الأدب القومى

دارت مناقشات ذات شأن فى مسألة القديم والحديث فى اللغة وكان الجدل حادا بين أنصار كل من المذهبين، وكان مداره على الألفاظ والعبارات التى يجب اعتبارها صالحة فى الكتابة. فأما أنصار القديم فكان مذهبهم أن اللغة العربية وما وصلت إليه حين مجد العرب وسلطتهم قد وسعت كل الصور والمعانى والاراء. وأن مايذهب إليه المجددون فى اللغة انما يقوم على أساس من جهلهم اياها أو انصرافهم عنها، وانهم لو كلفوا أنفسهم مؤونة الحرص على عبارات القدماء وألفاظهم لما ضاقت بهم عن كل معنى يريدونه لابسا أبهى ثوب وأجمله. أما أنصار الحديث فكان مذهبهم أن اللغة قد وقفت عند عصر بعيد، وأن تطور الحياة وتقدمها قد سبق

هذا العصر بما لا تلحقه عبارات القدماء وألفاظهم. فمن الحق أن يأخذ الكتاب من اللغة بجديد يحتمل ما بلغته الحياة من تطور وتقدم.

ولم تقف المناقشات عند حد تقرير المبادئ السالفة والدفاع عنها، ولم تقف عند ألفاظ اللغة وعباراتها، بل تعدت إلى أساليب الكتابة وتغلغلت عند ذلك فى بيداء التفاصيل. وبلغت أن جعل المتناقشون أساليبهم الخاصة موضع الأخذ والرد. ولعل أحداً لم ينس ماكان بين الأمير الجليل شكيب بك أرسلان والاستاذ المحترم خليل أفندى السكاكينى من حوار وجدل فى هذا الباب، وقد يكون هذا الانتقال من المبادئ إلى التفاصيل طبيعيا. فان الانسان لا يعنى غاية العناية بالقديم لأنه القديم ولا بالحديث لأنه الحديث مالم يمس القديم أو الحديث ذاته.

ومعركة القديم والحديث بين كتاب اللغة العربية فى هذا معركة قديمة، والجدل فى أى الأساليب أصلح للحياة الحاضرة لا يكاد يهدأ حينا حتى يستعر من جديد. وهذه المعركة وهذا الجدل ليسا مقصورين على كتاب العربية وان كان لهما بينيهم طابع خاص مرجعه اختلاف لغة الكتابة عندهم عن لغة الكلام، ومرجعه أكثر من ذلك اتجاه العناية لطريقة التعبير أكثر من اتجاهها لما يجب أن يشتمله ذلك التعبير من الصور والمعانى.

ونحسب أن قصر البحث عندما يصح استعمال من الألفاظ والعبارات والحكم على صلاح هذه الألفاظ والعبارات للحياة الحاضرة وعدم صلاحها يكاد يكون بحثا لغويا ضعيف الصلة بالآداب ويقوم على شئ غير قليل من التحكم، وهو بعد بحث تافهة نتائجه. فان الأدب لا يقوم على الالفاظ ولا على العبارات التى يستعملها الكتاب بمقدار مايقوم على الصور والمعانى التى تلهم بها خيالاتهم وتجود بها قرائحهم. فاذا كانت هذه الصور والمعانى وماينطوى تحتها من وصف وعاطفة وعلم والهام من الروعة بما يملك على القارئ لبه وينسيه نفسه لم تكن الألفاظ ولا

العبارات الا ثانوية عنده فلم يحفل منها بقديم ولا بحديث، ثم كان حكمه على الكتاب راجعا إلى مابعثه إلى نفسه من لذائذ والى مشاعره من اهتزازات وإلى خياله من صور وإلى ذهنه من تفكيرات، فاذا هو اطمأن إلى حظه من هذا وحمد الشاعر أو الكاتب على ما جناه منه عاد إلى الثوب الذى لبسته تلك الصور والمعانى فكان له من جماله وروائه مايزيده اعجابا بصاحبه، أو كان له من اضطرابه ما يبعث إلى نفسه شيئا من الأسف على أن يفوت هذه المعانى السامية بعض ما يجب لها من بهاء الثوب وجلاله.

نفس الكاتب وما تفيض به من تفكير والهام هى اذن موضع حكمنا. وهى ما دامت قوية تجتمع لها الصفات التى تجعلها ممثلة لعصر خاص أو لبيئة خاصة فقد حق لآثارها أن تخلد. فاذا كان فيضها والهامها كاسيا مع ذلك أسلوبا مثلا فى قوته وصفائه ودقته فهى فى خلودها أكثر بريقا واشعاعا. وسواء أخذ هذا الأسلوب بالقديم أم أخذ بالحديث فى اللغة فلن يضيره ذلك الا بمقدار مايدور حوله من نقد أول ظهوره. ثم يكون حظ ذلك النقد من البقاء أو الاهمال بقدر ما يشتمل عليه من معان وصور.

هذه النفوس القوية التى تمثل عصرا خاصا أو بيئة خاصة والتى نخلد آثارها هى التى يصدر عنها الأدب القومى. فهوميروس وفرجيل وشكسبير وفولتير وجيت خلدوا برغم تطور الحياة وتقدم الحضارة فى العالم لأن نفوسهم مثلت أمة خاصة وعصرا خاصا فانطبعت فيها الصفات الخالدة لاممهم والتى لا يأتى عليها تقدم أو تطور، كما وقفوا أعلاما فى التاريخ يهتدى بهديهم أهل عصورهم كما تهتدى به الاجيال من بعدهم. ولو أن هؤلاء الشعراء والكتاب وقف أمرهم عند اختيار اللفظ والتركيب من غير أن تملأ نفوسهم وأذهانهم ومشاعرهم هذا اللفظ والتركيب قوة لانحدروا كما انحدر المئات والألوف إلى عالم النسيان. وكم كان بين هؤلاء الذين نسيهم الناس

من يدل بأسلوبه وبحسن اختياره لفظه وعباراته، وكم منهم من لقى معجبين به يوم كتب. لكن ما كتب هؤلاء كان أجوف كالطبل. عال رنينه خال جوفه. لذلك مالبث أن تمزق ظاهره وبدا باطنه وأهمله الناس فى ازدراء ثم أسدلوا عليه ثوب النسيان.

وهؤلاء الكتاب الذين يتمثلون عصرهم ويصدر عنهم الأدب القومى هم سادة الأدب والحاكمون على اللغة. هم الذين يبعثون فى الألفاظ حياتها ويحددون كم هذه الحياة وكيفها، لن يستطيع أحد سواهم أن يجعل لكلمة قوة غير قوتها ولا أن ينبش لفظا من قبور القديم ليعيدوه فتيا جديدا. ولن يستطيع غيرهم أن يختار لفظا ابتذله الناس فيخلع عليه رقة ووقارا. لحكمهم تخضع المعاجم وبسلطانهم يعترف علماء اللغة وان آثروا الجمود والمحافظة، ولن يقدر سواهم للغة ولا لألفاظها ولا لأساليبها على شئ لا يرضونه ولا تناله حمايتهم.

وهذه اللغة العربية يصدق عليها فى ذلك مايصدق على كل اللغات، بل هذه معاجمها الواسعة كلسان العرب اذا أردت أن ترجع فيها إلى لفظ رأيتها فى تحديدها معناها تعود بك إلى مواضع وروده فى قصائد الشعراء وعبارات الكتاب. وذلك هو الشأن فى معاجم اللغات جميعا. ثم أنت تراها تورد للفظ الواحد أوضاعا قد لا يختلف المعنى فى بعضها عن بعض، لكنك تحسُّ مع ذلك تمام الاحساس بأنها تتفاوت فى مدلولها. وهذا التفاوت لا أساس له الا أن كاتبا قوميا رأى لها هذا الوضع فى عصره فكان رأيه حكما على أهل زمانه وساغ استعمال اللفظ على ماأراد.

وهذا التفاوت ليس مرجعه أصل اللغة وانما مرجعه طبيعة اللغة وأنها كائن حى يتطور مع الحياة ويمور مورها ويخضع كما تخضع سائر الخلائق لحكم الانسان القوى الذى يتمثل فيه عصره؛ وهو ليس مقصورا على الالفاظ ولا على العبارات بل هو يتخطى إلى الأساليب فى الشعر والكتابة والخطابة والتأليف العلمى وماسواها.

وبحسبك أن ترجع البصر إلى العصور والدول المختلفة التى ترعرعت فيها الحضارة العربية لترى مصداق ماتقول. فليس أسلوب الجاهليين كأسلوب الأمويين، وهؤلاء لبست الأساليب فى عصرهم ثوبا خلعته حين انتقلت إلى عهد العباسيين. والفرق أكثر وضوحا بين أساليب العربية فى شبه جزيرة العرب وفى الأندلس. فأنت ترى البون كبيرا بين هؤلاء الذين أخذوا بحضارة أهل الغرب وأسلافهم فى طرائق التعبير وفى أساليب الكتابة. ولم يكن من ذلك بد. لأن لكل حضارة زهرة هى الفن والأدب. فهما يموران مورها ويأخذان ألوانها ومظاهرها. والحضارة أثر من أثار الحياة الانسانية. فيجب أن يخضع الفن والأدب للحياة الانسانية وآثارها. ويجب أن يكون لأعلام الحضارة من رجال الادب حكمهم على أداته وهى اللغة.

أذكر أن جماعة من ذوى الفضل والعلم فكروا أثناء الحرب ثم ألفوا هيئة «المجمع اللغوى المصرى» وجعلوا غايتهم من تأليفه التواضع على الألفاظ العربية التى تقابل ألفاظا أوربية لم يتفق لأحد أداؤها أو اختلف الكتاب عليها. ومع سمو الغاية وكفاية أعضاء المجمع فان عملهم لم يظهر له أثر حتى اليوم فيما أعلم. ولم يكن هذا المجمع أول هيئة تألفت لهذه الغاية. بل كانت قبلها هيئات أخرى تجمع أعضاء ذوى فضل وعلم. لكن هذه الهيئات لم تكن أحسن من المجمع اللغوى حظا فى آثارها. وذلك طبيعى محتوم. لأن الألفاظ الأوربية لم توجد فى لغات أهلها عفوا. وانما جاءت نتيجة حضارة قوية وعمل جد ثم تقررت على لسان الكتاب الذين يمثلون عصرهم. فلم يكن لعلماء اللغة بعد ذلك كله الا أن يعترفوا بها وأن يسجلوها فى المعاجم.

ولكى تنتقل هذه الألفاظ إلى العربية لا يكفى البحث عن أصل اشتقاقها بل لا يكفى تقصى تاريخها ثم وضع أقرب مقابل لها. انما يجب أن تكون ثمت حضارة مستعدة لقبولها وأدب قومى هو مظهر هذه الحضارة وكتاب يمثلون عصرهم يبعثون فيها الحياة ويخلعون عليها القوة.

هذا الأدب القومى هو الذى يجب لذلك أن يكون مدار البحث. فهل هو كائن فى الأمم التى تتكلم العربية فى هذا الظرف الحاضر؟ وهل هو مشترك بينها جميعا؟ أم أن لكل منها أدبا قوميا خاصا هو مظهر حضارتها؟

ليس من ينكر على الشرق العربى شعراءه وكتابه وأدباءه. وليس من ينكر أن من بين هؤلاء الشعراء والكتاب فحولا لهم من الصور والمعانى ما يأخذ باللب وينسى الانسان نفسه، لكنا مع شئ كثير من الأسف مضطرون للاعتراف بأن هؤلاء الشعراء والكتاب لا يمثلون حضارة معينة. بل هم ملتقى حضارات تختلف جد الاختلاف أحيانا وتبلغ حد التناقض أحيانا أخرى. لذلك لم يبرز من بينهم الأدب القومى الذى يطبع عصره بطابعه لأنه زهرة هذا العصر والصورة الناطقة بكل مافيه من كمال وقوة. بل وقف كل واحد منهم منفردا يتحدث إلى الناس بما لا يفيض عن نفسه مما عندهم، ولكن بالصور التى اجتمعت اليه من تلك الحضارات المختلفة المتناقضة أحيانا. فكان يبهرهم لسماعه راجعا تارة إلى سحر لفظة وأخرى إلى واسع معارفه. لكنهم لم يصلوا يوما لتقديسه وتخليد آثاره. لأن هذه الآثار ليست صورة مافى نفوسهم ولست زهرة حضارتهم.

وليس يرجع ذلك إلى أن الشرق العربى لا حضارة له، ولكنه يرجع إلى أن حضارته طمست معالمها تحت سلطان الأمم التى تحكمت فيه والتى عملت متعمدة على أن ينسى ماضيه وعلى أن يخضع لحكم حضارة هؤلاء المتغلبين. واذا نسى الناس الماضى وخضعوا فى الحاضر لسلطان مدنية غريبة عنهم ضعفت قوميتهم، وانحل تضامنهم، وطمس الظلم على الحضارة الخاصة بهم، ثم لم يكن لهم أدب قومى واضح الذاتية يعبر عن هذه الحضارة الدفينة.

والعجب أن العاملين فى نهضات الشرق الحديث لم يفكروا فى هذا ولم يحاولوا علاجه. وانك لتدهش حين ترى جامعتنا المصرية تلقى فيها دروس الأدب القديم

والحديث للأوربيين والعرب ثم لا يلقى فيها درس واحد عن الأدب المصرى القديم والحديث؛ ولا يلقى فيها درس واحد عن التطور الفكرى فى مصر؛ وكيف تمثل ماورد عليه من حضارات الشرق والغرب التى وردت عليه؛ وهل خلع عليها حلة من القومية المصرية بتاريخها القديم وبطبيعتها المنسقة وبسمائها الصفو وبما يمتاز به أهلها من رقة فى الخلق وظرف وكياسة؛ أم أن هذه الحضارة بقيت غير مهضومة حتى مرت وحل محلها غيرها؟

ندهش لذلك حقا. فان هذه الدراسة تعتبر فى كل الأمم المتحضرة أساسا من الأسس القومية التى يجب أن تمتلئ بها نفس أبناء الوطن لتزداد بينهم روابط الولاء لوطنهم. وهؤلاء الأمركيون على حداثة عهدهم بالحياة المدنية وعلى أنهم قوم لم يحظ تاريخهم بشئ من هذه القداسة التى تشتمل تاريخ الأمم القديمة كلها قد جعلوا من التعليم القومى وسيلة قوية منتجة لخلق القومية الأمريكية فصادفوا من النجاح ما جعل الذين نزحوا إلى أمريكا ولم يولدوا فيها أكثر تعلقا بها منهم بأوطانهم التى أنشأتهم. ولقد كانوا أول عهدهم بالفن والأدب عيالا على أوربا وعلى الأدب الانكليزى بنوع خاص؛ ثم لم يلبثوا بفضل هذه النشأة القومية أن ظهر من بينهم أمثال لنجفلو وامرسن شعراء وكتاب تمثلوا الحياة القومية الأمريكية وكانوا المشخصين لمجموع هذه الحضارة الجديدة القائمة على أساس من النشاط العملى وحب الحياة.

والأمريكيون يعنون بهذا الجانب القومى وبغرسه فى نفوس ناشئتهم برغم حداثة عهدهم به وتأخرهم عن سواهم من الأمم فيه. وهم بهذه العناية قد خلقوه عندهم خلقا وجعلوا منه للأمريكى موضع فخر. أما نحن فى مصر فقد أهملناه على ما رأيت فى الجامعة المصرية وأهملناه فى مدارس الحكومة، وأهملناه فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية، وتعلق جماعة منا بالآداب العربية فى غير مصر، وتعلق آخرون بالآداب غير العربية. ثم كانت هذه المعارك بين القديم والحديث، وكان أكابر كتابنا وشعرائنا

يفيض إلهامهم أكثر الأمر بشيء غير مصرى. فإذا نزع واحد منهم إلى الجانب المصرى بدافع الحماسة الوقتية أو لظرف طارىء لم تشعر فيما كتب بما يجب أن يكون. لم تشعر بأن نفسه كلها وأن فؤاده وقلبه وذهنه وعقله وكل قواه ومشاعره وعواطفه انتقلت إلى لسانه وإلى قلمه ففاضت بهذا السيل الروحى الغزير الذى يمثل أمة بحالها فى عصر من العصور.

وسائر أمم الشرق ليست أحسن من مصر فى هذا الباب حظا. وأنت قل أن تجد من بين كتاب جاراتنا واخواتنا فى الشام والعراق وفى تونس والجزائر ومراكش هذا الكاتب أو الشاعر القومى الذى يقف من أمته ومن عصره موقف هومير فى اليونان أو جيته فى ألمانيا أو الفرزدق وأبى نواس والمتنبى وأضرابهم فى بلاد العرب.

ويرجع السبب فى ذلك إلى ماقدمنا من عمل المدنيات الحاكمة التى استبدت بهذه الأمم وسعيها لطمس حضارتها فقد كانت حضارة آل عثمان تعمل لتتريك الممالك العربية التى خضعت لحكمها ما استطاعت. وكانت انكلترا وفرنسا أشد من آل عثمان بالحضارة العربية استبدادا أو أكثر امعانا فى طمس معالمها. وكذلك بقيت هذه الأمم المغلوبة كامنة لا تجد متنفسا ولاتجد من فنان أوشاعر أو كاتب علَما لها تنير آثاره أرجاءها ويجمع فى شخصه ماكدسه الماضى من حضارتها.

على أن هذه الأمم العربية المتصلة بصلة الجوار والتى يبلغ عدد سكانها أكثر من سبعين مليونا لها سبق فى الحضارة وقدم راسخة فى المدنية. وهى تشترك فى كثير من مظاهر حضارتها ويتميز كل منها بطابع خاص به، مستقل عما سواه، راجع إلى تكوينها الطبيعى وإلى جوها وإلى صور النشاط الموجودة فيها. ولقد تجد بين هذه الأمم من عامة الناس ممتازين يضعون أنواعا من الأدب الخاص بهم يمتاز بطابع البلاد التى عاشوا فيها ويفيض بحياتها. لكن هذا النوع من الأدب العامى غير مهذب ولا يصلح بحال للبقاء. وأكثر مايصلح له أن يكون مادة للمؤرخ أو الكاتب الذى يريد أن يقف

على تاريخ هذه الأمم وتطورها فى هذه العصور التى عاشتها محكومة بالاستبداد مطموسا على السامى من مظاهر حضارتها. فهل ثمت سبيل لعود أدب قومى سام يميز كلا منها ويميزها جميعا؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون لها فى الحاضر وفى المستقبل القريب حضارة خاصة بها، يكون الفن والأدب زهرتها، ويقوم من بين كبرائها من يعتبر المثل الناطق بمعانى هذه الحضارة.

نعتقد أن الأمر ممكن اذا صحت العزيمة عليه واذا تضافرت القوى على خلق هذا النشاط القوى يشتمل كل طبقات الأمة ويدفعها للسعى وللعمل فى سبيل ظهور ذاتيتها، بارزة ممتازة. فى هذه الحال تسرع كل أمة إلى تمثل الحضارات التى ترد عليها فتصبح جزءا من حياتها ويشعر الناس بها كأنها لهم وليست غريبة عليهم، وكأنها تحت حكمهم وليست متحكمة فيهم. وفى هذه الحال تظهر ذاتية كل أمة بماضيها البعيد المجيد فيشترك الآباء والأجداد إلى عصور أول التاريخ فى تشييد هذه الحضارة. فاذا تم ذلك لم يكن بد من ظهور الفنان القومى والكاتب القومى، ولم يكن بد من أن يكون للشرق العربى عامة ولكل أمة منه خاصة أدب يميزه عن الأدب القديم، وعن هذا الأدب الحديث المدين بأكبر حظ منه للمدنية الغربية المتحكمة بسلطانها فى الشرق وأممه.

ويومئذ يكون الأديب القومى هو المتحكم فى اللغة وهو الذى يملى على المجامع ما يضعه من الالفاظ لتثبتها المعاجم. وهو الذى يقرر الأسلوب الذى يحتذيه كل كل كاتب من كتاب الدرجة الثانية. ويومئذ يكون البحث فى القديم والحديث بحثا قل أن يطرأ أو أن يجد من الحيز مايجده فى هذا الوقت الذى لا يعيش فيه الكتاب بأنفسهم وانما يعيشون عالة على القديم أو الحديث، ويومئذ يكون لنا أن نطمئن إلى أن هذا الجمود الذى وقفت عنده اللغة قد زال وأن الحياة قد بعثت فينا فتية قوية.

لسنا مع هذا ننكر فضل الشعراء والكتاب الذين جاهدوا ولا يزالون يجاهدون فى سبيل التوفيق بين حضارة لنا كامنة وحضارات أخرى متحكمة مستبدة. فهؤلاء

سيكونون فى المستقبل حلقة الاتصال التى لابد منها بين الأدب القومى فى عصر من العصور والأدب القومى الذى سبقه. وهؤلاء سيكون حظهم حظ الأبطال الذين ظلوا حاملين العلم فى ساعة التقهقر والهزيمة حتى نجت أوطانهم بفضل ثباتهم وقوتهم. وهؤلاء سيعترف لهم الأديب القومى، الذى نرجو أن يكون قريبا زهرة حضارتنا وحضارة الشرق العربى، بأكبر الفضل وأعظم المجد.

الأدب واللغة

القديم والحديث

٢

ثارت مسألة القديم والحديث مرة أخرى. وتلك مسألة اذا ثارت لم يكن يسيرا أن تهدأ. فهى عند بعض الكتاب صيحة حرب لا تلبث أن ترتفع حتى يهرع من يسمون أنفسهم أنصار القديم إلى صف القديم ينصرونه، ومن يسمون أنفسهم أنصار الحديث إلى صف الحديث يعززونه. واذا انتظم الكتاب صفوفا للنضال عن كتابتهم فويل للمحابر والأقلام وويل للأوراق والصحف. أما القراء فلهم البشرى. إن لهم من ميدان هذه المعركة خير منظر تتراشق فيه الحجج مطمئنة تارة محتدمة طورا وتتجاوب الأدلة مستقيمة حينا ملتوية أحيانا. وما بالك بقوم يدفعون عن وجودهم ويذودون عن كيانهم. أو ليست الكتابة حياة الكاتب. فدفاعه عنها دفاع عن الحياة. واذا كان المزارعون من أهل الريف ينشب أحدهم أظافره فى عنق جاره حتى ليقضى عليه إن

حاول ليصد الماء عن مزرعته فان للكتاب بديلا من أقلامهم عن الاظافر يذودون بها عن حياض حياتهم كما يذوذ المزارع عن حوض حياته.

ومن العجب فى أمر معركة القديم والحديث التى تنشب هذه السنين ما بين آن وآخر فى مصر أنها تنشب بين أقوام يعلنون جميعا أنهم على اللغة العربية وقواعدها حراص، فى حين أن قوما آخرين لهم بين كتاب العربية اسم ومقام ولهم فيها تواليف ورسائل وغرضهم الظاهر فى كتاباتهم العدول بالعربية عن أصولها وقواعدها وأساليبها وألفاظها، يبقون بعيدين عن المعركة ينتظرون ما ينجلى عنه غبارها، آملين أن يكون لهم من ورائها مغنم. وهل رأيت الريحانى أو جبران خليل جبران أو من شايعهم يعيرون اعتراض أنصار القديم أو أنصار الحديث عناية أو التفاتا. أم هم كأنما يقولون فى سخرهم المطمئن وازدرائهم للمتنازعين: أولئك أقوام تعلقوا بالقشور دون اللباب. فليظلوا فى معاركهم حول الألفاظ والتراكيب فلن يكون لهم من ورائها الا التناحر. يومئذ يكون لجديدنا نحن، هذا الجديد الممتلئ حياة وقوة، هذا الجديد الثائر على أمة العرب العتيقة المتهدمة، هذا الجديد الطامح إلى حياة الغرب وعلمه وأدبه، بل الطامح للفظه إن أتيح له بلوغه، يومئذ يكون لجديدنا نحن الفوز على حين يبقى هؤلاء فى معاركهم التى تنشب لغير غاية، وتنتهى إلى غير نتيجة. وينجلى غبارها عن غير فكرة جديدة، أو أمل فى التقدم نحو فكرة جديدة.

.هذا من العجب حقا. فأنصار القديم هم الاساتذة: صادق عنبر ومصطفى صادق الرافعى والشيخ علام ومن نحا فى أسلوبهم نحوهم. وأنصار الحديث هم الدكتور عزمى والدكتور صبرى وإخوانهم. فان تسل ماقديم أولئك وما حديث هؤلاء ترى المقالات تواجه المقالات والرسائل تنقض الرسائل. لكنك ترى هذه المقالات والرسائل جميعا مكتوبة بأسلوب عربى مبين. لم يصفع أحدها قواعد النحو والصرف بما تصفعها به رسائل الريحانى وجبران. ولم تكره الألفاظ خلالها حتى لتراك فى حيرة

قبل أن تصل إلى مايريده أصحابها منها. ففيم اذن هذه المعارك يحتدم فيها الجدال وترتفع فيها جلبة الألفاظ وضجيجها حتى لتشبه فرقعة البارود وقعقعة السنان؟

ما القديم وما الحديث؟ مسألة يجب حلها لمعرفة حدود الخلاف بين الفريقين. فهل القديم فى اللغة والأدب ما يرجع عهده إلى عصور الجاهلية الأولى. أم هو ما اجتمع أيام حضارة العرب إلى حين بدأ التدهور فى أدبهم بعد أن تدهورت سيادتهم واستعجمت حضارتهم. ما نظن أحدا ممن يسمون أنفسهم أنصار القديم يريد قصر اللغة والأدب فى عصرنا الحاضر على ما كانا عليه فى الجاهلية الأولى.. فهل يقول لنا أحدهم بعد هذا أى لغة وأى أدب عربي يفضل؟ ما نخالهم ينكرون أن لغة أمرئ القيس وأدبه ليسه لغة أبى نواس وأدبه. وانك لتقرأ المعلقات وما عاصرها فترى فيها شيئا غير الذى تراه فى شعر العباسيين أو فى شعر الأندلسيين. وانك لتقرأ نثر الهمذانى فتراه غير نثر الجاحظ وغير نثر ابن المقفع وغير نثر أبى الفرج صاحب الأغانى. ثم أنت اذا عدلت عن الشعر والأدب إلى الفلسفة والتاريخ رأيت فى رسائل الفارابى وفى كتب ابن خلكان وابن خلدون صورا من النثر متباينة. فعن أى الصور فى النثر والشعر يرضى أنصار القديم؟ وأى هذه الصور فى نظرهم هى المثل الأعلى للغة وللأدب؟ وهل يرى أحدهم أن يقف فى أدبه وكتابته عند ما اشتملت عليه؟

كذلك مانظن أحدا ممن يسمون أنفسهم أنصار الحديث ينكر على هذا الميراث العربى فى اللغة والأدب مجده وعظمته. بل ما نظن أحدا منهم ينظر إلى ثورة التجديد التى يحمل لواءها جبران خليل جبران وأصحابه بعين مطمئنة. ومهما يعجب أحدهم بما تنتجه مدرسة الثورة هذه من بعض الثمرات، ومهما يجد فى مثل كتاب الاجنحة المتكسرة من فيض الخيال الشعرى، فكل واحد منهم جد حريص على بقاء الصلة بين الحاضر والماضى وثيقة متينة. ذلك بأنهم يعلمون أن كل حاضر لا يتصل بالماضى وشيك الزوال.

فيم الخلاف اذا؟ الخلاف فى رأى أنصار القديم أن هؤلاء «المحدثين» قد انصرفوا عن العرب وأدبهم إلى الغرب وأدبه. وأنهم لذلك جهلوا من أساليب العرب أفصحها لفظا وأبلغها عبارة واكتفوا بالقليل الذى درسوا فى مكاتبهم وحاولوا اكراه هذا القليل على احتمال ما امتلأت به رؤوسهم من العلوم الحديثة فنزل بهم ما عرفوا من اللغة وأساليب الأدب إلى الاضطراب والركاكة. والخلاف فى رأى أنصار الحديث أن هؤلاء «الأقدمين» حبسوا أنفسهم فى غيابات الماضى ووقفوا من الالفاظ ومعانيها والعبارات وتراكيبها موقف العرب، جاهلين أو ناسين أن اللغة مظهر من مظاهر الحياة، وأنها لذلك يجب أن تحتمل أداء كل مايريده الاحياء من صور ومعان على الوجه الذى يريدون أداءه به، فوقف بهم ذلك عن مجاراة الحضارة الحاضرة، وعجزوا عن أداء ماتريده الحياة من صور هذه الحضارة ومعانيها.

ولئن صدق هذا التصوير فالخلاف ليس بين القديم والحديث، والقديم والحديث لا يمكن أن يكون بينهما خلاف، وان كان أبدا بينهما اختلاف. بل الخلاف بين أدب اللفظ وأدب الفكر. فالذين يسمون أنفسهم أنصار القديم يريدون البقاء فى دائرة حضارة العرب يستعيرون تصورهم للأشياء وتصويرهم اياها بالألفاظ، ويعملون على اكراه الحضارة الحالية فى قوالب الحضارة العربية. والذين يسمون أنفسهم أنصار الحديث يحاولون الفرار من بيت الحضارة القديمة ويعملون على أن يخلقوا لما أنشأته الحضارة الحديثة قوالب جديدة من اللفظ قد لا تتفق وما يرضاه فقه اللغة العربية وسرها.

مثل هذ الخلاف يرجع إلى قيام طائفتين اختلف تهذيب كل منهما واختلفت ثقافتهما عن الأخرى، فتعذر عليها التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب.. ولن يزال هذا الخلاف مابقى الاختلاف بين الطائفتين فى التهذيب والثقافة وما بقيت الأمة فى علمها وأدبها كلاً على سواها وعالة على غيرها. فيظل

«الأقدمون» بين جدران قصور الماضى المجيد بحضارته وأدبه معجبين بمخلفاته، ناسجين ثمرات أفهامهم وخيالاتهم على منواله، قانعين بالنظر إلى الحاضر وأعماله وآماله من نوافذ هذه القصور، فرحين بما قد يجدونه فيه من مشابهات لما عندهم، مؤمنين بأن ما لديهم خير وأبقى، وبأن مايرون من سناء ولالاء ليس الا خلبا من برق وسرابا من آل. فاذا حسن ظنهم بالحاضر قالوا انما هو فروع هذا الجذع الذى جمعنا حوله وأوجب علينا أن نزيده قوة وصلابة. ويظل «المحدثون» فى فضاء الحاضر الحر الدائم الحركة مأخوذين بما أبدع الغرب فيه من ثراء وغنى فى الحكمة والعلم والشعر، ممتلئة نفوسهم بمحبته واجلاله، متمثلة كل مافيه من بهاء لا يبلى، وجدة لايهرمها شتاء حتى يعقبه ربيع أكثر بهاء وجدة. فاذا أداروا رؤوسهم إلى قصور «الأقدمين» التى منها درجوا حاولوا أن يتصل ما بين كنوزها وهذه الحضارة الجديدة، فان تيسرت الصلة الصحيحة فذاك. وان لم تتيسر فلا ضير أن تكون صلة أقل صحة مادامت ترضى منهم هوى النفوس وتكفى عندهم لبوسا للمعانى الجديدة والصور المستحدثة.

والحق أن اللغة العربية على ماخلفتها حضارة العرب كثيرا ماتستعصى على صور هذه الحضارة الحديثة. وليس عليها فى ذلك ذنب، وليس فى طبيعتها دون الوصول إليه عجز. ذلك بأن اللغة أداة ان لم يدم صقلها علاها الصدأ، ثم كان فيها تثاقل عن السير المطمئن إلى حيث يحتاج اليها الذهن الفياض بمعان وصور جديدة. ولقد يبلغ من صدئها أن يقبرها. وهذه الهيروغليفية واليونانية القديمة واللاتينية والآشورية وما اليها من لغات، حملت أسمى صور الحضارة الانسانية القديمة ثم أهملت فصارت قبورا لهاته الصور، ينبش العلماء اليوم لاستخراج ماتحتويه من كنوز ودفائن تضيف إلى سلطان الحاضر وعظمته سلطانا وعظمة. ولاريب فى أن اللغة العربية تنطوى من الكنوز على ما لو اطلعت عليه جميعا لوقفت أمام جلاله وبهائه

مبهورا مقدسا. وذلك سر سحرها الأقدمين وأخذها إياهم عن أنفسهم. لكن اللغة العربية كائن حى لا تزال ولن تزال. وكل كائن حى لا يستطيع القيام دون الاشتراك مع سائر الكائنات التى تتصل به اشتراك تعاون وتنافس. وقد هدمت منشآت الحضارة الحديثة ما بين الدول من حدود وما كان يحيط بثمرات الفكر من قيود. فأصبح العالم كله كتلة واحدة ذات حضارة واحدة. وأصبحت عقول السكسون والجرمان واللاتين والعرب والهندوس والصين تتجاوب ثمراتها وتتنافس آثارها وتتجاذب فى نضال وتضامن. واندفعت الامم العربية واللغة العربية، حتما مقضيا، تغامر فى المضمار وتعد كاهلها لاحتمال حضارة الانسانية كلها بكل ما فيها من علم وفن وأدب. ولا مفر لها من أن يبلغ صفو صقالها ما يجعلها فى حملها حضارة العالم تعدل كل لغة من لغاته. فاذا أتاح القدر لأهلها أن كان لهم على الحضارة الغلب يوما كانت بين اللغات جميعا زينة وسحرا وبهرا.

ولعل هذه المعارك القلمية التى تشب بين «الأقدمين» و«المحدثين» احدى الخطى فى سبيل هذه الغاية. «فالأقدمون» يريدون أن يمسكوا «بالمحدثين» لكى لا يندفعوا إلى مايندفع إليه الريحانى وجبران خليل جبران. و«المحدثون»يحاولون أن يخرجوا «الأقدمين» من غيابات الماضى إلى نور الحاضر وحركته.

وذلك نضال غايته الكمينة حرص الطائفتين على التضامن والتعاون فى الحياة القومية لتؤتى كل ما أوجبته عليها الحياة لخير الانسانية جميعا.

لكن هذه المعارك لا تزيد على أنها خطوة ضيقة. ودرك تلك الغاية الساميه تعوزه خطى العمالقة وجهود الفحول. هؤلاء العمالقة والفحول هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادئ تتعلق به الانظار وتنفتح لعبارته الافئدة والقلوب. يعتصر ذهنه الفزد لب الحضارة جميعا، وينفثها من روحه القوى فى أحاديث وقصص أو فى قصائد منظومة أو فى كتب علم وفن، فيتلقاها عنه قومه وقد لبست ألفاظه ثيابا من

المعانى يجب أن تقرها معاجم اللغة راضية أو كارهة. ولهذا النابغة يخضع «الأقدمون» و«المحدثون» جميعا. ليكن فى عبارته ما فيها على قواعد اللغة من خروج وشذوذ؛ هى لغة الحضارة وروح العصر؛ هى الجواب الكافى لحاجة فى النفوس تتطلع لسدها؛ هى الأداء الصحيح لما يجول بخاطر الانسانية من المعانى. والانسانية ميراث متجدد يسفر كل صباح عن حظ منه جديد. فاللغة التى تؤدى حاجة الانسانية وما يجول بخاطرها لا يمكن إلا أن تكون الثمرة الناضجة لهذا الميراث والجماع الكامل لكل ما كدسه الوجود من علم ووهم ومن حس وتصور.

متى يتاح للغة العربية أمثال هؤلاء النوابغ الذين ينشئون الأدب القومى ويفرغون فى قوالبه المصقولة حضارة الانسانية بكل ما تنطوى عليه؟ ذلك سؤال جوابه للزمن، لكن أهل هذه اللغة بحاجة إلى مجهودات صالحة يقوم بها المئات والألوف من أبنائها فى مثابرة وجد لاجتناء ثمرات مجهودات الأمم الأخرى وبثها فى جو البلاد العربية. سيجد هؤلاء المئات والألوف من مجهودهم مشقة وعنتا، وسيقع بعضهم اعياء ويفر آخرون يأسا. لكن الحضارة شجرة من الأشجار الضخمة العظيمة الجذع التى لاتسرع إلى الظهور والنمو ولكنها تسير فى سبيله مقاومة كل صعب متغلبة على كل عقبة، وتبدو أول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها إلى أنها بالغة ما يبلغه أمثالها من ضخامة وعظمة، ولذلك يصد عنها ولا يعنى بتعهدها، وهذا هو شأن الكثيرين من أهل الشرق اليوم. أولئك يريدون العاجلة فيهيمون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سوقه السريع انقضاء أجله. وهم يكتفون بتفيؤ ظلال جذوع سقطت أوراقها وجفت أغصانها. أما ذوو العلم فلا يثنيهم عن تعهدها عجز ولا طمع. فاذا هى أورقت كان من ثمرها قطاف النابغة الهادى.

يوم يقيم النوابغ الأدب القومى، بعد أن ينشر المجاهدون العلم والثقافة القومية، تنتقل المعركة من ميدان القديم والحديث إلى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه، ويومئذ يتشعب الكمال إلى ما يريد النوابغ من صور، ويومئذ يسلس

قياد اللغة ويسرع تيارها الفياض إلى حيث يحتاج إليه الذهن. ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر. وتكون هذه الثمرات لذاتها هى الغاية أن أصبحت اللغة منهلا عذبا كثير الزحام. ويومئذ ترى هؤلاء المقتتلين من «الأقدمين» و «المحدثين» قد انصرفوا عن نضالهم الحاضر إلى ما هو خير وأبقى، ونرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الأهبة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كل حديث.

لكن انصراف المقتتلين اليوم لن يحسم المعركة. وكيف تحسم فى الحياة معركة والحياة تمور فى نضالها الدائم الاتجاه نحو ماترجوه الانسانية من كمال. انما يكون صلح الطائفتين المتنازعين اليوم مثارا لقيام طوائف جديدة تقف فى وجههما جميعا. ألم تر فى نضال الفن كيف قام الآخذون عن الفلمنك فأنشأوا اليوم شتى المذاهب ووقفوا ينصرونها فى وجه المدرسة اللاتينية العريقة الأصل والحسب؟ أو لم تر إلى من يسميهم الاستاذ عزمى المكعبين Les cubistes اذن فسيقوم عند بلوغها من صفو الصقل غاية أولئك «المكعبون» ومن اليهم من الثائرين. وسيكون أثر هؤلاء فى اللغة أثر السموم تدخل إلى الجسم القوى فتزيده قوة وتؤتيه من المناعة ما يقيه ويحفظه.

* * *

لا نطلب اليوم اذن إلى «الاقدمين» و«المحدثين» أن يكفوا عن النضال مادام نضالهم خطوة فى سبيل الكمال. انما الذى نرجوه ونطلبه أن يتضامن المئات والألوف من أهل اللغة العربية لتتمثل لغتهم حضارة الانسانية وليحتمل كاهلها كل ثمرات الذهن الانسانى من علم وفن وأدب. فاذا بلغوا من ذلك أن كان لأممهم حظ ونصيب من الثقافة القومية فقد آذنت الساعة لقيام النوابغ الذين ينفثون فى الشرق العربى روح حياة وقوة ويخلعون على اللغة ثوب البهاء الذى يجدر بها أن تكسوه فى هذه المدنية الحاضرة لتكون به جديرة بابناء هذا الشرق مهد أسمى الحضارات الانسانية وأكبرها مجدا وعظمة.

العرب والحضارة الإسلامية

سبعون مليون أو يزيدون يتكلمون اللغة العربية فى هذا العصر الحاضر. ويقيمون فى دول متجاورة تمتد حول الشاطىء الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط وتحيط بالبحر الأحمر وتمتد داخل آسيا إلى العراق وتتسلل إلى بعض طوائف فى العجم وأفغانستان وتركستان والهند. وهذه الدول المتجاورة يدين الأكثرون من أهلها بالاسلام. وقد خضعت كلها منذ أكثر من ألف سنة لمصائر متشابهة فسرت بينها مع وحدة اللغة والعقيدة والحظ وحدة فى الفكرة وفى الحضارة جعلت منها كتلة تتأثر بمؤثرات متشابهة وتنظر إلى المستقبل ولكل منها فيه ما لسائرها من رجاء.

هذه الوحدة فى اللغة والعقيدة والمصائر يرجع تاريخها فى هذه الأمم جميعا إلى تاريخ دخول الإسلام إليها مع العرب الفاتحين. أما قبل ذلك فكان لكل أمة منها لغتها وعقيدتها، وكانت أمم أفريقية تكاد تنفصل عن أمم آسيا خلا سوريا وفلسطين وما يتصل بهما، فكانت، فى أكثر حقب التاريخ، وشيجة الاتصال بمصر وأن استقلت بلغتها الآرامية عن الهيروغليفية وغير الهيروغليفية من اللغات التى استقرت على ضفاف النيل. ولقد لعبت هذه الدول التى اتحدت لغة وعقيدة ومصائر بعد

الاسلام دورا فى تاريخ العالم من أكبر الأدوار لا يزال له أثر بارز. وقد أقرت هذه الدول فى العالم حضارة لا يزال أثرها ولن يزول.

كان لكل أمه من هذه الأمم قبل الإسلام لغتها وعقيدتها، وكان مصير بعضها يتعلق تارة بدولة كبيرة أخرى كدول الفراعنة أو دولة الروم أو دولة الفرس، ويتحكم تارة فى مصائر هذا الغير من طريق الغزو أو من طريق الدين كما كان الأمر بعد ظهور اليهودية والمسيحية. أما العرب المقيمون فى شبه الجزيرة والذين نشروا الاسلام فى أقطار الأرض بعد ما نزل وحيه على رجل منهم فقد كانوا قبل الأسلام كما هم اليوم قبائل وعشائر تعيش فى بلاد كانت، و لا تزال، قاحلة لا يتجه نظر أحد للاستيلاء عليها أن لم يكن من هذا الاستيلاء، أية فائدة. ولذلك لم يفتحها اليونان والرومان كما فتحوا سائر الممالك المجاورة لها. وكانت تعتمد فى قوامها الاقتصادى على التجارة أكثر من اعتمادها على الثمرات القليلة الضئيلة التى وهبها القدر اياها. وكانت بلادهم، بموقعها بين آسيا وافريقية، بجدبها واضطرار أهلها للسعى فى مناكب الأرض وراء الرزق، طريق التجارة بين الأمم المحيطة بها. وكان البر يومئذ وسيلة صالحة للنقل لأن البحر كان لما يذلل متنه، ولما يخضع لحكم الأنسان عبابه، لكن العرب لم يكونوا لذلك تجارا بل كانوا حماة للتجارة التى تمر بأرضهم من غزو القبائل اياها وعدوانهم عليها، كما كانوا أصحاب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها إلى موردها. وهذه الحياة التى تقضى فى الحماية من غزو المعتدى وفى نقل التجارة من بلد إلى بلد تدفع إلى النفس أسمى معانى البطولة والإقدام والاعتماد على النفس والإعتداد بالذات. لكنها كذلك حياة قاسية قليل ما تدره من الربح، كثير ما تستغرقه من وقت من يعانيها. وهى بعد حياة تجوال قل أن يستقر صاحبها إلى ذويه، وقل أن تسمح بقيام المدن وتكون الجماعات المتشابكة المصالح القائمة حياتها العامة على التضامن والتنافس جميعا. وما تزال تلك هى الحال الاقتصادية فى جزيرة العرب

إلى يومنا الحاضر. فالمدن فيها قليلة، والموجود منها قليل عدد سكانه. ولقد حرمت ما كان لها من قبل من مزية مرور التجارة بها بعد ما أصبح البحر أكثر من البر أمنا، لكنها استعاضت عن ذلك بموسم الحج يدر عليها من فضل الله ما يقيم أهلها طول عامهم.

مثل هذه الحياة الاقتصادية التى تقضى على أهل شبه الجزيرة بالعزلة والتجوال وتحتم عليهم مواصلة العمل لكسب الرزق ولا تيسر انشاء المدن الكبيرة ليس فى طبيعتها أن تقر حضارة ثابتة القواعد باقية الأثر. ذلك بأن الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع فى الحضر. وهى لا تتفق وحياة البادية فى كيانها على نحو ما هو ظاهر من لفظ الحضارة نفسه. ثم ان الحضارة فيض من عمل الإنسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية والأدبية يزيد من هذه الحاجات ثم يحفز الإنسانية فى نفس الوقت إلى سعى جديد يكون من أثره فيض جديد. وهذا الفيض المتتابع هو الذى نقل الانسانية من حياتها الأولى إلى ما تنعم به اليوم من ترف ورفاهية، وهو الذى سينقلها فى حدود النظام والتقدم إلى أبعد مدى ترجيه نحو الكمال. وقد كان العربى فى وفرة من حاجاته الادبية والمعنوية. لكن حاجاته المادية وحكمها القاسى الذى اضطره إلى البداوة وإلى عيش العزلة هى ركن من قواعد الحضارة لا سبيل لقيامها بدونه.

وهذا فى ظننا هو أكبر السبب فى غموض تاريخ العرب قبل الاسلام غموضا يكاد يكون تاما. فبينا يرجع تاريخ مصر لأكثر من ستة آلاف سنة فيصور لنا حضارة عظيمة ثابتة الأركان والقواعد، تمتد من ضفاف النيل عبر البحر المتوسط إلى اليونان وروما وتجتاز برزخ السويس إلى فلسطين وسوريا وما وراءهما، وتظهر فيها الحياة المادية والمعنوية والأدبية واضحة الحدود والثنايا، ثم هى ما تزال تزداد بالبحث والتنقيب ظهورا ووضوحا؛ وبينا يحدثنا التاريخ عن اليونان وروما ويدل فيهما على حضارة ترجع إلى نحو ثلاثة الاف من السنين؛ وبينا سائر الأمم التى كانت معروفة فى تلك العصور

النائية قد تأثرت بهذه الحضارات وأثرت فيها وكانت لها حضارات خاصة ـ بينا يكشف لنا التاريخ عن هذا إذا به لايروى عن شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بأكثر من مائتى سنة شيئا معينا.وإذا رواياته عن هذين المائتين من السنين لا تدل على أكثر من أن العرب كانوا أهل بأس ونجدة وحياة معنوية فياضة. أما الحضارة ومظاهرها من علوم وفنون، أما هذا الفيض الذى يربو على حاجات الانسانية ثم يندمج فيها ليخلفه فيض جديد يندمج بعده فيض غيره، ثم ما يكون من ذلك من التقدم فى سبيل الكمال، فلا يحدثنا تاريخ العرب قبل الاسلام عن شىء منه. بل لا يزال شبه الجزيرة فى تاريخه من بعد الاسلام إلى يومنا خلوا من هذا لأنه لا يزال كما كان خاضعا لسلطان الحياة الاقتصادية التى لا تجود بما يقيم الركن المادى من أركان الحضارة.

على أن الناحيتين، المعنوية والأدبية، كانتا قويتين فى النفس العربية قبل الاسلام ولا تزالان قويتين فيها إلى حد عظيم. وهذه القوة المعنوية أثر من آثار قسوة الحياة الاقتصادية العربية، أو هى تعويض عن هذه القسوة تجود به الطبيعة وتقيمه فى الكائن الحى فطرة الاحتفاظ بالحياة. فلو أن الحرمان المادى قابلة حرمان معنوى لما استطاع هذا البدوى المقيم على شظف العيش أن يجد فى نفسه من الهمة ما يتغلب به على شدائد الدهر ونوائب الزمن. بل لو أن نفسه كان فيها هذا الاستسلام الوادع المطمئن إلى ما تجود به الطبيعة من عيش ناعم لقضى نحبه جوعا وظمأ. والقليل الذى بقى لنا من أدب العرب قبل الاسلام وفى صدره الأول يفيض بمعانى هذه الهمة وآثار تلك القوة التى كانت دائمة التحفز لمجالدة الطبيعة ومغالبتها. وماذا تسمى هذا الازدراء للتكسب بالشعر إلا أنه سمو عن المسألة واحتقار لكل من تحدثه نفسه بأن يعيش عالة على غيره وأن يكسب حياته من غير جده ونشاطه؟ ثم ماذا تسمى هذا الترفع من جانب الرؤساء عن قول الشعر ـ حتى كان امرؤ القيس عار أبيه ـ إلا أن هؤلاء الرؤساء كانوا يرون واجبهم فى الدفاع عن عشائرهم والذود عن حياضها

والحكم بين أهلها يقضى عليهم بالترفع عن القول إلى العمل خصوصا إذا أوجب هذا القول ما يوجبه الشعر العربى من غزل لا يتفق ورياستهم الرفيعة. على أن الشعر الذى قاله الرؤساء وغير الرؤساء كان يفيض حماسة ونجدة وينبىء عن رفعة فى النفس تبعدها عن الدنايا وتدفعها إلى أسمى الغايات.

هذا الفقر فى الناحية الاقتصادية والغنى فى الناحية المعنوية، وهذه العزلة الدائمه التجوال، كل ذلك جعل من العربى رجلا خياليا لا يعرف من دقائق حياة الوجود إلا قليلا. ثم مع هذا يرد كل ما فى الوجود إلى شخصه فيمتلىء بذلك زهوا وافتخارا. وأنت فيما ترجع إليه من أشعار العرب قبل الاسلام لا تجد إلا حديث الشاعر عن نفسه. فحبه وغزواته وكرمه ومجده ونسبه. وأنت تجد ذلك كله مذكورا بزهو أى زهو، واعجاب أى اعجاب. فأما ما كان من مظاهرة الحضارة فى الشعر؛ أما هذا الوصف لحياة الجماعات ونشاطها وغزوات الدول الاجنبية اياها وفخارها بالنصر وألمها للهزيمة مما تجده فى الياذة هوميروس، وأما هذه الفلسفة الدينية أوالوثنية التى تعبر عن إيمان الجماعة وآمالها فى الحياة وفيما بعد الحياة مما تجده فى آثار المصريين واليونان والرومان وأما هذه الفلسفة التى تعبر عن نظام الجماعة التى فرغت من سعيها لحياتها وجلست تفكر فى أمسها ويومها وفى الحياة والموت وما بعدهما، وأما هذه القصص التى يتلهى بها أهل المدن فى مسارحهم وحين قصفهم ولهوهم؛ أما هذا وما إليه من اثار الفكر والفن ومن ثمرات الحضارة فلا تكاد تحسه فى الشعر العربى قبل الاسلام. وكيف تطلبه إلى قوم حياتهم الاقتصادية ما رأيت ولهوهم هو هذا الغزل بالنساء والإشادة بالحب وذكره؟؟ والحب كما تعلم ليس إلا حديث بقاء النوع، كما أن الكفاح ليس إلا حديث الاحتفاظ بالحياة.

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام. أعدتهم الطبيعة لحياة العزلة والجهاد فظلوا قبائل لحمتها النسب وسداها حماية الجار عربيا كان أو غير عربى. وأنت لن تجد فى شعر الجاهلية معنى أسمى من هذه الحماية وبذل النفس فى سبيلها واستعداء العشيرة

على من يتعدى عليها. كما أنك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل جاوز عندهم ما تدفع اليه فطرة استبقاء النوع وتحسينه إلى أن صار فنا. يفكر الاعرابى فى محبوبته على أنها أمل يتخيله وصورة يصل فى وصفها إلى ما لم يصل إليه سواه. ذلك أن الشاعر العربى القديم كان يقاسى من ضرورات الحياة ما يقاسى ثم لا يجد من صور الترف والنعمة سوى المرأة. فكان لذلك يسبغ عليها كل ما فى عقله وقلبه وكل ما فى بصره وبصيرته من الصور والمعانى.

أما ما سوى هذه المظاهر من صور الحياة فلم يذكر عنه التاريخ شيئا. وإذا كان بعض المؤرخين قد وجد فى بلاد اليمن وفى بعض سواحل العرب شيئا من آثار الحضارة فذلك لأن تلك السواحل كانت فى حياتها الاقتصادية أحسن حظا من داخلية البلاد المحاطة بالصحراء، لكن حظها لم يكن من الوفرة بحيث ينيل ما وراءها من المتاع المادى الذى يقيم الحضارة فى شبه الجزيرة أو فى قسم منها ذى قوام خاص، لذلك بقيت حياتها البدوية أساس كيانها وبقى لها من هذه الحياة كل ما سبق وصفه من الآثار.

ولما جاء الاسلام كانت شبه الجزيرة على حالها القديم منقسمة شيعا وقبائل كل منها ذات كيان مستقل بما له من نسب وتقاليد ولهجة عربية تختلف قليلا أو كثيرا عن لهجة قريش. لكنها كانت جميعا ذات حياة معنوية وأدبية ممتازة فى القوة. وكانت هذه الحياة المعنوية غير متفقة مع ما كان سائدا بينها من عقائد أورثها أياها سلفها وجنى عليها ما كان يرد إليها مع أبنائها حماة التجارة من عقائد القبائل والشعوب والمجاورة. لذلك وجدت كلمة الاسلام فى بساطتها وقوتها وحقيقتها مرعى خصبا فى نفوس ترجو أن تطمئن، فلما اجتمعت كلمة العرب فى شبه الجزيرة حول الاسلام وتناصرت قبائلهم المتقاتلة وأصبحوا أمة جمعت كل قوى العربى المعنوية اتجهوا إلى الفتح ليقيموا الدين ولو كره الكافرون.

أوغل العرب المسلمون فى الشام والعراق والفرس ومصر فألفوها بلادا ذات حضارة كاملة الأداة والمظهر، ووجدوا فيها ثمرات الاجتماع من فلسفة وعلم وفن. وتلك شئون ليس لشبه الجزيرة بها عهد ولكنهم ألفوا الجانب المعنوى من هذه الحياة الحضرية ضعيفا متهدما نخره الترف وزعزعت أسسه المظالم، وهذا الضعف المعنوى، هذا الضعف فى إيمان النفس بذاتها، وهو الذى فتح أمام النفوس العربية - التى ازدادت بايمانها الجديد قوة وحماسة - أسوار هذه الأمم. فبدأ العرب أول فتحهم هذه البلاد ينشرون الدين فيها ويقيمون العدل بين أهلها، ويعفون على ما استقر من الحضارة بين ربوعها. وهذا يفسر لنا ما يقال من احراق بعض دور الكتب وعدم العناية بأى مظهر من مظاهر الفن. لكن فترة الغزو الأولى لم تلبث أن تمر ولم يلبث العرب أن أطمأنوا إلى معانى النعمة التى أفاضتها عليهم خيرات البلاد المفتوحة حتى بدأوا يترددون فى وجوب التعفف عنها. ولعل أول مظاهر هذا التردد صراحة انتقال حكومة الدولة من مكة والمدينة إلى دمشق. فليس شك فى أن من الأسباب التى أدت إلى هذا الانتقال ما رأى العرب من فقر شبه الجزيرة واقفارها ومن استحالة قيام الحضارة فيها. وبانتقال الحكومة إلى دمشق وأخذ الخليفة من مظاهر الترف بنصيب بدأ هؤلاء الذين قضوا حياتهم إلى ذلك الحين فى شظف من العيش ينالون من آثار النعمة ما يرفه عنهم مضض الجهاد وما يزيدهم للغزو حبا وفيه امعانا.

وإذ كانت الناحيتان الأدبية والمعنوية ناميتين عنده كما أسلفنا، وكان ذا حظ من الذكاء عظيم فقد استطاع العربى أن يتمثل حضارة البلاد التى مر بها. بل استطاع أكثر من ذلك أن يهضم الحضارات المختلفة وأن يسيغها وأن يجعل منها حضارة واحدة هى الحضارة الاسلامية. فهو قد وجد على شواطىء دجلة والفرات، ووجد فى بلاد فارس صورا من الحضارة ماثلة فى مظاهر الفكر والفن على غير الصورة التى مثلت بها الحضارة الرومانية على ضفاف النيل، وعلى غير ما وجد على شواطىء

البردا بدمشق. مع ذلك جمع هذه المظاهر كلها ومزجها فى فكره مزجا وأبرز منها للحضارة الاسلامية صورة جعلت ترقى رويدا وتزداد باتساع الفتح رقيا وتتمثل صورا ومعانى للحضارة جديدة حتى كانت حضارة بغداد وحضارة قرطبة غاية ما وصل إليه التقدم الانسانى فى تلك العصور. ولما تدهورت دولة العرب وقام الترك على حكم المسلمين وقفت هذه الحضارة الاسلامية التى ساغها العقل العربى فلم تتقدم وظلت واقفة إلى زمن قريب من عصرنا الحاضر، ثم هبت عليها نسمات من الحياة تبعث في النفوس اليوم أكبر الأمل أن يعود لهذه الحضارة مجدها وسلطانها.

خرج العرب المسلمون اذن من شبه الجزيرة ولا حضارة لهم، ثم كانوا أداة اتصال بين الحضارات المختلفة القائمة فى الفرس وفى مصر وفى الأندلس فتمثلوها، ثم خلقوا من مظاهرها جميعا حضارة متحدة هى الحضارة الإسلامية. وقد اقتضى قيام هذه الحضارة ما إقتضاه قيام كل حضارة سبقتها من مجهودات عقلية وفنية كبرى، ولقد قام أهل البلاد التى فتحها الاسلام بهذه المجهودات فألفوا بها بين حضارتهم السابقة وحضارات الأمم التى اشتركت معها بعد فتح العرب اياها فى نعمة الاسلام. أما العرب الفاتحون أنفسهم فقليل منهم من اشترك فى هذه المجهودات الفكرية والفنية وإن كانت جميعا قد تمت بأمرهم وتحت اشرافهم. ولعل أكبر ما يقنعك بهذا أن الأدب العربى، الذى كان باقيا للعرب أنفسهم لم يشاركهم فيه من أهل الأمم المحكومة إلا قليل، قد بقى بطابعة العربى القديم مع قليل من التحول زمنا طويلا. ثم هو على كل حال لم يتأثر فى غير الأندلس بمظاهر الحضارة الجديدة من وصف للمدائن والقصور وما تحتويه. وهو لم يتأثر ولا فى الأندلس تأثرا ظاهرا بالأبحاث التاريخية والفلسفية والعلمية التى كان يعالجها أهل تلك الأمم، والتى بلغت فى رفعة الحضارة الاسلامية مقاما محمودا وكانت ذات أثر مباشر فى تطور المدينة الغربية وفى بلوغها مكانتها الحاضرة.

وإنه لعجب حقا أن يدل الأدب العربى على أن العرب الذين تمثلوا حضارات الأمم التى حكموها ظلوا محتفظين بسحنتهم العربية حتى لكأنما أنفوا أن يستعيروا من أدب غيرهم ما لم يكن فى أدبهم قبل الاسلام من قوالب وصور. أم أنها لم تكن أنفة بل كان الطبع العربى السريع التنقل والتجوال هو الذى احتبسهم فى تلك القوالب القديمة؟ أرأيت شاعرا عربيا قحا عدا فى أوزانه أوزان العرب الجاهليين؟ وهل رأيت كتاب العرب اختلفوا فى نقل الروايات عمن سبقوهم؟ ثم هل جدد عربى فى الأدب نوعا من الأنواع لم يكن معروفا من قبل؟ وهل وضع أحد القصة الطويلة أو الرواية التمثيلية أو ما إلى ذلك مما عرفه أدب اليونان والرومان وما كان معروفا فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى خضعت للفتح العربى؟ أم أن الذين جددوا فى اللغة العربية لم يكونوا عربا اعرابا وأن الذين كتبوا كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وقصة عنتر وما إلى هذا من الأنواع الجديدة إنما كانوا من أهل البلاد التى دخلها العرب واتصل ما بينهم وبين أهلها برابطة الاسلام فكان تعاون على أعلاء شأن الدين والحضارة التى لازمته.

أستغفر الله فقد ابتدعت فى الأندلس صيغ وأوزان فى الشعر جديدة أخذها مشارقة المسلمين عنهم. كما أن الشعر العربى والنثر العربى تأثرا بكل حياة جديدة مرا بها فى تصويرهما المعانى. لكن أكبر عوامل هذا التجديد ليسوا العرب الأعراب وإنما هم الذين دخلوا فى الإسلام واتخذوا اللغة العربية لغه لهم. وقد يكون من الأعراب من تابعهم. لكن العرب الذين نزحوا من شبه الجزيرة ظلوا أغلب أمرهم محتفظين بكيانهم القديم كما ظلوا أدوات اتصال بين الأمم التى شاركتهم دين الهدى والحق.

على أن أكبر ما يسر للعرب الاشراف على قيام حضارة مشتركة بين هذه الأمم المتجاورة ما تربط الطبيعة به هذه الأمم من أواصر فهى جميعا ترجع إلى أجناس متقاربة كما أن وسائل الاتصال بينها عريقة فى التاريخ تقرب بينها اليوم كما كانت

تقرب بينها من قبل. ميسورة بسبب وقوعها جميعا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط أو على مقربة منه. ولقد كانت الحضارة التى قامت عى شواطىء هذا البحر متقاربة أبدا. وكان التفاهم لذلك بين أممه ميسورا.وكان فضل العرب الأكبر أنهم جاءوا إلى هذه البلاد فى عصر إنحلت فيه عناصر قوتها المعنوية وتخاذلت النفوس، فدفعوا إليها من قوتهم ومن ايمانهم الجديد نشاطا وقوة وتماسكا حفزتها للعود بحضارتها إلى الانتاج والتقدم كما قربت بين هذه الحضارت وأدمجتها فى الحضارة الاسلامية. واتصال العرب بهذه الأمم جميعا اتصال جوار وجنس وتجارة مكن لهذه الحضارة الجديدة أن تؤتى كل ثمراتها وأن تبدع فى مظاهر الفكر والفن والعلم مبتكرات ما يزال أثرها إلى اليوم باقيا.

هذه الآواصر التاريخية القديمة التى تربط أمم الشرق العربى بروابطها المتينة إلى يومنا الحاضر هى التى جعلت اللغة العربية والحضارة الاسلامية تبقى فى أكثر البلاد التى أقام فيها العرب واتصلوا فيها بروابط النسب والقربى. أما الدول التى لم تكن متينة الارتباط التاريخى بالحضارة الجديدة كالأندلس وفارس فقد عادت إلى عناصرها لأول ما دخل على السلطان العربى الضعف والانحلال. وها نحن أولاء تشهد أعيننا اليوم كيف تنبض هذه الأمم بدقات قلب واحد حين بدأ يدب فيها من جديد دبيب الحياة والقوة برغم ما تعانيه من ذ ل وأسر. فهذا المظهر وحده يدل على أنها جميعا اليوم على أبواب جدة (Renaissance) كجدة أمم الغرب فى القرن الخامس عشر، ولا يمكن أن تنفرد احداها بهذه الجدة ما دامت الحضارة الاسلامية التى نشر العرب لواءها هى مرجع هذه الجدة وهى التى تطعم عليها حضارة الشرق العربى الجديدة كما طعمت حضارة العرب أيام جدتها على مدنية اليونان والرومان.

أليس عجبا أن نذكر فى هذا الظرف الذى يجدونا فيه الرجاء ويملأنا الأمل فى أن نرى جدة مدنية الشرق العربى كيف كان هؤلاء العرب الأعراب ولا حضارة لهم

سببا فى تكوين الحضارة الاسلامية وفيما خلفت من أثار جمة فى العالم، أو ليس عجبا كذلك أن يظل هؤلاء العرب الأعراب إلى يومنا هذا ولا حضارة لهم لأن واديهم غير ذى زرع لا يصلح مستقرا للحضارة وأدواتها من فن وعلم وفلسفة. وأعجب من كل هذا أن أولئك الذين لا حضارة لهم قد أقروا فى منابت أكبر حضارات شهدها التاريخ لغتهم، فربطوا بذلك بين أمم هذا الشرق بأوثق رباط وصار حتما مقضيا على هذه الأمم أن تتفق حضارة ومصائر ما اتفقت لغة وعادات. ولكن لا عجب. فانما الايمان الذى رفع النفس العربية إلى المستوى السامى الذى يبعث النفس الانسانية إلى التقدم نحو الكمال هو الذى بعث الحياة الانسانية فى نفس الأمم التى أضعفها الاستعباد والترف فانتلقت بايمانها طفرة إلى النشاط الصالح وأقامت الحضارة التى بعثت إلى الكون حياته مئات من السنين.

ولقد كان الإيمان منذ بدأت الإنسانيه هو القوة الدافعة إلى الرقى والتقدم، وكان قوام الحضارات فى مصر وآشور واليونان ورومة كما أن الإيمان بالعلم وسلطانه هو قوام المدنية الغربية الحاضرة.

وإيمان شعوب الشرق العربى فى هذا العصر الحاضر هو الذى يبعث فى كل نفس أكبر الأمل بأن أمم هذا الشرق ستقوم عما قريب بدور عظيم فى أدوار حياة الانسانية.

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

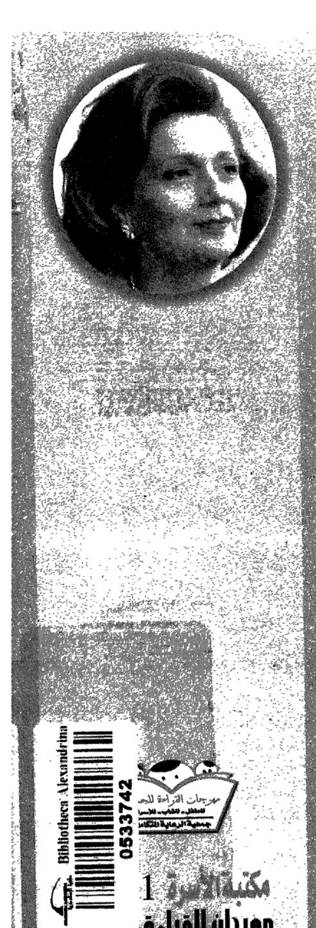
الكتاب الثاني شؤون مصرية

الكتاب الثالث : خواطر في التاريخ والأدب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٤٧١٢

I.S.B.N 977 - 01 - 7507 - 2



◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية. تعهد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

٢٠٠
قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب